

دكتور أبو اليسر فرح

تاريخ مصر

فى عصرى البطالمة والرومان

تاريخ مصر
فى عصرى البطالمة والرومان

تأليف
دكتور أبو اليسر فرح
كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى
٢٠٠٢



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Ein@hotmail.com

المحتويات

الصفحة

الحكم الرومانى (العائلة اليوليوكلودية - العائلة الفلاڤية) - مصر فى عصر الازدهار فى الإمبراطورية الرومانية - عصر الاضطراب - حضارة مصر فى عصر الرومان - النظم المالية والاقتصادية (الصناعة والتجارة) - الحياة الاجتماعية .

إهــداء

إلى النور الذى يسطع فى حياتى
إلى ابنى وقرة عينى « بدر »
أهدى هذا الكتاب

د. أبو اليسر فرح

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يتناول هذا الكتاب تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، وهو عصر يمتد مابين عام ٣٣٢ ق.م. وحتى عام ٢٨٤ميلادية ، ويعد من أخصب عصور التاريخ المصرى . ففى عام ٣٣٢ق.م. تمكن الإسكندر الأكبر من فتح مصر ، وكانت آنذاك إحدى ولايات الإمبراطورية الفارسية ، ثم أعقب ذلك بإسقاط الإمبراطورية الفارسية ذاتها ، والاستيلاء على كافة ممتلكاتها ، وقد واصل هذا الفاتح المقدونى تقدمه فى قلب القارة الآسيوية ، حتى وصل إلى وادى نهر السند، حيث قرر العودة ، وفى مدينة بابل العريقة وافته المنية فى عام ٣٢٣ ق.م.

يطلق المؤرخون على العصر الذى أعقب وفاة الإسكندر الأكبر اسم العصر الهللينيستى ، وهو عصر ذو ملامح محددة تختلف عن ملامح العصر السابق عليه ، فقد انصهرت الحضارات الشرقية مع الحضارة الإغريقية فى بوتقة واحدة ، وتولدت حضارة جديدة هى الحضارة الهللينيستية ، وهى حضارة ليست غربية ولا شرقية ، بل إنها جمعت مابين الشرق والغرب فى تناغم جميل ، يعكس أفكار الإسكندر الأكبر ، الذى كان يؤمن بالمساواة بين البشر ، وبذل جهوداً مضنية للتقريب بين الشرق والغرب .

ومن الناحية السياسية فإن إمبراطورية الإسكندر لم تلبث أن إنهارت ، وقاومت على أنقاضها ثلاث ممالك كبرى ، هى مملكة مقدونيا فى بلاد اليونان ، والدولة السلوقية التى كانت قاعدتها الرئيسية هى سوريا وبلاد الرافدين ، ولكنها شملت مناطق أخرى فى بعض الأحيان ، أما المملكة الثالثة فهى مملكة البطالمة فى مصر ، التى تمكنت من بسط سيطرتها على مناطق أخرى خارج مصر ، لعل أشهرها إقليم جوف سوريا .

ولما كان هدفنا من وضع هذا الكتاب هو دراسة تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، فإن حديثنا ينصب بشكل أساسى على دولة البطالمة ، ولكن هذا لايعنى أننا نهمل الحديث عن باقى الدول والقوى التى قامت فى العصر الهللينيستى ، ولكن حديثنا عن هذه الدول يأتى فى إطار الحديث عن علاقة هذه القوى بمصر ، دون الدخول فى تفاصيل عن هذه الدول ، ونحن نحيل القارىء إلى كتابنا " الشرق الأدنى في العصرين الهللينيستى والرومانى " إذا رغب فى الحصول على معلومات مفصلة عن الدولة السلوقية . ومما هو جدير بالذكر أن هذا العصر كان غنيًا بالتفاعلات الحضارية والسياسية بين مصر وكافة المناطق الأخرى ، فإن مصر بحكم موقعها وما تتمتع به من عمق حضارى لا تستطيع أن تعيش فى عزلة ، فكان لابد لها أن تؤثر فيمن حولها ، وأن تتأثر بهم كذلك .

وقد استمر هذا التفاعل بين مصر وجاراتها طوال عصر البطالمة وكان لمصر دورها المؤثر حتى فى فترات الضعف ، وتجلى ذلك فى عهد الملكة كليوباترة السابعة ، التى يعد عهدها بمثابة صحوة الموت لدولة البطالمة ، وفى عام ٣٠ ق.م. سقطت هذه الدولة ، وأصبحت مصر ولاية رومانية . وعلى الرغم من أن مصر كانت واحدة من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، فإنها كانت ولاية متميزة بين ولايات هذه الإمبراطورية ، وقبل الحديث عن تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، رأينا أن نشرح للقارىء قصة نرى أنه يحتاج إلى معرفتها ، وهى قصة قيام مدينة روما ، وكيف أصبحت إمبراطورية عالمية ، بسطت سلطانها على أغلب أرجاء المعمورة.

وإذا كانت مصر قد فقدت استقلالها ، وأصبحت ولاية رومانية ، فإنها ظلت تلعب دوراً بارزاً فى الإمبراطورية الرومانية ، وحسبنا أن نشير إلى أن مصر كانت تمد روما بثلث احتيجاتها السنوية من الغلال ، وأنها لعبت فى كثير من الأحيان دوراً كبيراً فى حسم الصراع على العرش الإمبراطورى فى روما . وقد آثرنا أن نتوقف فى دراستنا لتاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان عند عام ٢٨٤ ميلادية . ففى ذلك العام تولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس ، الذى رأى بثاقب بصره أن الإمبراطورية الرومانية قد هرمت ، وأنها بحاجة إلى إدخال تغيرات جذرية ، ومن ثم فقد أدخل تعديلات إدارية أدت فى النهاية إلى تقسيم العالم إلى قسمين هما الإمبراطورية الرومانية التى ظلت عاصمتها مدينة روما القديمة ، ولكنها لم

تلبث أن سقطت على يد الجرمان ، أما القسم الشرقى الذى أصبحت عاصمته مدينة القسطنطينية على ضفاف البوسفور ، والتى أقيمت فى مكان بلدة قديمة هى بيزنطة ، فهو القسم الذى عمر لمدة طويلة والذى عرف بالإمبراطورية البيزنطية ، وقد أصبحت مصر واحدة من ولايات الإمبراطورية البيزنطية ، ولاترجع التغيرات التى سادت العالم بعد عام ٢٨٤ ميلادية إلى تلك التغيرات فقط ، بل ترجع أيضًا إلى عامل مهم وهو المسيحية التى أصبحت العامل البارز فى حياة الناس والدول بعد عام ٢٨٤ ميلادية .

ونحن نستميح القارىء عذراً لأن التاريخ السياسى شغل الجانب الأكبر من هذا الكتاب أما الجوانب الحضارية فإننا حرصنا على تقديم الملامح البارزة مثل الديانة والنظم الإدراية والاقتصادية والمالية ، وكذلك الحياة الاجتماعية . وهى جوانب لدينا زخيرة من المعلومات عنها بفضل أوراق البردى التى جاءت بها تربة مصر . وإذا كنا قد أشرنا فى بداية هذه المقدمة إلى أن هذا العصر يعد من أخصب عصور التاريخ المصرى ، فهذه حقيقة يتأكد من صدقها من يغوص فى مصادر تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، وإذا كان البعض يعتقد أن هذا العصر هو عصر احتلال أجنبى لمصر ، وأن شخصية مصر قد توارت خلاله ، فإن هذا الاعتقاد يجانبه الصواب ، لأن مصر كانت قادرة طوال تاريخها المديد على أن تستوعب الوافدين ، وأن تسبغ عليهم شخصيتها و هذه هى عبقرية مصر ، فإن الإسكندر الأكبر منذ أن وطأت قدماه أرض مصر ، قال إنه ابن الإله آمون ، وتشبه بالفراعنة وحمل ألقابهم ، وسار على دربه خلفاؤه من البطالمة ، وكانت كليوباترة السابعة حريصة على أن تتشبه بالربة المصرية إيزيس . وقد سار الأباطرة الرومان على نفس النهج ، وحرصوا على أن يتم تصويرهم على جدران المعابد المصرية فى هيئة الفراعنة ، بل إن بعضهم سارع ببناء معابد للآلهة المصرية فى روما ذاتها .

لم يكن هذا الانبهار بمصر على المستوى الرسمى فقط ، بل على مستوى الأفراد أيضًا ، فمن المعروف أن بطليموس الأول مؤسس دولة فتح أبواب مصر على مصراعيها أمام الأجانب للاستقرار في مصر ، وبخاصة الإغريق ، ولم يلبث هؤلاء أن عبدوا الآلهة المصرية وتعلموا اللغة المصرية ، ومن ناحيتهم فإن المصريين لم ينغلقوا على أنفسهم بل أقبلوا على الحضارة

الإغريقية ، وانصهر المصريون والإغريق فى بوتقة واحدة ، ومع ازدياد حالات التزاوج بين الفريقين أصبح التفرقة بين المصريين والإغريق أمراً شديد الصعوبة .

وفيما يتعلق بالنظم التى طبقها البطالمة فى مصر ، فعلى الرغم من حرصهم على إضفاء مسحة إغريقية ، فإن هذه النظم ظلت فى جوهرها مصرية خالصة ، واستمر الحال على هذا المنوال فى عصر الرومان ، على الرغم من التغيرات المتلاحقة التى أدخلوها فى مصر . فأرجو أن يجد القارىء فى صفحات هذا الكتاب ما يعينه على رسم صورة طيبة لتاريخ مصر خلال هذا العصر .

والله الموفق

القاهرة - مدينة نصر

٢٠٠٢/٨/١

الفصل الأول
مقدمات العصر الهللينيستى

تعد فتوحات الإسكندر الأكبر للشرق ؛ بداية لذلك العصر ؛ الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالعصر الهللينيستى ، وهو عصر ذو ملامح حضارية متميزة ، سوف نعود إلى مناقشتها لاحقًا . والإسكندر الذى عرف بالأكبر فيما بعد ، هو الإسكندر الثالث ملك مقدونيا ، التى تقع شمال بلاد اليونان ، وهذا يقتضى منا إلقاء نظرة سريعة على أحوال هذه البلاد ، فى الفترة السابقة على عصر الإسكندر ، لكى نتعرف على الأسباب التى حدت بهذا القائد إلى فتح بلدان المشرق .

لعبت طبيعة بلاد اليونان الجبلية ، دوراً مهمًا فى الحيلولة دون قيام كيان سياسى موحد ؛ فقد قسمت السلاسل الجبلية هذه البلاد إلى أقاليم منفصلة (١)، وأدى ذلك إلى قيام كيانات سياسية مستقلة ، فى كلٍ من هذه الأقاليم ، عرفت باسم دويلات المدن ، إو ما يعرف بالـ Polis . ويعد هذا النظام هو محور الحضارة الإغريقية ، وكان الإغريق يرون أن نظام دولة المدينة ، هو النظام الأمثل ، الذى ينبغى للإنسان الحر أن يعيش فى كنفه ، وكانوا ينظرون إلى من يعيشون فى ظل أنظمة أخرى ، نظرة لا تخلو من الإحساس بالتعالى ويطلقون عليهم لفظ Barbaros (٢).

وتعد مدينة أثينا : من أشهر دويلات المدن ، وتشغل إقليم أتيكا ، الذى يتمتع بمكانة متميزة ، وكذلك مدينة إسبرطة Sparta ، التى تقع فى شبه جزيرة البليبونيز Peloponnese،

---

(1) Cary, Geographical Background of the Greek and Roman History. pp. 47 - 52 .

(٢) سيد الناصرى : الإغريق تاريخهم وحضارتهم ،دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨١ ص ٦٨ – ١٠٦.

جنوب بلاد اليونان ، أما مدينة طيبة Thebes فإنها تقع فى قلب بلاد اليونان . كما وجدت أيضًا دول أخرى ، سواء فى بلاد اليونان القارية ، أو فى الجزر التى تحيط بها .

وقد شهدت دويلات المدن ، تطورات مستمرة فى أنظمتها السياسية . وكان لكل دويلة منها تجربتها السياسية المستقلة . وتراوحت هذه النظم ما بين الملكية ، والأرستقراطية ، والديمقراطية . وفى شمال بلاد اليونان كانت تقبع دولة مقدونيا ، وبينما شهدت باقى اليونان تحولات سياسية وحضارية مهمة ؛ ظلت مقدونيا ذات طابع محافظ . لذا فقد ظلت نظرة الإغريق إلى سكان مقدونيا نظرتهم إلى قوم بدائيين . وقد سعى بعض ملوك مقدونيا ، إلى الأخذ بمظاهر الحضارة الإغريقية ، مثل الإسكندر الأول الذى كان يستضيف فى بلاطه بعض الكتاب الإغريق من أمثال هيرودوت ، كما كان الملك أرخيلاوس (٤١٣ - ٣٩٩ ق.م) Ar-chelaus شديد الإعجاب بالحضارة الإغريقية ، وكان بلاطه يعج بالكتاب الإغريق ، ويقال إن شاعر التراجيديا المعروف يوريبيديس Euripides ؛ كتب إحدى مسرحياته فى قصر الملك أرخيلاوس ، وأنه راح يمجد هذا الملك ، فى تلك المسرحية [١]. إلا أن الكثيرين من ملوك مقدونيا ؛ على الرغم من إعجابهم بالحضارة الإغريقية ، كانوا يرون أن الإغريق من الناحية السياسية ، مجرد دويلات متناحرة ، وكانوا ينظرون بإعجاب إلى الإمبراطورية الفارسية . وليس أدل على ذلك من تحالف الإسكندر الأول مع الفرس ، خلال الحروب الفارسية وسماحه لقواتهم خلال الحملة الأولى عام ٤٩٠ ق.م ، على بلاد اليونان ، بالمرور عبر أراضى مقدونيا ؛ بل ومشاركته فى الحملة الثانية فى عام ٤٨٠ ق.م ، إلى جانب الفرس . وهنا ينبغى أن نتوقف لإلقاء نظرة على العلاقة بين الفرس والإغريق .

الفرس والإغريق :

شهد الشرق الأدنى فى حوالى عام ٥٥٠ ق.م ، قيام قورش بتأسيس الإمبراطورية الإخمينية ، ومنذ عام ٥٤٧ ق.م ، أخذت هذه الدولة تشكل تهديداً لجيرانها ، لما يقرب من سبعين عامًا متواصلة [٢]. وامتدت حدود إمبراطورية قورش : من بحر إيجه غربًا حتى

---

(1) Bengtson. H; The Rise of Macedonia Under King Philip II (The Greeks and the Persians) p. 284 .

(2) Bengtson. H; The Persian Empire and The Greeks Ca.520B.C. (The Greeks and Persians) p.1 .

جبال هندكوش في الشرق ، ومن بحر قزوين شمالاً ، حتى صحراء بلاد العرب جنوبًا . وكانت المدن الإغريقية التي تقع على ساحل أيونيا ، في آسيا الصغرى ، من المناطق التي خضعت للسيطرة الفارسية .

وبعد وفاة قورش خلفه على العرش قمبيز ٥٣٠ - ٥٢٢ ق.م ؛ الذي سار على نهج سلفه ، ولم تقتصر فتوحاته على القارة الآسيوية فقط ؛ بل امتدت إلى قارة أفريقيا أيضًا بسبب رغبته في الاستيلاء على مصر وقوريني ، لما يمثله هذان البلدان من أهمية قصوى للإغريق ؛ حيث كانوا يعتمدون عليهما في الحصول على حاجتهم من الغلال ، فأراد قمبيز حرمان الإغريق من هذه السلعة الحيوية ، ويأتي ذلك في إطار الرغبة في محاربة الإغريق باعتبارهم يمثلون عقبة ، أمام انفراد الفرس بالسيادة البحرية على شرق المتوسط .

وبعد وفاة قمبيز ارتقى عرش الإمبراطورية الفارسية ابنه دارا (الذي يطلق عليه الإغريق داريـــوس Darius) ، وحكم فيما بين عامي ٥٢١ - ٤٨٦ ق.م . وعمل على إعادة بناء الإمبراطورية ، على أسس راسخة [١]، وقد حدثنا المؤرخ هيرودوت[٢] عن تنظيمات دارا ؛ فذكر أنه قسم الإمبراطورية إلى عدد من الولايات ، على رأس كل منها حاكم يحمل لقب ستـــرب Satrap [٣]، وقد جعلت هذه التنظيمات دارا واحداً من أعظم رجال الإمبراطورية الفارسية . وعلى الرغم من الجوانب البراقة في تنظيمات دارا ؛ فقد وجد جانب سلبي ، أخذ ينمو في عصر هذا الملك ، ويتمثل في نمو الإحساس بالتفوق ، والاستعلاء ، والجدارة بالسيادة على سائر رعايا الإمبراطورية الفارسية ، من الشعوب الأخرى . كما أن الأساس النظري الذي قامت عليه فكرة الملكية الفارسية ؛ كان يقوم على النظر إلى كافة رعايا الملك باعتبارهم عبيداً له [٤]. وهو مفهوم لابد وأن يتصادم مع ما جبل عليه الإغريق من نزوع إلى الحرية والاستقلال السياسي .

---

(1) Bengtson. H; op. cit p.10 .

(2) Herodot. III. 89 ff .

(٣) كلمة فارسية معناها : "حامي المملكة" .

(4) Bengtson. H; op.cit. p.19 .

وبالنسبة للمدن الإغريقية فى آسيا الصغرى ، التى وجدت نفسها خاضعة للسيادة الفارسية ؛ فإنها على الرغم من تمتعها بالحرية فى إدارة شئونها الداخلية ، كانت مضطرة للإذعان لمفهوم السيادة الفارسية [١]، وعرف عن الفرس مناصرتهم للحكام الطغاة ، واعتماد هؤلاء الحكام على الفرس فى استمرار تسلطهم على رعاياهم . وقد حدث على سبيل المثال فى عام ٥٢٢ ق.م أن سقط بوليكراتيس Polycrates ، طاغية جزيرة ساموس Samos ، إلا أن الوالى الفارسى فى آسيا الصغرى ؛ فرض طاغية آخر على مواطنى الجزيرة ، وجعله تابعًا للفرس [٢].

وفى أثينا التى كانت تعد واحدة من أكبر دويلات الإغريق ، نجح مواطنوها فى التخلص من الطاغية هيبياس Hepias ، وأخذ نظام الحكم يتجه نحو الديمقراطية ، وراحت أثينا تروج لهذا النظام وتحاول نشره فى باقى المدن الإغريقية . وترتب على ذلك أن الآثينيين راحوا ينظرون إلى الفرس نظرتهم إلى طغاة برابرة لا ينبغى الخضوع لهم ؛ ومن ثم فقد راحوا يحرضون إغريق آسيا الصغرى على الثورة ضدهم .

لم تلبث الدعاية الآثينية أن أتت ثمارها ، فانفجرت ثورة المدن الأيونية ضد الفرس ، فى عام ٤٩٩ ق.م . وقام الثوار باضرام النار فى مدينة ساردیس Sardis ، عاصمة إقليم ليديا[٣] . وتمكن الفرس من إخماد هذا التمرد ، ولم ينس الملك دارا أن أثينا كانت هى السبب فى إشعال هذه الفتنة ؛ فقرر أن يعاقبها ، فأرسل حملة عسكرية فى عام ٤٩٤ . إلا أن سوء الأحوال الجوية حال دون إتمام الحملة . ولم يلبث أن أعاد الكرة فى عام ٤٩٠ ق.م. وفى هذه المرة نجحت القوات الفارسية فى النزول فى سهل ماراثون Marathon ، الذى يقع بالقرب من أثينا ، ولكن الآثينيين تمكنوا من إنزال هزيمة بالفرس عند هذا السهل[٤] .

---

(١) مما هو جدير بالذكر ، أن النشاط الحضارى فى منطقة أيونيا ، لم يتأثر بالأوضاع السياسية ، وظلت هذه المنطقة مركزًا للنشاط الثقافى ، وقدمت العديدين من رجال الفكر مثل الفيلسوف أنكسمندر Anaxi-mander ، والمؤرخ هيرودوت .

(2) Bengtson. H; op.cit. p. 22 .

(3) Bengtson. H; The Ionian Rebellion and the Persian Wars to the Battle of Marathon (The Greeks and the Persians) pp. 40 - 41 .

(4) Bengtson. H.; op. cit. p. 45 .

توفى الملك الفارسى دارا الأول فى عام ٤٨٦ ق.م ، دون أن يحقق حلمه ، بالانتقام من أثينا ، لذا فإن خليفته إكسركسيس Xerxes ، قرر أن يضع هذا الحلم موضع التنفيذ ؛ فأعد جيشًا جرارًا ، وأسطولاً كبيرًا لهذا الغرض ، وفى هذه المرة أيضًا وقفت الأحوال الجوية السيئة، حجر عثرة أمام إتمام الحملة . ولكن بحلول عام ٤٨٠ ق.م. تمكن الجيش الفارسى من عبور البوسفور والدردنيل . وإزاء هذا الخطر الذى بات يتهددهم ؛ اضطر الإغريق إلى أن ينحوا خلافاتهم جانبًا . وقرروا إقامة حلف عسكرى فيما بينهم ، لمواجهة الفرس . إلا أن هؤلاء الأخيرين تمكنوا من اجتياز ممر ثرموبيلاى Thermopylae ، وهو ممر استراتيجى ، بعد أن أبادوا قوة اسبرطة ، بقيادة ملك إسبرطية ليونيداس Leonidas ، كانت ترابط عند هذا الممر.

بعد الانتصار على القوة الإسبرطية . والاستيلاء على هذا الممر الهام ، أصبح الطريق أمام الفرس ممهدًا ، لاحتلال مدينة أثينا ، وقد أدرك الأثينيون أنه لا قبل لهم بمواجهة الفرس ؛ فقاموا بإخلاء المدينة ، واتخذوا من الجزر القريبة مُستقرًا إلى حين . فدخل الفرس إلى أثينا ، وبلغت بهم روح التشفى والحقد حدا جعلهم يضرمون النار فى أعظم مدن الإغريق . مما حفز روح الرغبة فى المقاومة لدى باقى الإغريق ، فعقدوا القيادة لأسبرطة وتمكنوا من إحراز نصر مؤزر على الأسطول الفارسى ، عند جزيرة سلاميس Salamis ، وهو ما جعل الفرس يولون الأدبار ، وكان هذا النصر فى عام ٤٨٠ ق.م (١)، وفى العام التالى واصل الإغريق إنتصارهم على الفرس ؛ فأحرزوا عليهم نصرًا باهرًا فى بلاتايا Plataea . وترتب على ذلك طرد الفرس من بلاد اليونان .

الإغريق فى القرن الخامس ق . م :

بعد انسحاب الفرس من بلاد الإغريق ، سيطر الخوف من عودتهم مرة أخرى . وعادت إسبرطة إلى ممارسة سياسة العزلة ، والانكماش فى شبه جزيرة البلبونيز ، أما أثينا فكانت أكثر إحساسًا بالخوف ؛ لذا راحت تدعو إلى قيام حلف دفاعى ، من أجل التصدى للفرس ، وسارعت العديد من المدن الأيونية ، وجزر بحر إيجه إلى تلبية الدعوة ، وتقرر إقامة حلف عسكرى بزعامة أثينا ، ووقع الاختيار على جزيرة ديلوس Delos ؛ لكى تكون مقرًا لخزانة الحلف ؛ لذا عرف هذا الحلف باسم حلف ديلوس (٢).

---

(1) Bengtson. H; op.cit. p.59 .

(2) Bury. J.B.; The History of Greece. pp. 203ff.

ولم يلبث الحلف أن تحول إلى أداة للهيمنة الأثينية ، وراحت أثينا تمارس سياسة تقوم على التسلط ، والاستعلاء على سائر أعضاء الحلف ، وتعاملت بقسوة متناهية مع المدن التى فكرت فى الخروج على سياستها ، كما راحت تتدخل فى الشئون الداخلية لتلك المدن ، وإمعانًا فى إظهار تسلطها ؛ قامت السلطات الأثينية بنقل خزانة الحلف ، إلى أثينا ذاتها . مما أدى إلى إثارة امتعاض باقى الأعضاء .

أما إسبرطة فقد انكفأت على نفسها فى البلبيونيز ، بعد أن تعرضت لزلزال مدمر ؛ أدى إلى إلحاق أضرار مادية جسيمة بها ، مما شجع الأرقاء (الهيلوتس Helots) على الثورة ، من أجل التخلص من نير الإسبرطيين ، إلا أن إسبرطة تمكنت من إخماد هذه الثورة .

وفى أثينا استطاع الحزب الديمقراطى أن يصل إلى الحكم ، وأخذت مشاعر العداء لإسبرطة تزداد بين الأثينيين ، وعادت روح التنافس القديمة بين أثينا وإسبرطة تطل برأسها مرة أخرى ، وأخذ كل طرف يتشكك فى نوايا الطرف الآخر . وقامت إسبرطة بدورها بتكوين حلف عسكرى، ضمت إليه غالبية مدن البلبونيز . ونظرت بعين الشك إلى قيام أثينا بتحصين ميناء بيرايوس ، وبدأت التحرشات بين الطرفين ، إلا أنها توقفت بعد عقد معاهدات فى عام ٤٤٥ ق.م.

لم تكن هذه المعاهدة سوى فرصة لالتقاط الأنفاس ، أخذ كل طرف يعمل خلالها من أجل تدعيم قواته استعداداً للحرب ، وفى عام ٤٣١ ق.م. تفجرت الحرب ، التى عرفت بحرب البليبونيز ، التى اكتوت بنارها بلاد اليونان حتى عام ٤٠٤ ق.م. وهى الأحداث التى رواها المؤرخ الأثينى ثوكوديديز Thucydides . وكانت الشرارة التى أشعلت الحرب ، هى تدخل أثينا فى خلاف نشب بين كورنث ، وهى واحدة من أعضاء حلف البلبونيز[1] وإحدى مستعمراتها ، ولم يكن أمام إسبرطة وحلفائها سوى قبول هذا التحدى ، فقامت قوات الحلف بغزو أراضى أثينا فى عام ٤٣٠ ق.م [2]، وكانت إسبرطة تتمتع بالتفوق فى القوات البرية ، بينما كانت لأثينا الغلبة فى البحر .

---

(1) Bengtson. H; The Peloponuesian War (431-404 B.C) (The Greeks and the Persians) p. 158 .

(2) Bengtson. H; op. cit. p. 167 .

وكان على أثينا أن تدفع ثمن الصلف والغطرسة التى مارستها ضد المدن الصغرى ؛ لذا فقد لحقت بقواتها هزيمة منكرة فى جزيرة صقلية ، فى عام ٤١٤ ق.م . وترتب على هذه الهزيمة أحداث مهمة فى داخل أثينا ، كما بدأ حلفاؤها يتململون ، بعد أن ضاقوا ذرعًا بهيمنة أثينا. وعلى الرغم من ذلك فقد أصرت أثينا على مواصلة الحرب ، إلى أن تعرضت لضربة قاصمة فى عام ٤٠٤ ق.م ؛ حيث تمكن الإسبرطيون من إلحاق هزيمة قاسية بالأسطول الأثينى . وحصار أثينا ، وإجبارها على توقيع صلح مهين نفقدت على أثره مكانتها فى بلاد اليونان[1] ، مما أدى إلى سقوط الحكم الديمقراطى فيها .

مقدونيا والإغريق :

كان للموقف المحايد الذى التزمت به مقدونيا ، خلال حرب البليبونيز ، أبعد الأثر فى المحافظة على قوتها . وقد ساعدها على تحقيق المزيد من الاستقلال فى سياستها ، حالة الضعف التى سيطرت على الإمبراطورية الفارسية ، فى النصف الثانى من القرن الخامس . فلم تجد صعوبة فى التخلى عن صداقة الفرس .

بعد وفاة أرخيلاوس ، ملك مقدونيا القوى فى عام ٣٩٩ ق.م ، سيطر الضعف على هذه المملكة . مما شجع ملك طيبة على مهاجمة مقدونيا عام ٣٦٧ق.م ، وأخذ معه الأمير فيليب Philip . وقد أتاح البقاء فى طيبة لهذا الأمير الفرصة أن يتعلم فى مدرسة طيبة العسكرية، التى كانت أفضل المدارس فى بلاد اليونان . وبعد أن شب فيليب عاد إلى مقدونيا، ونجح فى ارتقاء العرش فى عام ٣٥٩ ق.م .

كان فيليب قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر ، عندما تربع على عرش مقدونيا ، فأخذ يعمل على تقوية بلاده فى شتى المجالات ، وتحمس لنشر الحضارة الإغريقية فى سائر أرجاء المملكة . واستطاع أن يبسط سيطرته على الكثير من الأقاليم المجاورة[2]. وقد أحس الملك فيليب بأن خطر الفرس ما يزال يلوح فى الأفق ؛ فدعا الإغريق إلى الاتحاد ، إلا أنهم أصموا آذانهم عن هذه الدعوة، ورأى البعض منهم أن فيليب يمثل خطراً على حرية الإغريق، لا يقل بأى حال من الأحوال عن خطر الفرس، وأخذ الخطيب الأثينى الشهير ديموستينز

---

(1) Bengtson. H; op. cit. p. 194 .

(2) Bengtson. H; The Rise of Macedonia under King Philip II. p. 286 .

Demosthenes فى إلقاء مجموعة من الخطب النارية ، لتحريض الإغريق ضد فيليب ، ووصل به الأمر إلى اقتراح طلب المعونة من الفرس ، لدرء خطر مقدونيا . وعند هذا الحد وجد فيليب أنه لا مناص من فرض الوحدة على الإغريق ، فحاربهم بعد أن اجتمعوا ضده ، وأنزل بهم الهزيمة فى موقعة خايرونيا Chaeronea فى عام ٣٣٨ ق.م [1]؛ وأجبرهم على تكوين حلف عسكرى بزعامة مقدونيا ، من أجل محاربة الفرس ، والانتقام منهم لأنهم دنسوا مقدسات اليونان ، وأعلن فيليب عن عزمه على قيادة الإغريق لحرب الفرس . وفى عام ٣٣٨ ق.م . عبرت طلائع القوات المقدونية مضيق الهلسبونت [2]، وكان من المقرر أن يبدأ الزحف الكامل فى عام ٣٣٦ ق.م. إلا أن اغتيال فيليب فى هذا العام أوقف هذا المشروع .

الإسكندر الأكبر :

اعتلى الاسكندر الثالث ، الذى عرف بالأكبر فيما بعد ، عرش مقدونيا ، وكان يبلغ من العمر عشرين عامًا ، وكان قد أظهر منذ صباه المبكر نبوغًا ، يدل على أنه سيصبح حاكمًا قديرًا. وتلقى العلم على يد الفيلسوف المشهور أرسطو [3]، وظل شديد العرفان لهذا الأستاذ ، وأشاد به قائلاً " أن أبى هو الذى وهبنى الحياة ، لكن أرسطو هو الذى علمنى كيف أحيا " .

وقد أظهر الإسكندر منذ صباه شجاعة وثقة كبيرة فى النفس . وكان على ثقة من أنه سيرتقى عرش مقدونيا ، ويروى عنه أنه عندما كان فى عامه الثانى عشر ، وافته الأنباء بأن فيليب انتصر فى معركة كبيرة ، فتضايق قائلاً " إذا ظل أبى يكسب مزيداً من المعارك ، فلن يتبقى لى بلاد أفتحها "[4] . وعندما بلغ السابعة عشرة ؛ قرر فيليب أن الوقت قد حان لتدريب ابنه على الحكم . فأسند إليه مهمة تصريف الأمور فى مقدونيا ، عندما اضطر إلى التوجه جنوبًا فى بلاد اليونان . وفى تلك الأثناء انتهزت إحدى القبائل الفرصة ، وأعلنت التمرد مستغلة حداثة سن الإسكندر . إلا أنه قمع هذا التمرد بعنف . واستولى على أكبر المدن التى تقع فى أرض هذه القبيلة ، وأطلق عليها اسم " مدينة الإسكندر " Alexandropolis .

---

(1) Bengtson. H; op. cit. pp. 299 - 300 .

(2) Bengtson. H; op. cit., p. 302 .

(٣) جونتر : الإسكندر الأكبر ، ترجمة فاروق القاضى ، ص ٣٠ .

(4) Savill, A; Alexander the Great and his Time. New York. 1993. p. 209 .

وفى معركة خايرونيا التى دحر فيها فيليب المدن الأغريقية فى عام ٣٣٨ ق.م . كان الإسكندر يتولى قيادة الفرسان[١] ، وكان عمره ثمانية عشر عامًا ، وأظهر بسالة نادرة خلال المعركة . إلا أن العلاقة بين الإسكندر ووالده كانت متوترة ، ويرجع سبب هذا التوتر إلى أوليمبياس Olympias ، والدة الإسكندر ، وعلى الرغم من أنها كانت سيدة شرسة ، غريبة الأطوار ، إلا أنها كانت عظيمة الأثر على ابنها [٢]. وكان فيليب قد ضاق بها ذرعًا ؛ واتخذ لنفسه زوجة أخرى تدعى كليوباترة ، وكانت مقدونية ، بينما كانت أوليمبياس من منطقة إيبيروس Eperus ، التى تقع غربى بلاد اليونان ؛ لذا فقد راحت الأقاويل تتناثر حول رغبة فيليب فى إنجاب وريث للعرش ، يكون مقدونيا خالصًا ، مما يعنى إزاحة الإسكندر عن ولاية العهد .

وعندما بلغ التوتر فى العلاقة بين فيليب وزوجته ، درجة عالية ؛ قرر فيليب نفى هذه السيدة المشاكسة إلى بلدها [٣]. وقد رافق الإسكندر والدته إلى المنفى . وبعد برهة أرسل فيليب إلى الإسكندر ، طالبًا منه العودة إلى مقدونيا ، وقد استجاب الابن وعاد إلى مدينة "بلا "Pella ، عاصمة مقدونيا ، وعلى الرغم من محاولات فيليب للتقرب من ابنه ؛ إلا أن الإسكندر ظل فاترًا تجاه أبيه . وعندما أنجبت العروس المقدونية إبنًا لفيليب ، استبد القلق بالإسكندر ووالدته ، وساورهم الخوف من أن تتحقق الأقاويل التى أثيرت من قبل ، فى ردهات القصر . وفى عام ٣٣٦ ق.م. تم اغتيال فيليب ، فكان من الطبيعى أن تشير أصابع الاتهام إلى الإسكندر ووالدته [٤]. وهو اتهام لم تثبت صحته . وعندما أصبح الإسكندر ملكًا؛ كان أول عمل أقدمت عليه أوليمبياس هو قتل كليوباترة وابنها ، وهو عمل أثار استياء الإسكندر .

تربع الإسكندر على عرش مقدونيا فى عام ٣٣٦ ق.م. ، وعمره عشرين عامًا ، وما أن ترامى إلى المدن الإغريقية نبأ وفاة فيليب ؛ حتى هبت ثائرة ، رغبة فى التخلص من نير

---

(١) جونتر : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(2) Hamilton. J.R; Alexander the Great. London. 1973. p. 31 .

(٣) جونتر : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(4) Hamilton. J.R.; op. cit. p. 42 .



الإسكندر الأكبر

مقدونيا ، وكان الإغريق يعتقدون أن الإسكندر شاب صغير لا تتوفر لديه قوة فيليب ولا خبرته. تزعمت مدينة طيبة ثورة الإغريق ضد مقدونيا ، فسار إليها الإسكندر ، واستولى عليها ، وأمر بتسوية المدينة بالأرض ، وبيع ثلاثين ألفًا من أهلها فى أسواق العبيد ، إضافة إلى قتل ستة آلاف آخرين منهم (١). وقد أراد الإسكندر أن يجعل من طيبة أمثولة ، حتى يتعظ باقى الإغريق ، ويبدو أنهم قد استوعبوا الدرس جيداً ، فلم يسببوا متاعب تذكر للإسكندر بعد ذلك.

بعد أن اطمأن الإسكندر إلى هدوء الأحوال ، فى بلاد اليونان ، شرع فى القيام بالحملة ، التى كان يتأهب أبوه فيليب للقيام بها ، ضد الإمبراطورية الفارسية (٢). وبعد عامين من إعتلائه العرش ، أى فى عام ٣٣٤ ق.م. عبر بقواته مضيق الهلسبونت ، وقام بزيارة سهل طرواده ، وهو المكان الذى شهد أحداث حرب طروادة ، وربما حملت هذه الزيارة مغزى مهمًا ، فبالإضافة إلى الإعجاب الشديد الذى يكنه الإسكندر لأخيل بطل ملحمة الإلياذة ، التى تناولت أحداث حرب طراودة ؛ فإن هذه الحرب نظر إليها البعض على إنها مرحلة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب ، وهى مرحلة انتهت بانتصار الغرب ممثلاً فى أجداد الإغريق ، الذين هزموا طروادة ، القوة الشرقية .

توغل الإسكندر بعد ذلك فى آسيا الصغرى ، وكانت من ممتلكات الإمبراطورية الفارسية(٣). وكان جيشه يبلغ ثلاثين ألفًا من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان . وهو جيش صغير ، إذا ما أخذنا فى الاعتبار ما كانت تتمتع به الإمبراطورية الفارسية ، من قدرة على

---

(١) يرى البعض أن هذا المصير المؤلم الذى حاق بمدينة طيبة لا تقع مسئوليته على الإسكندر وحده . وإنما يتحمل المسئولية أيضًا باقى الحلفاء الذين كانوا يرغبون فى الانتقام من مدينة طيبة : راجع تارن ، الإسكندر الأكبر قصته وتاريخه ، ترجمة زكى على : القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٩ .

(٢) من الجدير بالذكر أن الزعيم الأثينى بركليز Pericles هو الذى أوصى بالقيام بهذه الحملة من أجل الانتقام من الفرس ، لأنهم دنسوا المعابد الإغريقية

انظر : . Wilken. U; Alexander the Great. New York. 1976. P. 48

(3) Jouguet. P. ; Alexander the Great and the Hellenistic World. Chicago. 1978. P. 17 .

إعداد قوات كبيرة . وأحرز الإسكندر أول انتصاراته على الفرس ، عند نهر صغير يسمى جرانيكوس Granicos مما أتاح له فرصة الاستيلاء على باقى أقاليم آسيا الصغرى ، وكذلك الجزر المتاخمة للشاطىء .

واصل الإسكندر سيره ، متجهًا صوب الجنوب ، فوصل إلى إسوس Issos (طرسوس الحالية) . وفى هذا الموقع دارت رحى معركة كبيرة ؛ حيث كان الجيش الفارسى ، بقيادة الملك دارا الثالث مرابطًا عند هذا المكان ، وأحرز الإسكندر نصراً باهراً ، فر على أثره الملك دارا الثالث ، تاركًا والدته وزوجته وبناته ، اللاتى وقعن فى أسر الإسكندر فأكرمهن وعاملهن معاملة طيبة [١]. وأمر الإسكندر ببناء مدينة فى هذا الموقع احتفالاً بالنصر ، حملت اسم الإسكندرية (الإسكندرونة فيما بعد) [٢].

عقب الهزيمة فر دارا إلى الشرق ، وكان من المتوقع أن يسير الإسكندر فى إثره ؛ إلاّ أنه رأى أنه من الأصوب أن يقوم بالاستيلاء على قواعد الأسطول الفارسى فى البحر المتوسط أولاً، لذلك قرر السير إلى الجنوب . ويرى بعض الدارسين أن المؤرخين قد بالغوا فى الإشادة بعبقرية الإسكندر [٣]، عند إشارتهم إلى هذه الخطوة . وأن الأمر لا يعدو رغبة الإسكندر فى الاستيلاء على مصر ؛ وذلك لما كانت تتمتع به من شهرة . باعتبارها من أهم مصادر الغلال فى العالم القديم ، وأنه كان يحتاج إلى مصدر لتمويل جيشه ، قبل الإقدام على الاتجاه إلى الشرق . وإذا كان هذا الرأى على قدر كبير من الصحة فإننا لا ينبغى أن نغفل عن الأهداف الاستراتيجية ، التى ذكرها فى خطبة ألقاها بينما كان يحاصر مدينة صور . فقد خاطب رجاله قائلاً " إننا لا يمكن أن نكون آمنين على أنفسنا ، ونحن نتقدم إلى الشرق ، ومثل هذه المدينة فى ظهورنا " [٤].

---

(١) قال الإسكندر لعائلة دارا " إننى لا أحارب شخص دارا ، ولكنى أحارب من أجل ملكه فقط ". انظر: Arrian. Anab.II.8-11 .

(٢) سيد الناصرى : تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى فى العصر الهللينيستى . القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٣) مصطفى العبادى . العصر الهللينيستى . بيروت ١٩٨٨ . ص ١٨٠ ، ١٩٠ .

(4)Arrian. Anab. II. 17 .

اجتاح الإسكندر ساحل فينيقيا ، وراحت المدن تستسلم واحدة تلو الأخرى . إلا أن مدينة صور استعصت عليه ، وأغلقت أبوابها دونه . فحاصرها لمدة سبعة شهور . وأضطرت للاستسلام بعد مقاومة عنيدة . فأنزل الإسكندر بأهلها عقابًا أشبه بما فعله مع طيبة من قبل . وفى أثناء حصاره لمدينة صور ، تلقى الإسكندر رسالة من الملك دارا ، حملت عرضًا من الملك الفارسى، يقضى بالاعتراف بالإسكندر ملكًا ، وأن يتنازل له عن الأراضى التى تقع غربى نهر الفرات ، كما عرض أن يزوجه ابنته ، إلا أن الإسكندر رفض هذا العرض (١).

فتح مصر :

فى خريف عام ٣٣٢ ق.م. تقدم الإسكندر نحو مدينة غزة ، فسلمت له بعد أن حاصرها لمدة شهرين . وأصبح على مشارف مصر . فبلغ مدينة بيلوزيون Pelosion (تل الفرما الحالية ، شرقى بورسعيد) وهى بوابة مصر الشرقية . وكانت أنباء انتصارات الإسكندر قد سبقته ؛ فسارع الوالى الفارسى بالاستسلام للفاتح المقدونى . كما رحب به المصريون ترحيبًا حارًا . فقد راجت شائعات حول ارتباط الإسكندر بالإله آمون ، وانحداره من صلب آخر فراعنة مصر ، الذى يدعى نكتنبو الثانى Nectanenbo(٢). وأنه جاء لكى يحرر مصر من الاحتلال الفارسى . ولما كان المصريون يحلمون بالتخلص من الفرس ؛ فقد سرتهم هذه الأنباء ، ومما هو جدير بالذكر أن المصريين كانوا قد ثاروا أكثر من مرة ، وذلك من أجل استخلاص حريتهم من الفرس ، إلا أن الفرس تمكنوا من إخماد هذه الثورات وإبقاء مصر تحت سيادتهم ، ولما كان الإغريق قد مدوا يد العون للمصريين خلال هذه الثورات ؛ فإن المصريين تصوروا أن الإسكندر قادم فى هذه المرة على رأس الإغريق لتحريرهم .

مصر قبيل الفتح المقدونى :

أطلق المؤرخون على الفترة التى تمتد ما بين عام ١٠٧٠ ق.م ، وعام ٣٣٢ ق.م. اسم العصر المتأخر . وكانت الأسرة الحادية والعشرون أسرة ضعيفة ، امتد حكمها ما بين عامى ١٠٧٨ و

---

(1) Jouguet. P. ; op.cit. p. 27 .

عندما عرض الإسكندر على رجاله رسالة دارا ، بادره أكبر القادة ويدعى بارمينون قائلاً " لو كنت الإسكندر لقبلت العرض " فرد عليه قائلاً " وكذلك كنت أفعل لوكنت بارمنيون " . انظر : بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة عبد اللطيف أحمد على ، ص٣٨ .

(2) Bowman. A.K; Egypt after the Pharaohs. London. 1986. p. 22 .

٩٤٥ ق.م . وجاءت نهاية حكم هذه الأسرة على يد أحد الزعماء الليبيين ، الذى نجح فى إقامة أسرة ظلت تحكم ما بين عامى ٩٤٥ و ٧٢٠ ق.م ، وحاول هذا الزعيم الليبى أن يعيد الوحدة إلى مصر ، وأن يدعم مكانتها الخارجية . وبعد وفاته عانت البلاد من حالة من الضعف والتفكك ، دامت خلال عصر الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين . وفى ذلك الوقت كانت هناك دولة قوية فى النوبة ، راح حكامها يعملون على الاستفادة من ضعف حكام مصر . وكان زعماء النوبة قد تأثروا بالحضارة المصرية ، واعتنقوا عبادة الإله المصرى آمون ؛ مما جعلهم يشعرون أنهم فى مكانة الفراعنة المصريين ، وقام أحد ملوكهم ويدعى "بعنخى " بالسير من بلاده على رأس جيشه ، وتقدم شمالاً حتى منف ، واستولى عليها . وأعلن قيام أسرة حاكمة جديدة ، هى الأسرة الخامسة والعشرين ، وتوج فرعونًا على مصر فى عام ٧١٥ ق[١]. واستمر حكم النوبيين لمصر حتى عام ٦٦٣ ق.م .

جاء سقوط حكم النوبيين لمصر على يد الملك الآشورى آشور بانيبال ، ومما هو جدير بالذكر أن الدولة الآشورية هى واحدة من الدول التى قامت فى بلاد الرافدين ، واستطاعت أن تبسط سيطرتها على هذه البلاد ، وما لبثت أن واصلت توسعها فى الشام ومصر ، وتمكن أعظم ملوكها آشور بانيبال من احتلال منف فى مصر ، ثم تقدم جنوبًا نحو طيبة عاصمة مصر الخالدة ، وقام بتدميرها . واحتل الآشوريون مصر لبعض الوقت .

لم تلبث مصر أن نفضت عن نفسها غبار الاحتلال الآشورى[٢] ، وجاءت هذه الخطوة على يد أمير مصرى من أصل ليبى يدعى إبسماتيك (٦٦٣ - ٦٠٩) ، تمكن من تطهير الدلتا من الآشوريين ، وقام بتوحيد مصر تحت رايته ، متخذاً من مدينة سايس Sais (صا الحجر) عاصمة له ، وهى مدينة تقع على فرع رشيد فى غرب الدلتا المصرية . لذا عرف هذا العصر بالعصر الصاوى . وهو عصر الأسرة السادسة والعشرين .

شهد عصر الأسرة السادسة والعشرين طفرة فى العلاقات بين مصر وبلاد الإغريق ، وذكر المؤرخ الإغريقى هيرودوت أن المرتزقة الإغريق ساعدوا إبسماتيك فى اعتلاء العرش [٣]. ومنذ

---

(١) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص ٤٠٧ .

(٢) أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ٤٢٠ .

(3) Herodot.II. 152 .

ذلك الحين ازدادت أهمية الإغريق فى مصر [١]؛ فأنزل ملوك العصر الصاوى جنودهم الإغريق فى مستعمرات خاصة ، مثل مستعمرة دافنى Daphne فى شمال شرق الدلتا . وذلك من أجل الدفاع عن المدخل الشرقى لمصر ، الذى ظل يمثل الخطر الأكبر على مصر دومًا . كما استخدم الفرعون نخاو الثانى (٦١٠ - ٥٩٥ ق.م) المرتزقة الإغريق فى حملاته الآسيوية ، وهى الحملات التى تمكن بمقتضاها هذا الفرعون من تحقيق السيادة المصرية ، على أجزاء من بلاد الشام فيما بين عامى ٦٠٨ و ٦٠٥ ق.م ، إلى أن تمكن الملك البابلى نبوخذ نصر من إلحاق الهزيمة به فى موقعة " قر قميش " عام ٦٠٥ ق.م [٢]. ومن الأعمال الهامة التى تنسب إلى الفرعون نخاو قيامه بحفر قناة تصل ما بين الفرع البلوزى للنيل والبحر الأحمر [٣].

وقد استمر فراعنة العصر الصاوى فى استخدام المرتزقة الإغريق فى جيوشهم ، وشارك هؤلاء المرتزقة فى حملات الملك إبسماتيك الثانى على النوبة فى عام ٥٩٣ ق.م ، وفى عهد الفرعون أبريس Apris (٥٨٨ - ٥٦٨ ق.م) استأثر المرتزقة الإغريق بمكانة رفيعة فى مصر، مما أدى إلى إثارة حنق الجنود المصريين ، فثاروا بقيادة أحمس (أمازيس Amasis) ولقى أبريس حتفه فى هذه الثورة ، وأعقب ذلك اعتلاء أحمس للعرش ، وعلى الرغم من أن هذا القائد تزعم ثورة ضد النفوذ الإغريقى ؛ فإنه عندما تولى العرش رأى أنه من الأفضل أن يعمل على كسب صداقة الإغريق . وشهد عهده الذى امتد ما بين عامى ٥٦٨ ، ٥٢٥ ق.م. نمطًا فريدا من تشجيع الإغريق على الاستقرار فى مصر . لذا أطلقت المصادر الإغريقية على الفرعون أحمس الثانى لقب " صديق الإغريق " Philohellenes [٤]. واستمر وجود المرتزقة الإغريق فى صفوف القوات المصرية ، فقاتلوا إلى جانب هذه القوات فى عهد الفرعون إبسماتيك الثالث فى بيلوزيون عام ٥٢٥ق.م . وهى المعركة التى لقى فيها الفرعون هزيمة على يد الملك الفارسى قمبيز ، وكانت بداية للاحتلال الفارسى لمصر .

---

(١) عن العلاقات بين مصر وبلاد الإغريق قبيل الفتح المقدونى انظر : أبو اليسر فرح . النيل فى المصادر الإغريقية . القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٩ - ٣٤ .

(٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(٣) أبو اليسر فرح : المرجع السابق ، ص ١٦١ .

(4) Herodot. II. 180 .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الوجود الإغريقي في مصر ؛ لم يقتصر على الجنود المرتزقة فقط ، بل شمل إلى جانب هؤلاء فئات أخرى ، مثل التجار ، وكان الفرعون إبسماتيك الأول ، قد بادر بفتح أبواب مصر أمام التجار الأجانب ، ومنهم الإغريق (١). وبعد ازدياد النشاط التجارى للإغريق فى مصر ، قام التجار الإغريق بإنشاء مدينة نقراطيس Naucratis (موقعها فى محافظة البحيرة حاليًا) . وظلت هذه المدينة مركزاً تجاريًا وحضاريًا مهمًا ، إلى أن احتلت الإسكندرية هذه المكانة فيما بعد . وقد تعرضت هذه المدينة لمحنة خلال الثورة التى وقعت فى عهد الملك أبريس ضد النفوذ الإغريقى ، ولكنها استردت عافيتها وشهدت المزيد من التوسع والازدهار فى عهد الملك أحمس الثانى . وإلى جانب المرتزقة والتجار توافدت على مصر أعداد من ذوى الخبرة فى بعض المجالات ، مثل رجال البحرية الذين ساعدوا الفرعون نخاو فى بناء الأسطول ، كما ذكر المؤرخ هيرودوت (٢). وكانت مصر أيضًا مثاراً لاهتمام رجال العلم والفلاسفة الإغريق ، فأخذوا فى التوافد إليها ، ومن أشهر هؤلاء الفيلسوف طاليس (٦٢٤ - ٥٤٦ ق.م) ، وأفلاطون ، أما هيرودوت أبو التاريخ فقد زارها فى عام ٤٥٠ ق.م ، إبان الحكم الفارسى ، وخصص الكتاب الثانى من مؤلفه للحديث عن مصر .

ولم تقتصر العلاقات بين مصر وبلاد الإغريق قبيل الفتح المقدونى على الأفراد ؛ بل تعدى ذلك لكى تشمل العلاقات بين مصر ودويلات المدن الإغريقية . ومما هو جدير بالذكر أنه فى أعقاب ارتقاء الملك الفارسى أرتكسركسيس الأول Artaxerxes عرش الإمبراطورية فى عام ٤٦٥ - ٤٦٤ق.م . سادت الإمبراطورية حالة من الاضطراب . ورغبت الكثير من الولايات فى التخلص من الحكم الفارسى ، وكانت مصر من بين الولايات التى شقت عصا الطاعة (٣). وقاد التمرد فيها أمير ليبى يدعى إيناروس Inaros بن إبسماتيك . الذى نجح فى السيطرة على منطقة غرب الدلتا ، وهرع إلى مدينة أثينا طالبًا مساعدتها فى ثورته ضد الفرس . وتلقفت أثينا هذا الطلب ، وأبدت حماسة فى مساعدة هذا الثائر ، لأن هذا الموقف يخدم السياسة الآثينية التى كانت على الدوام ترمى إلى بث القلاقل فى أرجاء الإمبراطورية الفارسية ، العدو التقليدى للإغريق .

---

(1) Diodoros.I. 66. 8 . 67. 9.

(2) Herodot. II. 159 .

(3) Edda Bresciani; Egypt and the Persian Empire (The Greeks and the Persians) London. 1972 . pp. 333. ff.

وقد أرسلت أثينا أسطولاً لمؤازرة إيناروس ، وتمكن هذا الثائر بفضل هذه القوة الآثينية ، من تحقيق نصر باهر ، واستطاع أن يدحر الحملة الفارسية التي أرسلت لقمع التمرد . إلا أن الفرس لم يستسلموا للهزيمة ؛ فأرسلوا جيشًا جراراً في عام ٤٥٨ - ٤٥٧ ق.م . وفي هذه المرة تمكن الجيش الفارسي من حصار إيناروس وحلفائه الإغريق . ولم يجد إيناروس مناصًا سوى الاستسلام ، حيث جرى إعدامه . أما الإغريق فقد لقى الكثيرون منهم حتفهم ، بينما تمكن الباقون منهم من الهروب إلى قوريني (برقة) في شكل مهين . وعلى الرغم من المصير الذى حاق برجالهم . لم يتعظ الآثينيون ؛ فبادروا بمد يد المساعدة إلى ثائر آخر يدعى أميرتايوس Amyrtaeus ، حالفه الفشل أيضًا ، وقد نعمت مصر بالاستقلال في عهد الأسرات الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين [١]. ولكن في عام ٣٥٨ ق.م. تولى عرش الإمبراطورية الفارسية الملك أرتاكسركيس الثالث وقرر إعادة مصر إلى حظيرة الدولة الفارسية. وتمكن في عام ٣٤٣ ق.م من هزيمة ملك مصر نكتبنو الثاني Nectanebo الذى هرب إلى الصعيد ، وعادت مصر مرة أخرى إلى حوزة الإمبراطورية الفارسية [١].

الإسكندر الأكبر في مصر :

أبحر الإسكندر في الفرع البلوزى لنهر النيل [٣]، ووصل إلى مدينة منف مقر عبادة الإله بتاح ، وحرص على إظهار احترامه للديانة المصرية ، فقدم القرابين للإله ، وحرص على إبداء احترامه للكهنة ، ومن المرجح أنه توج فرعونًا طبقًا للطقوس المصرية [٤]. ومن ناحية أخرى فإنه أراد أن يؤكد كونه رسول الحضارة الإغريقية إلى الشرق ؛ فأقام مهرجانًا رياضيًا وموسيقيًا في منف ، على الطريقة الإغريقية [٥]. وبعد أن فرغ الإسكندر من كل ذلك ؛ أبحر في الفرع الكانوبى لنهر النيل ، حتى مصب هذا الفرع عند مدينة كانوب (أبو قير الحالية) ،

---

(١) أحمد فخرى : المرجع السابق ، ص ٤٣٨ - ٤٤٠ .

(2) Edda Bresciani; op. cit. P. 350 .

(٣) في ذلك العصر كان لنهر النيل سبعة فروع ، فيما يتعلق بأسماء هذه الفروع وخط سيرها انظر : أبو اليسر فرح . المرجع السابق ص ١٧٧ - ١٩٢ .

(٤) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر في عصر البطالمة جـ١ . القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٢٠ .

(5) Arrian. Anab. III. 1.4.

وسار بعد ذلك براً قاصداً مدينة قوريني Cyrene ، وهي مستعمرة بناها الإغريق على ساحل ليبيا (مكانها الحالي قرية شحات بمحافظة الجبل الأخضر) . وكانت تابعة للفرس .

وفي أثناء سير الإسكندر بمحاذاة شاطىء البحر المتوسط ، لفت انتباهه موقع قرية صغيرة يسكنها الصيادون المصريون ، تدعى راقودة Rhacotis ، وتقع قبالتها في البحر جزيرة صغيرة تسمى فاروس Pharos ؛ فقرر إقامة مدينة في هذا الموقع ، ويأتي ذلك في إطار رغبته في تخليد اسمه من خلال إقامة المدن ، ومن ناحية أخرى فقد أراد إقامة ميناء يكون قادراً على أن يسلب مدينة صور الأهمية التي تتمتع بها من الناحية التجارية [١]. وعهد إلى مهندس يدعى دينوكراتيس Deinocratis بأن يقوم بتخطيط المدينة . وتم إقامة جسر يصل ما بين اليابسة وجزيرة فاروس . وقد حملت المدينة الجديدة اسم الإسكندرية .

وبعد أن قام الإسكندر بوضع حجر الأساس لمدينته الجديدة ، واصل سيره في اتجاه الغرب . وعندما بلغ مدينة برايتونيون Paraetonion (مرسى مطروح الحالية) ؛ التقى وفداً من مدينة قوريني جاء لمبايعته وتقديم الهدايا له [٢]. فلم يعد هناك ما يدعوه إلى مواصلة السير إلى قوريني ، وقرر أن يخترق الصحراء جنوباً إلى واحة سيوة ؛ حيث يوجد معبد الإله آمون . وهو معبد نال شهرة عالمية آنذاك باعتباره من أشهر معابد الوحي في العالم [٣]، وقد أراد الإسكندر من خلال هذه الرحلة أن يحقق عدة أهداف ، أولها إثبات إنتسابه للإله آمون ، كما أراد من ناحية أخرى أن يسأل الوحي عن مدى نجاح خططه المستقبلية . وكانت رحلة الإسكندر ورفاقه إلى واحة سيوة محفوفة بالمخاطر ، فلم تكن لدى الإغريق خبرة بالسير في دروب الصحراء . ومن الجدير بالذكر أن بعض المصادر القديمة بالغت في الحديث عن المعجزات الى صاحبت هذه الرحلة .

عندما بلغ الركب نهاية الرحلة ، تقدم الإسكندر نحو معبد الإله آمون فاستقبله كبير الكهنة قائلاً " أهلاً بابن آمون " ، ودعاه إلى دخول قدس الأقداس ، وكان الإسكندر يرغب في سماع هذا الاعتراف من كبير الكهنة ، ثم دلف بعد ذلك إلى قاعة قدس الأقداس بمفرده . وليس من

---

(1) Grant.M; From Alexander to Cleopatra. The Hellenstic World. London. 1982. p. 37 .

(2) Jouguet. P; op. cit. p. 29 .

(٣) عن هذه الرحلة انظر تارن . المرجع السابق ، ص ٨٠ - ٨٤ .

المعروف على وجه التحديد فحوى الحوار الذى دار فى داخل هذه القاعة ، لأن كبير الكهنة أفهم الإسكندر بأن ما دار داخل قدس الأقداس ؛ هو نوع من الأسرار لا ينبغى البوح به للآخرين، ولكن الإسكندر كتب إلى والدته بأنه سوف يخبرها بتفاصيل هذا الحوار عندما يلتقى بها(١) . ومن ناحية أخرى حرص على أن يخبر رفاقه المقربين ببعض أطراف هذا الحوار ، وبخاصة الجانب الذى يهمه أن يعرفه الآخرون ، فقال لهم أن السؤال الأول الذى توجه به إلى الوحى هو " من قتل أبى ؟ " فأجابه الوحى قائلاً أنه لا يجوز توجيه هذا السؤال لأن أباك إله. فرد الإسكندر قائلاً بأنه يريد معرفة قتلة فيليب ، وكانت إجابة الوحى بأن قاتل فيليب قد نال العقاب الذى يستحقه . وقد أراد الإسكندر من وراء ترديده لهذا الجانب من الحوار ، أن يزيل الشك الذى كان يراود البعض ، فيما يتعلق بأصابع الاتهام التى راحت تشير إليه هو وأمه أوليمبياس ، حول مؤامرة اغتيال فيليب . كما أن الوحى طمأنه على نجاح خطته المستقبلية لقهر الفرس .

بعد أن فرغ الإسكندر من زيارة سيوة ، عاد إلى وادى النيل ، وحرص على أن يعلن للجميع عن دخول الحضارة الإغريقية إلى مصر، لكى تكون توأمًا للحضارة المصرية . ولكنه حرص على الإبقاء على النظم الإدارية المصرية القديمة، أما الإدارة المالية فقد عهد بها إلى الإغريق، وجعل على رأس هذه الإدارة مواطن إغريقى من مدينة نقراطيس ، ويدعى كليومينيس Cleomenes (٢)، وأبقى على منف عاصمة لمصر. ومن الناحية الإدارية قسم مصر إلى قسمين هما الوجه البحرى ، والوجه القبلى . وجعل على كل قسم منها حاكمًا من أبناء البلاد.

الإسكندر فى الشرق :

بعد أن فرغ الإسكندر من تنظيم أحوال مصر ؛ غادرها فى عام ٣٣١ ق.م. متجهًا إلى مدينة صور ، تمهيداً للزحف إلى قلب الإمبراطورية الفارسية ، ولم يكن أمام الملك الفارسى بعد أن رفض الإسكندر عرضه السخى ، سوى أن يستعد للمواجهة العسكرية . وقد التقى جيش

---

(١) لم يقدر للإسكندر أن يرى والدته مرة أخرى ، فقد قضى نحبه فى بابل وهو فى طريق العودة ، ودفنت معه أسرار زيارته لوحى الإله آمون .

(2) Bowman. A.K; op. cit. p. 22 .

الإسكندر مع الجيش الفارسي في عام ٣٣١ ق.م. عند جاوجميلا Gaugamela (١)(بالقرب من أربيل عند الموصل الحالية) . وفي هذه المعركة أحرز الإسكندر نصراً باهراً على الملك دارا الثالث ، الذي ولى الأدبار صوب الشرق ، ويعتبر المؤرخون هذه المعركة واحدة من أهم المعارك في تاريخ البشرية .

أدرك الإسكندر أن هذا النصر ليس كافياً لإعلان سقوط الإمبراطورية الفارسية ، مادام دارا الثالث على قيد الحياة ؛ فقرر أن يتتبعه لإلقاء القبض عليه ، إلا أن رجال دارا تخلو عنه، وطعنه أحدهم تاركين إياه وحيداً يعاني آلام الموت والذل وغدر الرفاق ، وعثر عليه جنود الإسكندر وهو يحتضر في عربته الملكية . فطلب منهم أن يشكروا الإسكندر للمعاملة الطيبة التي قدمها لأسرته التي وقعت في الأسر بعد معركة إسوس (٢). وعندما وصل الإسكندر إلى الموقع كان الملك الفارسي قد فارق الحياة ، فحرص على إظهار احترامه لعدوه حتى اللحظات الأخيرة ، وألقى عباءته الملكية على جثمان دارا ، وأمر بدفنه بطريقة تليق بالملوك ، كما أمر بإلقاء القبض على القتلة لمعاقبتهم (٣).

هكذا سقطت الإمبراطورية الفارسية ، ودخل الإسكندر مدن الفرس العظيمة مثل سوسة وبرسبوليس Perspolis . وصار وهو في سن السادسة والعشرين سيداً على العالم ، ولم ينس الإسكندر وهو في غمرة انتصاراته الهدف الذي خرج من أجله من بلاد الإغريق ، وهو الانتقام لشرف الإغريق الذي دنسه الفرس عند غزوهم لبلاد اليونان ، وإحراقهم لمدينة أثينا أعظم مدن الإغريق ، فأمر بإضرام النار في مدينة برسبوليس (٤).

واصل الإسكندر تقدمه في الإمبراطورية الفارسية ، التي كانت حدودها تمتد إلى الهند شرقًا . وفي إقليم باكتريا (أفغانستان الحالية) تزوج من روكسانا Roxana ابنة حاكم هذا الإقليم (٥). ثم واصل سيره حتى وصل إلى إقليم البنجاب ووادي نهر السند ، وعند هذا الحد

---

(1) Grant. M; op. cit. p. 1 .

(٢) عندما توفيت زوجة دارا وهي في الأسر ، أمر الإسكندر بإقامة جنازة ملكية لها .
انظر : Plutarch.37.

(3) Wilcken. U; op. cit. p. 150 .

(4) Savill. A; op. cit.p. 60 .

(٥) تذكر المصادر أن روكسانا كانت أجمل سيدة في آسيا بعد ستاتيرا زوجة دارا الثالث ، انظر ؛
Wilcken . U; op. cit. p. 164.

أدركت رجاله حالة من الملل والإعياء : فرفضوا أن يطيعوا قائدهم ، وطالبوه بالعودة إلى بلادهم . وعلى الرغم من حالة الإحباط التى سيطرت على الإسكندر من جراء طلب رجاله ؛ فإنه اضطر إلى الإذعان لهم [١]. وقرر تقسيم قواته فى طريق العودة إلى قسمين ، يعود أحدهما عن طريق البر تحت قيادته ، بينما يعود القسم الآخر بحراً ، وعهد إلى أحد رجاله ويدعى نيارخوس Nearchos بمهمة قيادة الأسطول الذى أعد لهذا الغرض . وجعل الهدف الرئيسى لهذه المهمة اكتشاف طريق للربط بين الغرب والشرق عن طريق البحر[٢] .

ولم تكن أهداف الإسكندر تقتصر على إيجاد طرق الاتصال بين الشرق والغرب فقط ؛ بل كان يهدف إلى إقامة جسور المحبة والتفاهم بين الشعوب[٣] . فتزوج من سيدة شرقية . وأمر رجاله بالزواج من سيدات فارسيات ، وأقيم لهذا الغرض حفل كبير تزوج فيه تسعة آلاف من المقدونيين من سيدات آسيويات [٤]. ومكث الإسكندر فى بابل التى كان يخطط لجعلها عاصمة لإمبراطوريته ، وأخذ يتطلع إلى سماع أخبار الأسطول ، وكانت الاتصالات مع نيارخوس ورجاله قد انقطعت تمامًا ، وظن الإسكندر أن الأسطول قد هلك فى غياهب المحيط الهندى ، ولكنه فوجىء بوصول نيارخوس إلى بابل ، وفرح بهذا النبأ فرحًا غامراً ، واستقبل نيارخوس بحفاوة بالغة ، وراح يستمع باهتمام إلى المعلومات التى جمعها الأسطول خلال الرحلة . وشجعه ذلك على الاستمرار فى استكشاف المزيد من المناطق . وكانت بلاد العرب على رأس البلاد التى حظيت باهتمام الإسكندر . فقد أسهبت بعض المصادر فى الحديث عن ثروة هذه البلاد [٥].

---

(1) Grant. M; op. cit. p. 4 .

(٢) راجع : أبو اليسر فرج ، حملات الإسكندر الأكبر وتطور المعلومات الجغرافية عند الإغريق . حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، العدد ٢٧ جـ ٢ ، ص ٥٠ .

(٣) خالف الإسكندر تعاليم أستاذه أرسطو ، الذى أوصاه بأن يكون قائداً للإغريق ، وطاغية على الشرقيين . انظر : تارن ، المرجع السابق ص ٨ ، ٩٨ .

(٤) جون جونتر . المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٥) عن أهمية الجزيرة العربية كما وردت فى المصادر الإغريقية انظر : مليحة الزهرانى : علاقة شبه الجزيرة العربية بجاراتها فى العصر الهللينيستى . سياسيًا وحضاريًا . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات بالدمام ، ١٩٩٥ – ص ٤ – ١٠ .

الإسكندر الأكبر وبلاد العرب :

على الرغم من أن الخليج العربى جاء ذكره عند هيكاتيه فى حوالى عام ٥٠٠ ق.م.؛ إلا أن فكرة الإغريق عن هذا الإغريق ظلت محدودة ، وكانوا يطلقون عليه اسم " الخليج الفارسى " Persikos Kolpos[١] ، نظراً لخضوع هذا الخليج للنفوذ الفارسى فى تلك الآونة .

انفق الإسكندر الشطر الأكبر من عامه الأخير فى الإعداد لخطة اكتشاف بلاد العرب ؛ فأمر ببناء أسطول فى قبرص وفينيقيا لهذا الغرض ، وتم نقل السفن براً إلى ثابساكوس -Thapsa cus (بالقرب من دير الزور الحالية) ، فى طريقها إلى بابل[٢] . ويذكر أريان أن الإسكندر أمر بإقامة ميناء فى بابل لاتخاذه قاعدة للعمليات . وكان هذا الميناء من الضخامة بحيث أنه كان يتسع لما يقرب من ألف سفينة [٣].

وفى إطار الاستعداد لإرسال الحملة الكبرى ؛ بادر الإسكندر بإيفاد ثلاث حملات استكشافية فى عام ٣٢٤ ق.م. وكان هدف هذه الحملات جمع المعلومات عن شواطىء بلاد العرب والجزر المتاخمة لها . وتولى قيادة البعثة الأولى أرخياس Archias ، وهو أحد رجال حملة نيارخوس . ويذكر أريان[٤] أن أرخياس وصل حتى جزيرة تيلوس Tylos (البحرين) . أما البعثة الثانية فقد تولى قيادتها أندروستثينز Androthenes من ثاسوس Thasos ، وقطعت هذه البعثة شوطًا أطول من سابقتها ، فوصلت إل تيلوس وأرادوس Arados ، وأعد قائدها كتابًا ظل يشكل مرجعًا أساسيًا للبحارة على نطاق واسع [٥].

وتولى هيرون Hieron قيادة البعثة الثالثة ، التى بدأت رحلتها من جنوب بابل ، وتمكنت من الطواف حول الجزيرة العربية ، والوصول إلى ميناء هيروبوليس Heroopolis فى مصر ، حيث استدارت عائدة لتقديم التقارير إلى الإسكندر .

---

(1) Potts, D.T; The Arabian Gulf in Antiquity. p. 2.

(2) Strabo. 16. 1. 11.

(3) Arrian. 7. 19. 4 .

(4) Arrian. 7. 20. 7 .

(5) Potts. op. cit. p. 6 .

وبينما انطلقت هذه البعثات الثلاث من بابل ، قامت فى نفس الوقت بعثة من الاتجاه المقابل . فقد أمر الإسكندر بقيام حملة بقيادة أناكسيسكراتيس Anaxicrates من ميناء هيروبوليس فى مصر[١] ، للدوران حول بلاد العرب ، إلا أن هذه الحملة لم تتجاوز باب المندب فى مدخل البحر الأحمر . وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنت من جمع معلومات طيبة عن الشواطىء الغربية لبلاد العرب .

ومما هو جدير بالذكر أن الإسكندر كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأهمية بناء المدن والمستعمرات ، وكان يخطط لإقامة العديد من المستعمرات على شاطىء الخليج العربى . ويوجد دليل على قيام الإسكندر بإنشاء مستعمرة فى شمال شرق الجزيرة العربية ، على حدود بلاد الرافدين ، وذكر اثنان من الكتاب القدماء أن الإسكندر دخل إلى بلاد العرب [٢]، وأقام مدينة حصينة أعدها لسكنى جنوده الذين انتهت مدة خدمتهم . إلا أننا لا نستطيع تحديد موقع هذه المدينة ، ومن المرجح أنه أطلق عليها اسم الإسكندرية [٣].

وربما كان الإسكندر يرمى من خلال إقامة هذه المدينة ، إلى تحقيق عدة أهداف ، أولها إقامة مركز دفاعى ضد إغارات العرب ، وثانيها إقامة ميناء يمكن اتخاذه قاعدة للعمليات للأسطول الكبير ، الذى كان يجرى بناؤه لغزو بلاد العرب ، أما الهدف الثالث فهو خلق مركز تجارى على رأس الخليج العربى لاستقبال البضائع الوافدة من الشرق .

وعلى الرغم من أن غزو الإسكندر لبلاد العرب لم يتم ، إلا أننا نجد إصراراً من بعض الكتاب القدامى على وقوع هذا الغزو[٤] ، وربما جاء هذا الخلط بسبب الغزوة الخاطفة التى قام بها الإسكندر أثناء حصاره لمدينة صور ، وأرسل بعدها هدية إلى معلمه ليونيداس من بخور بلاد العرب .

وبينما كانت الاستعدادات لإرسال الحملة الكبرى لبلاد العرب تجرى على قدم وساق ، جرى إقامة حفل كبير فى شهر يونيه من عام ٣٢٣ ق.م. على شرف نيارخوس ، الذى تقرر إسناد قيادة الحملة إليه ، وفى اليوم التالى للحفل أصيب الإسكندر بالحمى . وعلى الرغم من

---

(1) Arrian. 8.43. 7 .

(2) Arrian. 7.21.7; Curtius. 10. 4. 3 .

(3) Potts. op. cit. p. 7 .

(4) Pliny. N.H.12. 32. 62, Curtius. 1. Summ. 7. Plutarch. 25. 4. f .

هذا لم تتوقف الاستعدادات لإرسال الحملة ، وحرص الإسكندر على الرغم من مرضه على مناقشة تفاصيل الخطة مع نيارخوس . وفى مساء اليوم العاشر من شهر يونيه عام ٣٢٣ ق.م. أسلم الإسكندر الروح(١) ، ولم يكن قد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره ، بعد أن حكم لمدة إثنى عشر عامًا ونصف ، تعد بحق من أخصب سنوات تاريخ البشرية .

العصر الهللينيستى

هو ذلك العصر الذى يمتد ما بين وفاة الإسكندر الأكبر فى عام ٣٢٣ ق.م ، وحتى قيام الإمبراطورية الرومانية على يد الإمبراطور أوغسطس فى عام ٣١ ق.م(٢). ومما هو جدير بالذكر أن هذا العام شهد أحداث موقعة أكتيوم ، وهى الموقعة التى انتهت بانتصار أوكتافيانوس (أوغسطس فيما بعد) على كليوباترة السابعة ملكة مصر ، وآخر سلالة أسرة البطالمة . وتلى ذلك انتحار هذه الملكة وسقوط دولة البطالمة . وتحول مصر إلى ولاية رومانية . ويرى تارن Tarn(٣) أن هذه الحدود هى مجرد تحديد وضعى بحت ، لأن مظاهر الروح الهللينستية كانت قد أخذت فى الظهور من قبل عصر الإسكندر ، كما أن أوغسطس لا يمثل فى كثير من النواحى فاصلاً حقيقيًا بين عهدين . وربما يصدق قول تارن من الناحية الحضارية، لأن الرومان شجعوا على الاستمرار فى الأخذ بالنهج الإغريقى فى الكثير من المظاهر ، وبالتالى استمرت الكثير من مظاهر الحضارة الإغريقية فى شكلها الذى تطورت به خلال العصر الهللينيستى . أما من الناحية السياسية ، فإن عصر أوغسطس يمثل بداية لتغيرات بعيدة المدى . فقد أفلت شمس الممالك الهللينيستية ، وسطعت شمس الإمبراطورية الرومانية التى بسطت سيطرتها على مساحات شاسعة من المعمورة .

وكلمة هللينيستى هى لفظة حديثة ؛ استخدمها العلماء لتمييز هذا العصر عن العصر السابق عليه ، أى العصر الهللينى ، الذى سادت فيه الحضارة الإغريقية الكلاسيكية . وترجع بداية استخدام هذا المصطلح إلى أوائل القرن التاسع عشر (٤).

---

(1) Hamillon. J.R; op. cit.p. 152 .

(٢) يطلق الدكتور لطفى عبد الوهاب على هذا العصر اسم العصر المتأغرق أيضًا : انظر : لطفى عبد الوهاب يحيى . دراسات فى العصر الهللينيستى ، بيروت ١٩٨٨ ص ١٦ ،

(٣) تارن : الحضارة الهللينستية . ترجمة زكى على ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٣ .

(٤) جون جوستاف درويسون لعب دوراً مهمًا فى صياغته هذا المصطلح فى الفترة مابين ١٨٣٠ - ١٨٤٠ انظر : Grant.M; op. cit. intrel. p. XII; Preaux, C; Le monde hellenistique I. 3ed. Paris. 1989. pp. 7 ff .

ويركز جرانت[١] Grant على أهمية العصر الهللينيستى ، فيذكر أنه لا ينبغى أن ننظر إلى العصر الهللينيستى باعتباره مجرد ملحق للعصر الكلاسيكى ، أو مجرد مقدمة للعصر الرومانى ، فهو عصر يتميز بدرجة كبيرة من الثراء والخصوبة على الرغم مما يدين به للعصر السابق عليه .

ولعل مرد هذه الخصوبة الحضارية ، التى يتمتع بها هذا العصر ، إلى أن إمبراطورية الإسكندرية كانت هى البوتقة التى انصهرت فيها الحضارة الإغريقية مع الحضارات الشرقية . ولكن لا ينبغى أن يتبادر إلى الذهن أن الحضارة الإغريقية قد ذابت فى خضم الحضارات الشرقية . أو أن الحضارة الإغريقية التهمت الحضارات الشرقية ، واستطاعت أن تمسخها . ولكن الحقيقة أنه على الرغم مما هو معروف من أن المغلوب مولوع بتقليد الغالب فإن العكس هو الذى حدث ، فإن الإسكندر كان محبًا للحضارات الشرقية ، وكان يرى أن الشرقيين جديرون بالإعجاب . وربما شايعه الكثيرون من قومه فى هذا الاتجاه . ومن ثم فقد شهد عصر الإسكندر مولد حضارة جديدة ، ذات شخصية مستقلة ، ليست شرقية أو غربية الطبع ، بل عالمية الطابع . لأنها جمعت أفضل ما فى هذين العالمين .

وقد شهد الفكر السياسى تطوراً مهمًا ، ويمكن القول أنه بوفاة أرسطو انتهت النظرة إلى الإنسان بوصفه حيوان سياسى[١] (مدينى) Political وأصبح الإنسان حيوانًا عالميًا Cosmopolitan ، فقد كان محور الفكر السياسى لدى الإغريق هو نظام دولة المدينة Polis ، الذى يعيش فى كنفه الإنسان الحر ، ويعمل على المحافظة عليه ، أما بعد عصر الإسكندر فإن الإنسان أصبح ينتمى إلى العالم Cosmos . وقد أعلن الإسكندر فى المأدبة التى أقامها فى مدينة أوبيس Opis على نهر دجلة ، أنه يرغب فى أن تتحد القلوب ، وأن يلتئم الفرس والمقدونيون فى دولة واحدة ، ترتفع فوق مستوى القومية [٣].

---

(1) Grant. M; op. cit. introd .

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب السياسة لأرسطو : كتاب السياسة لأرسطو ، ترجمة الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧٩ . الباب الأول ، الفصل الأول الفقرة التاسعة .

(٣) تارن . المرجع السابق ، ص ٨٩ .

وأخذت الفلسفة الرواقية تعمل على تدعيم هذه الفكرة ، ويبدو هذا واضحًا فى كتاب المدينة الفاضلة للفيلسوف زينون[١] . وأخذت تتشكل ما يسمى بالنزعة العالمية Cosmo-politanism ، وسادت لغة مشتركة Koine ، وهى اللغة الإغريقية باللهجة الأتيكية ، وهى اللهجة التى كانت سائدة فى أوساط المثقفين . ويقول الخطيب المشهور إيسوقراط Isocrates ، أن الذى يميز الفرد الإغريقى هو التعليم ، وليس الأصل ، وأن أى شخص يتعلم على الطريقة الإغريقية فهو هللينى[٢] . وطبقًا لهذا المفهوم فإن الشعوب الشرقية التى تشربت الثقافة الإغريقية ، تصبح جزءًا من الأمة الإغريقية .

ومن علامات التوحد بين شعوب العالم الهللينيستى : انتشار ديانات بعينها بين شعوب هذا العالم ، مثل عبادة الربة المصرية إيزيس ، والإله سيرابيس Sarapis ، وعبادة الربة الأم ، التى كان موطنها الأصلى فى آسيا الصغرى ، والإله السورى أدونيس ، والإله الفارسى ميثرا. كما وجد الإغريق فى تراث الشرق الفلسفى ضالته المنشودة ؛ لذا فقد راجت الأفكار التى تبشر بالمحبة ، وتحقيق السكينة للنفس البشرية [٣].

والحقيقة إننا لا نستطيع أن نفهم طبيعة العصر الهللينيستى دون التعرف على الدور الذى قامت به المدن فى هذا العصر . فعلى الرغم من أن الدور السياسى للمدن قد توارى ، وذلك بعد أن أصبحت الأهمية السياسية محورها الدول الكبرى ؛ فإن الدور الحضارى للمدن ظل على درجة كبرى من الأهمية . وعلينا أن نضع فى الحسبان الدور الذى لعبته المدن التى أقيمت فى العصر الهللينيستى ، وحملت أسماء الملوك والملكات ، مثل مدن الإسكندرية وأنطاكية وسلوقيا وأباميا ولاوديكيا وستراتونيكا [٤]. فقد شكلت هذه المدن مراكز جذب حضارى عظيمة ، وعلى وجه الخصوص مدينة الإسكندرية عاصمة مصر الرائعة .

---

(١) زينون هو فيلسوف فينيقى الأصل عاش فى قبرص حوالى عام ٣٠٠ ق.م. وكان يرى أن الفلسفة الرواقية هى علاج لأزمات العصر ، وهى فلسفة تدعو إلى المساواة بين البشر ، وإلى الزهد فى الدنيا ، وكبح جماح النفس وعدم التكالب على الماديات انظر : يوسف كرم – تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٢٢٣ .

(2) Jouguet. P; op.cit. introd. XIII .

(٣) سيد الناصرى : المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٤) فيما يتعلق بالمدن فى العصر الهللينيستى انظر على سبيل المثال : جلانفيل داونى . أنطاكية القديمة، ترجمة إبراهيم نصحى ، القاهرة ١٩٦٧ ؛ P.M.Frases; Ptolomaic Alexandria. Oxford. 1984.

Grainger. John. D; The Cities of the Seleukid Syria. Oxford. 1990 .

وأصبح التعاون والتآخى بين المدن المختلفة أمراً شائعًا ، وراحت المدن تمنح مواطنتها الشرفية لمواطنى مدن أخرى . وترتب على ذلك أن العلماء والشعراء راحوا يتنقلون بحرية ، ويقيمون فى مدن أخرى غير مواطنهم ، حيث يمارسون عطاءهم فى مجال الفكر والتعليم [١]. ومن ملامح العصر الهللينيستى أيضًا انتشار النوادى الاجتماعية ، والجمعيات العلمية التى لا شأن لها بالسياسة . وأصبحت معاهد الجمنازيوم من أهم مراكز العلم ، وهى معاهد لها وظائف اجتماعية ، وكان يرأس كل واحد منها شخص يتمتع بمكانة سامية فى المجتمع[٢] . كما عرف العالم الجامعات ، وكانت أشهر الجامعات آنذاك تلك التى وجدت فى الإسكندرية وبرجامة[٣] .

كما شهد العصر الهللينيستى انتشار المكتبات ، وربما عرف العالم من قبل مكتبات شهيرة، مثل تلك المكتبة التى أقامها أرسطو فى أثينا . إلا أن العصر الهللينيستى شهد قيام مكتبات أخرى كثيرة . مثل مكتبات أنطاكية وبرجامة ورودس وأزمير ، ولكن أعظم مكتبات العالم القديم ، هى تلك المكتبة التى أقامها بطلميوس الأول فى الإسكندرية [٤]، وما لبث البطالمة أن أقاموا مكتبة أخرى فى سيرابيوم الإسكندرية ارتبطت بالمكتبة الأم . وساهمت هذه المكتبة بالإضافة إلى نشاط علماء مدرسة الإسكندرية فى جعل هذه المدينة عاصمة للعلم والثقافة فى العالم ، وتفوقت على مدينة أثينا العريقة . فيما عدا فى مجال الفلسفة ، حيث احتفظت أثينا بمكانتها المعروفة فى هذا المجال .

ومن العلامات البارزة فى العصر الهللينيستى ، ازدياد أهمية المكانة التى تمتعت بها المرأة. ويتضح هذا بشكل جلى من خلال المكانة التى حظيت بها الأميرات المقدونيات[٥] ، اللاتى كن يقمن بكافة المهام التى كان يقوم بها الرجال فى المجال السياسى ، بل وفى قيادة

---

(١) عن الحياة الثقافية فى هذا العصر بشكل عام انظر : Moses Hadas; Hellenstic Culture New York. 1972 .

(٢) تارن : المرجع السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٨ .

(3) Jouguet. P; op. cit. intrel. XIII .

(٤) عن مكتبة الإسكندرية انظر : مصطفى العبادى . المرجع السابق ، ص ١٥١ - ٢٠٥ .

(٥) تارن : المرجع السابق ص ١٠٩ .

الجيوش أيضًا ولدينا أمثلة بارزة فى شخصيات مثل أرسينوى الثانية ، زوجة بطلميوس الثانى، وكليوباترة الثالثة وكليوباترة السابعة ، آخر ملكات الأسرة البطلمية [١]. ومما لا شك فيه أن تلك الحرية التى تمتعت بها الأميرات والملكات ، صارت حافزًا للنساء الأخريات نحو مزيد من الانطلاق . وبخاصة بعد أن نالت النساء قسطًا أكبر من التعليم ، فعادت المرأة إلى الظهور كشاعرة أو أديبة ، ولعبت دورًا أكبر فى الحياة الاجتماعية ، من خلال الأندية والجمعيات .

وفى ظل الحضارة الهللينيستية لم تعد بلاد الإغريق تمثل مركز الثقل الحضارى ، بل انتقل هذا المركز إلى بلدان الشرق الأدنى ، مهد الحضارات العريقة ، وأخذ الإغريق يتدفقون على بلدان الشرق الأدنى ، وقد حرص خلفاء الإسكندر الذين أقاموا ممالك فى الشرق الأدنى على تشجيع الإغريق على الهجرة إلى الممالك الجديدة . لأنهم كانوا يهدفون على إضفاء الطابع الإغريقى على دولهم[٢] .

تلك إطلالة سريعة على أهم الملامح الحضارية للعصر الهللينيستى ، أما الملامح السياسية لهذا العصر فهى قيام العديد من الدول ، أكبرها مملكة البطالمة فى مصر ، ومملكة السلوقيين التى تركزت ممتلكاتها فى سوريا وبلاد الرافدين ، بالإضافة إلى مملكة مقدونيا ، وسوف ينصب اهتمامنا فى الصفحات التالية ، على دراسة دولتى البطالمة والسلوقيين ، لأن هدف هذا الكتاب هو دراسة تاريخ الشرق الأدنى فقط ، أما دولة مقدونيا فإننا سوف نعرض لها فى إطار حديثنا عن تاريخ الدولتين السابقتين .

---

(١) عن الدور الذى لعبته الأميرات والملكات اللاتى حملن اسم كليوباترة انظر :

Whiteborne. J; Cleopatras, London and New York. 1994 .

(٢) سيد الناصرى : المرجع السابق ص ١٠٤ .

الفصل الثانى
دولـة البـطالمة

مؤتمر بابل :

كانت المشكلة التى واجهت القادة المقدونيين فى بابل بعد وفاة الإسكندر (١)، هى ولاية العرش . فقد مات الإسكندر دون وريث ، وكانت زوجته روكسانا لم تضع جنينها بعد ، وكان له أخ غير شقيق ، يدعى أرهيدايوس Arrhidaeus ، كان مريضًا بالصرع . ويقال أن الإسكندر حين سأل على فراش الموت لمن يؤول العرش ؟ قال " للأقوى "(٢) . وهى إجابة غامضة أوقعت القادة المقدونيين فى كثير من الحيرة . وطبقًا للتقاليد المقدونية فإن إعلان الملك الجديد هو شأن من شئون الجيش .

اختلفت قادة الجيش حول هذا الأمر ، ومما هو جدير بالذكر أن رجال الفرسان الذين كانوا قد تشبعوا بفكر الإسكندر ، حول المساواة بين البشر ، تحمسوا لفكرة الانتظار حتى تضع روكسانا جنينها ، والمناداة به ملكًا فى حال كونه ذكراً ، أما المشاة المتعصبون ذوى النظرة الضيقة ، فقد رأوا أن أرهيدايوس أحق بالعرش ، لكونه مقدونيا خالصًا ، على الرغم من مرضه ، وكاد الاشتباك أن يقع بين الفرق المختلفة فى بابل ، وقد سارع يومينيس Eumenes سكرتير الإسكندر بتقديم اقتراح ، ما لبث أن لقى قبولاً لدى الأطراف المختلفة ، ويقضى هذا الاقتراح بأن يتولى أرهيدايوس العرش تحت اسم فيليب ، على يكون من حق جنين روكسانا مشاركته العرش إذا كان ذكراً(٣) .

---

(١) عن مؤتمر ومشكلة وراثة العرش انظر : ابراهيم نصحى ، المرجع السابق جـ ١ ، ص ٤٥ - ٤٩ .

(2) Diod. XVII. 117 .

(3) Walbank. F.W, The Hellenistia World. London. 1992. P. 48 .

كما تقرر فى مؤتمر بابل تعيين برديكاس Perdicas وصيا على العرش . ومما هو جدير بالذكر أن الإسكندر وهو يحتضر ، أعطى برديكاس خاتم الملك لكى يختم به الأوامر الملكية ، لذلك كان هذا القائد يرى أنه أعلى مرتبة من باقى القادة [١]. وقد اتخذ برديكاس من بابل مقراً له . أما ولايات الإمبراطورية فقد تقرر تقسيمها بين كبار قادة الجيش ليقوموا بادراتها باسم البيت المالك ، فتولى بطلميوس بن لاجوس ولاية مصر ، وعين أنتيجونوس Antigonos مشرفًا على آسيا الصغرى ، ولاوميدون Laomedonos على سوريا . وأسند إلى أنتيباتروس Antipatros مهمة الإشراف على بلاد اليونان ، بالإضافة إلى القادة الآخرين الذين أسندت إليهم ولايات أخرى . وقبل أن يبارح القادة بابل ، وضعت روكسانا ذكراً ، أطلق عليه اسم الإسكندر الرابع ، وتقرر أن يشارك فيليب أرهيدايوس فى العرش[٢].

دولة البطالمة – عصر القوة :

بطلميوس الأول (سوتير) ٣٢٣ – ٢٨٤ ق.م :

ينتمى بطلميوس إلى إحدى العائلات المقدونية النبيلة [٣]، وكان أكبر من الإسكندر ببضعة أعوام ، ويعد من أصدقائه المقربين ، فقد لازمه فى المنفى فى أبيروس حين تعرض الإسكندر وأمه أوليمبياس لغضب فيليب ، وتقرر نفيهما من مقدونيا . وعاد بطلميوس إلى الوطن مع الإسكندر بعد انتهاء النفى ، ولازم الإسكندر منذ ذلك الحين ، وقد أبلى بلاء حسنًا فى كل المعارك التى خاضها ، مما أهله لكى يصبح عضواً فى مجلس الحرب الأعلى ، وقد حرص بطلميوس على تسجيل مذكراته ، فى أثناء مشاركته فى حملات الإسكندر ، وعلى الرغم من عدم وصول هذه المذكرات إلينا ، إلا أننا عرفنا محتوياتها من خلال مصادر أخرى[٤].

---

(1) Diod. XVIII.4 .

(٢) سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) عن بطلميوس بشكل عام انظر : Walter M. Ellis, : Ptolemy of Egypt. London. New York.

(٤) اعتمد عليها أريان فى كتابه عن حملة الإسكندر Anabasis

ومن الواضح أن بطلميوس كان يطمح إلى الحصول على ولاية مصر ، وهذا ما يبدو من خلال التفاصيل التى أوردها عن هذا البلد فى مذكراته ، فقد أدرك بفطنته أن مصر سوف تكون بمنأى عن الصراعات التى ستدور بين قادة جيش الإسكندر ، كما أنها تتمتع بخيرات تمكنه من إقامة دولة وطيدة الأركان .

وصل بطلميوس إلى مصر بعد خمسة شهور من وفاة الإسكندر . فوجد كليومينيس النقراطيسى الذى كان الإسكندر قد عينه مشرفًا على الشئون المالية ، وقد انفرد بالسلطة على البلاد . مما أثار حفيظة بطلميوس ، لأنه يعرف بأمر الصداقة التى تربط ما بين برديكاس وهذا الرجل ، فأخذ يتحين الفرصة للتخلص منه . وقد واتته تلك الفرصة عندما راح يتلقى شكاوى من الأهالى من الإجراءات المالية التى طبقها كليومينيس ، فأمر بإعدامه ، ومصادرة ممتلكاته[1].

بعد أن تخلص بطلميوس من تلك العقبة الكأداء ، والتى كانت تتمثل فى كليومينيس النقراطيسى ، راح يعمل على تدعيم مكانته فى مصر ، وتأمين حدود الولاية ، وفى هذا الإطار استجاب لطلب قورينى ، وهى مستوطنة إغريقية تقع على حدود مصر الغربية (فى ليبيا الحالية) ، وكانت قد استنجدت به من أجل وضع حد للاضطرابات التى كانت تعانى منها ، فبادر بإرسال قوة تمكنت من الاستيلاء على هذه الولاية ، وضمها لمصر فى عام ٣٢٢ ق.م. راح برديكاس الوصى على العرش المقدونى ، يراقب سلوك الولاة بكثير من الشك والريبة ، فقد أخذت النوازع الاستقلالية لديهم تطل برأسها . وبدا سلوك بطلميوس اتجاهًا واضحًا نحو الاستقلال ، وبخاصة بعد قيامه بإعدام كليومينيس النقراطيسى ، وتوسيع حدود ولايته غربًا . ومن ناحية أخرى ، لم يكن الولاة أقل توجسًا فى نظرتهم إلى برديكاس [2]. وفسروا الكثير من تصرفاته على أنها رغبة منه فى الاستحواذ على العرش المقدونى . وكان معروفًا عنه رغبته فى الزواج من كليوباترة شقيقة الإسكندر ، فسارعوا إلى عقد محالفة ضده، وشارك بطلميوس فى هذا الحلف .

---

(١) عن موقف بطلميوس من برديكاس راجع : لطفى عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧.

(2) Walbank. op. cit. p. 49 .

لم يلبث بطلميوس أن أقدم على خطوة أخرى ، أدت إلى زيادة شكوك برديكاس ومخاوفه منه ، وكان قد تقرر فى مؤتمر بابل تحنيط جثمان الإسكندر على يد أطباء مصريين ، على أن يرسل بعد ذلك إلى مقدونيا لدفنه هناك . وحاول بطلميوس آنذاك إقناع باقى القادة بأن الإسكندر كان يرغب فى أن يدفن فى واحة سيوة ، فى مصر فى رحاب معبد الإله آمون . إلا أن القادة رفضوا الاستماع إلى هذه الفكرة . لكن بطلميوس بيت النية على تنفيذ فكرته ، فقام بالاتفاق مع الضابط الذى أسندت إليه مهمة قيادة جنازة الإسكندر ، وتنفيذاً لهذا الاتفاق قام هذا الضابط بتغيير خط سير الجنازة ، فاتجه بها إلى جنوب سوريا حيث سلم الجثمان إلى رجال بطلميوس . وتم دفن الجثمان فى منف فى البداية ثم نقل إلى الإسكندرية بعد ذلك . وكان بطلميوس يرمى من وراء هذه الخطوة إلى جعل مصر عاصمة للإمبراطورية المقدونية ، لأنها الولاية التى تحوى قبر مؤسس هذه الإمبراطورية . الذى ارتفع فى نظر الإغريق إلى مرتبة التقديس (١).

أكدت هذه الخطوة شكوك برديكاس تجاه بطلميوس ، فقرر أن يضع حداً لطموح هذا الوالى، وفى ربيع عام ٣٢١ ق.م. سار على رأس قواته قاصداً مصر . إلا أنه فشل فى عبور الفرع البلوزى لنهر النيل (٢)، وكان مكروهًا من جنوده ، فثاروا عليه وقتلوه . وبعد مقتل برديكاس اجتمع القادة المقدونيون فى تريباراديسوس Triparadisos لإعادة تنظيم الإمبراطورية المقدونية (٣). وبمقتضى الاتفاق الذى وقع عليه القادة ، تم تعيين أنتيباتروس خلفًا لبرديكاس ، فى منصب الوصاية على العرش المقدونى ، على أن يتخذ من مقدونيا مقراً له ، فاتجه إلى مقره مصطحبًا فيليب أرهيدايوس والإسكندر الرابع ، واستمر أنتيجونس واليًا على فريجيا (فى آسيا الصغرى) ، وكذلك الحال بالنسبة للوسيماخوس الذى ظل فى منصبه،

---

(١) يمكننا أن نتفهم أهمية هذه الخطوة التى أقدم عليها بطلميوس إذا ما عرفنا أن يومينيس استولى على خيمة الإسكندر ، واحتفظ بها كتعويذة تجلب له الحظ ، وادعى أن روح الإسكندر ما تزال كامنة فى هذه الخيمة ، انظر : آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . ترجمة عبد اللطيف أحمد على . بيروت ١٩٨٨ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(2) Bowman. A.K; Egypt after the Pharaohs. London. 1986. P. 22 .

(3) Preaux. C; op. cit. p. 130 ; Errington. R.M, From Babylom to Triparadeisos 323 - 320 B.C. J.H.S. 90. 1970. pp. 49-77 .

واليًا على تراقيا ، كما تم الاعتراف بمكانة بطلميوس فى مصر وبرقة (قورينى) ، أما سلوقس الضابط الذى أقدم على قتل برديكاس فقد منح ولاية بابل .

عقب وفاة أنتيباتروس فى عام ٣١٩ ق.م. تقفرر إسناد منصب الوصاية على العرش إلى قائد آخر من رجال الإسكندر ، ويدعى بوليبرخون Polyperchon ، مما أثار حفيظة كاسندروس Casandros ابن أنتيباتروس ، الذى كان يرى أنه الأحق بهذا المنصب ، فراح يثير القلاقل فى وجه الوصى الجديد ، وتمكن من الحصول على تعاطف كل من أنتيجونس وبطلميوس . وكان هذا الأخير يطمع فى الاستيلاء على الجزء الجنوبى من سوريا ، وهو الإقليم الذى يعرف باسم جوف سوريا Coel Syria ، ويشمل فلسطين وجنوب سوريا وفينيقيا[١] . نظرًا للأهمية التى يمثلها هذا الإقليم ، من الناحية الاستراتيجية لمصر . فضلاً عما يحتويه من موارد خام ، كانت ضرورية لتحقيق رغبة بطلميوس فى بناء أسطول بحرى ، يمكنه من جعل مصر تلعب دوراً فعالاً فى منطقة بحر إيجة . كما كان هذا الإقليم يتحكم فى طرق التجارة التى تأتى من الشرق ، وتصب فى البحر المتوسط .

أخذ بطلميوس يخطط للاستيلاء على إقليم جوف سوريا ، وانتهز فرصة وفاة أنتيباتروس (الوصى على الإمبراطورية) ، والاضطرابات التى أعقبت هذه الوفاة ، وقام بالانقضاض على هذا الإقليم ، وضمه إلى مصر ، ومن ناحية أخرى فإن أنتيجونس كان يسعى إلي فرض هيمنته على سائر أنحاء آسيا الصغرى ، لذا سارع بإرسال قوات لمساعدة كاسندروس ابن إنتيباتروس ، فى صراعه مع بوليبرخون ، الذى خلف أنتيباتروس فى منصب الوصاية .

لم تكن عائلة الإسكندر بمنأى عن هذا الصراعات ، فقد انحاز فيليب أرهيدايوس وزوجته الطموحة يوريديكى Eurydike ، إلى كاسندروس بسبب كراهيتهم لاوليمبياس أم الإسكندر ، الى كانت تؤيد بوليبرخون ، مما دفعها إلى التآمر عليهما ، وقتلهما فى عام ٣١٧ ق.م. أما روكسانا وابنها الإسكندر الرابع فقد أصبحا فى قبضة كاسندروس ، الذى نجح فى السيطرة على مقدونيا بعد فرار بوليبرخون[٢]. وفى الشرق تمكن أنتيجونس من اجتياح آسيا الصغرى، وأخذ يحلم بإحياء إمبراطورية الإسكندر ، واتجه إلى بابل حيث كان سلوقس يشغل

---

(١) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(2) Jouguet. P; op. cit. p. 142 .

منصب الوالى ، وأخذ يعامله كما لو كان أحد أتباعه ، وأطلق على نفسه لقب ملك آسيا . فاضطر سلوقس إلى الهرب إلى بطلميوس فى مصر ، لكى يطلب مساعدته فى استعادة مكانته فى بابل [١]، وقد أبدى بطلميوس استعداداً طيبًا لمساعدة سلوقس ، وعينه قائداً لأسطول مصر فى البحر المتوسط ، مما أدى إلى إثارة غضب أنتيجونس ، فقام بالهجوم على إقليم جوف سوريا فى عام ٣١٥ ق.م. واضطر بطلميوس إلى الانسحاب من هذا الإقليم .

واصل أنتيجونس زحفه على ساحل سوريا ، فوصل حتى مدينة غزة ، وفى تلك الأثناء استولى بطلميوس على جزيرة قبرص ، لكى يتخذ منها قاعدة تمكنه من الهجوم على قوات أنتيجونس فى سوريا . وقد أثار سلوك أنتيجونس وطموحاته المخاوف لدى باقى القادة ، لذلك فقد سعوا إلى إقامة حلف ضم كل من بطلميوس ولوسيماخوس وكاسندروس ووجهوا إنذاراً إلى إنتيجونس مطالبين إياه بالتنازل عن الأراضى التى استولى عليها مؤخراً ، وإعادة سلوقس إلى مقر ولايته فى بابل ، والانسحاب من جوف سوريا ، والاعتراف بسلطة كاسندروس فى بلاد اليونان ومقدونيا ، ولكن أنتيجونس رفض هذا الإنذار، وأخذ يعمل على تحريض المدن اليونانية ضد كاسندروس ، وأعلن أنه يسعى إلى منح هذه المدن حريتها واستقلالها .

وفى عام ٣١٢ ق.م. توجه بطلميوس على رأس قواته لاستعادة إقليم جوف سوريا ، الذى كان يتولى إدارته ديمتريوس Demetrios ابن أنتيجونس . ونجح بطلميوس فى مهمته ، وألحق الهزيمة بديمتريوس[٢] ، ولعب سلوقس دوراً بارزاً فى تحقيق هذا الانتصار ، فكافأه بطلميوس بأن زوده بقوة لكى يتمكن من استعادة مركزه فى بابل . ولكن فى عام ٣١١ ق.م. عاد ديمتريوس لكى يثأر لهزيمته ، ولحق به أبوه ، مما أضطر بطلميوس إلى الانسحاب مرة أخرى . وفى هذا العام أيضًا شق أوفيلاس Ophellas حاكم قورينى عصا الطاعة ، وأعلن استقلاله بهذا الإقليم .

وعندما ضاق القادة ذرعًا بهذه الحروب المتوالية ، قرروا أن يضعوا حداً لها ، وجدوا أنه من الأفضل الإذعان لمطالب أنتيجونس وولده ديمتريوس . وفى المقابل وافق أنتيجونس على بقاء كاسندروس حاكمًا على مقدونيا ، ولوسيماخوس حاكمًا على تراقيا ، وأن يظل بطلميوس

---

(1) Jouguet.P; op. cit. p. 147 .

(2) Jouguet.P; op. cit. p. 149 .

حاكمًا على مصر ، بشرط تخليه عن جوف سوريا ، وساحل فينيقيا . واضطر بطلميوس إلى الرضوخ لهذا الاتفاق على مضض . ومما يستلفت النظر أن هؤلاء القادة ، وقعوا اتفاقهم باسم الملك الطفل الإسكندر الرابع ، الذى نص الاتفاق أيضًا ، على أن يتولى عرش مقدونيا ، بعد أن يبلغ سن الرشد . غير أن كاسندروس بادر بقتل هذا الطفل قبل مضى عام من توقيع الاتفاق ، خوفًا من أن يضطر إلى التنازل عن سلطاته للإسكندر الرابع [١]. وكان قد سبق له تسليم أوليمبياس أم الإسكندر إلى أعدائها الذين قاموا بالإجهاز عليها .

أخذ بطلميوس يعمل على بناء قوته البحرية ، وتدعيم مكانته ، فقام فى عام ٣٠٩ ق.م. بالإستيلاء على منطقة ليكيا Lycia . فى آسيا الصغرى ، وجزيرة كوس Cos فى بحر إيجه، وفى العام التالى قام بالاستيلاء على مجموعة جزر الكيكلاديس Cyclades ، التى تتمتع بموقع مهم فى مدخل بحر إيجه ، وذلك تحت دعوى تحريرها من أنتيجونس ، وراح يتدخل فى شئون بلاد اليونان ، وبات تدخله فى هذه المنطقة يشكل تهديداً لنفوذ كاسندروس . وفى هذا العام نجح ماجاس Magas ابن زوجة بطلميوس فى استعادة قورينى ، وعينه بطلميوس نائبًا له فى هذه الولاية .

ولكن فى عام ٣٠٦ ق.م . تلقى بطلميوس لطمة قاسية ، بالقرب من قبرص ، على يد ديمتريوس الذى تمكن من إلحاق هزيمة ثقيلة ببطلميوس . ومما هو جدير بالذكر أن خلفاء الإسكندر بعد هذه الموقعة اتخذوا لأنفسهم لقب ملك ، وكان البادىء بالإقدام على هذه الخطوة هو أنتيجونس ، ولم يلبث بطلميوس أن حذا حذوه [٢]. وتبعه الآخرون .

ولم يكتف أنتيجونس بهذا الانتصار العسكرى الذى أحرزه على بطلميوس ، بل أخذ يسعى إلى شن حرب اقتصادية ضده ، فطلب من جزيرة رودس أن تقطع علاقاتها الاقتصادية مع الإسكندرية ، إلا أن رودس التى كانت تعتبر مصر من أقوى عملائها التجاريين[٣] ، رفضت هذا الطلب ، فسارع بإرسال ابنه ديمتريوس لحصارها ، وتمكنت الجزيرة من الصمود أمام

---

(١) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(2) Walbank. op. cit. p 55.

(3) Rostovtzeff.M; The Social and Economic History of the Hellenstic World. Oxford, 1941, p. 15 .

الحصار بفضل مساعدة بطلميوس لها ، واعترافًا منها بهذا الفضل ، قررت رودس رفع بطلميوس إلى مصاف الآلهة . وأطلقت عليه لقب الإله المنقذ Soter فى عام ٣٠٥ ق.م. وهو اللقب الذى عرف به بطلميوس فيما بعد[١] .

وفى عام ٣٠٣ ق.م. عاد القادة من جديد إلى إقامة تحالف ضد أنتيجونس ، واستغل بطلميوس إنشغال القادة فى ترتيب حساباتهم ، فزحف بقواته بهدف استعادة جوف سوريا ، ولكن سرعان ما سرت شائعة مؤداها أن أنتيجونس نجح فى سحق أعدائه ، وأنه فى طريقه إلى سوريا ، فأسرع بطلميوس بالانسحاب من جوف سوريا . ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك تمامًا ، فقد نجح الحلفاء فى إلحاق هزيمة منكرة بأنتيجونس فى موقعه إبسوس Ipsos فى عام ٣٠١ ق.م. وكانت آسيا الصغرى هى المسرح الذى شهد أحداث هذه المعركة . وفى هذه الموقعة خر أنتيجونس صريعًا ، وفر ابنه ديمتريوس [٢].

وهكذا وضعت معركة إبسوس نهاية لآخر محاولة لإحياء إمبراطورية الإسكندر . وجلس القادة المنتصرون لإعادة تقسيم الإمبراطورية ، فقرروا تثبيت مكانة كاسندروس فى مقدونيا وبلاد اليونان ، وأصبحت آسيا الصغرى من نصيب لوسيماخوس ، وسوريا وبابل من نصيب سلوقس ، أما بطلميوس فقد قرروا الاعتراف بمكانته فى مصر فقط ، على أن يتم انتزاع جوف سوريا منه ، وضمها إلى ممتلكات سلوقس عقابًا له على موقفه المتخاذل إبان حربهم مع أنتيجونس ، لأنه لم يبادر بتقديم المساعدة لهم ، بل استغل إنهماكهم فى الحرب لتحقيق مكاسب شخصية . وقد رفض بطلميوس هذا القرار ، وتمسك بسيادته على جوف سوريا ، وهو الأمر الذى سيفضى إلى قيام نزاعات طويلة الأمد بين دولة البطالمة فى مصر ، والدولة السلوقية فى سوريا وبابل ، ولم يشأ سلوقس أن يدخل فى نزاع مع بطلميوس لأنه كان مايزال يشعر بالعرفان تجاهه ، نظرًا للمساعدة التى قدمها له لاستعادة مركزه فى بابل .

وعلى الرغم من فرار ديمتريوس بعد هزيمة إبسوس ، إلا أنه آثر ألا يبتعد عن مسرح الأحداث ، وعندما توفى كاسندروس ، نجح ديمتريوس فى الاستيلاء على عرشه فى مقدونيا ، مما أثار حنق القادة الآخرين، فسارع لوسيماخوس باقتحام مقدونيا فى عام ٢٨٨ - ٢٨٥ق.م.

---

(1) Preaux. C; op. cit. p. 133 .

(2) Jouguet.P; op. cit. p. 158 .

وفى نفس الوقت تمكن سلوقس من إلقاء القبض على ديمتريوس فى عام ٢٨٥ ق.م ، وبقى فى الأسر حتى مات فى عام ٢٨٣ ق.م. ثم تلى ذلك قيام صراع بين لوسيماخوس وسلوقس ، وقد حسم سلوقس الموقف لصالحه .

أخذ سلوقس يحلم بارتقاء عرش مقدونيا ، موطنه الأصلى ، غير أن الأيام حملت له مفاجأة لم تكن فى الحسبان . وكان بطلميوس هو مصدر هذه المفاجأة ، فقد قام بطلميوس باستبعاد ابنه الأكبر بطلميوس الصاعقة Keraunos ، من وراثة العرش ، ووقع اختياره على الابن الثانى ، لكى يكون ولى عهده ، وبادر بإشراكه معه فى الحكم ، وقد انفرد هذا الابن بالعرش فى عام ٢٨٤ - ٢٨٣ ق.م. بعد وفاة أبيه . وقد استشاط بطلميوس الصاعقة غضبًا ، وفر إلى بلاد اليونان فى البداية ، ثم لجأ إلى سلوقس لكى يساعده[١] .

أبدى سلوقس استعداداً طيبًا لمعاونة بطلميوس الصاعقة ، وتمكن من الانتصار على لوسيماخوس ، وأخذ يستعد لإعلان نفسه ملكًا على مقدونيا ، إلا أن بطلميوس الصاعقة تنكر له ، ودبر مؤامرة أودت بحياته ، وراح يتطلع إلي تولى عرش مقدونيا [٢]. وقبل الجنود هذا الأمر ونادوا ببطلميوس الصاعقة ملكًا على مقدونيا ، بينما خلف سلوقس على العرش ابنه أنطيوخوس الأول .

لم يهنأ بطلميوس الصاعقة على عرش مقدونيا ، لفترة طويلة ، إذ تعرضت حدود المملكة إلى هجوم القبائل الكلتية ، وفقد حياته وهو يدافع عن حدود مملكته الشمالية . واضطربت أحوال العرش المقدونى لبعض الوقت ، حتى لاح فى الأفق أنتيجونس ابن ديمتريوس ، وتحالف مع أنطيوخوس الملك السلوقى ، وتمكن الاثنان من هزيمة القبائل الكلتية فى آسيا الصغرى ، ثم اتجه أنتيجونس بعد ذلك إلى مقدونيا وأعلن نفسه ملكًا فى عام ٢٧٧ ق.م.

وهكذا أسفرت الحروب الكثيرة ، التى شهدها عالم ما بعد الإسكندر ، عن ظهور ثلاث ممالك كبيرة على رأس كل منها ملك قوى . ففى الدولة السلوقية فى بابل وسوريا كان على العرش الملك أنطيوخس الأول ، وفى مقدونيا أنتيجونس الثانى الذى عرف باسم جوناتاس Gonatas . وفى مصر كان يجلس على العرش بطلميوس الثانى فيلادلفوس [٣].

---

(١) إبراهيم نصحى : المرجع السابق جـ ١ ، ص ٩٧ .

(2) Preaux. C; op. cit. p. 136 .

(3) Preaux. C; op. cit. p. 136 .

بطلميوس الثانى فيلادلفوس ٢٨٤ - ٢٤٦ ق.م. :

هو ابن بطلميوس الأول من زوجته الثالثة . وتجدر الإشارة إلى أن بطلميوس الأول كان ة تزوج فى المرة الأولى ، من سيدة فارسية ، نزولاً عن رغبة الإسكندر ، ثم طلقها وتزوج م يوريديكى Eurydike ، ابنه القائد لوسيماخوس ، التى أنجب منها ابنة بطلميوس الصاعقة أما الزوجة الثالثة فهى برنيكى Berenike ، التى أحبها وترك من أجلها زوجته السابقة وهى التى أنجبت له ولداً وابنة[١] ، وقد أشرك معه الابن فى العرش ، كما سلف القول ، أ. الابنة فهى أرسينوى الثانية .

تولى بطلميوس الثانى العرش بعد وفاة أبيه ، وكان فى الخامسة والعشرين ، ولم يكـ بطلميوس جنديًا كما كان الحال بالنسبة لوالده ، بل نشأ محبًا للترف والحياة الناعمة ، وكا يحب العلم والثقافة إلى حد كبير ، وقد تزوج من أرسينوى الأولى Arsinoe ، ابنة القـائ أنتيباتروس ، وأنجب منها ولدين وابنه واحدة . والابن الأكبر هو سيجلس على العرش بعـ أبيه، أى بطلميوس الثالث . أما أرسينوى شقيقه بطلميوس الثانى فإنها كانت قد تزوجت م القائد لوسيماخوس ، وبعد وفاة زوجها ، تزوجت من أخيها غير الشقيق ، بطلميو الصاعقة، بعد أن صار ملكًا على مقدونيا ، إلا أنه غرر بها ، وقام بقتل أبنائها م لوسيماخوس . فسارعت بالفرار إلى الإسكندرية ، لكى تحتمى بشقيقها بطلميوس الثانى ملـ مصر . الذى استقبلها هو وزوجته أرسينوى الأولى ، إلا أنها أخذت تعمل على الإيقاع بـ شقيقها وزوجته ، ونجحت مساعيها ، فقام بطلميوس بنفى زوجته إلى مدينة قفط optos فى صعيد مصر [٢]. وعلى الرغم من أن شقيقته أرسينوى الثانية كانت أكبر منه سنًا ، إ أنه تزوجها ، وعرفا معا باسم الإلهين الأخوين Adelphoi ، وعلى الرغم من أن زواج الأخـ كان أمراً مكروهًا لدى الإغريق ، فإن بطلميوس برر إقدامه على هذه الخطوة ، بأنه باعتبا حاكمًا لمصر ، فإنه يسير على نهج الفراعنة ، الذين درجوا على الزواج من شقيقاتهم .

وبعد وفاة أرسينوى الثانية ، تقرر رفعها إلى مصاف الآلهة ، وإقامة عبادة خاصة بها باسم الربة المحبة لأخيها " فيلادلفوس " Philadelpos ، وهو ذات اللقب الذى عـرف بـ

---

1) Walter M. Ellis, op. cit. p

2) C.A.H. VII. p. 703 .

بطلميوس الثانى فيما بعد ، كما هو لو كان مقدراً لهذا الرجل أن يظل أسيراً لشقيقته حتى بعد وفاتها ، وإمعانًا فى تكريم أرسينوى أطلق اسمها على إقليم الفيوم (١).

وقد احتفل بطلميوس بجلوسه على العرش فى مهرجان ضخم ، حضرته وفود من كافة أرجاء العالم الهللينيستى . ويعد عهد بطلميوس فيلادلفوس بحق أزهى فترات تاريخ مصر فى عصر البطالمة . ويعزى إلى هذا الملك غالبية النظم الإدارية ، التى سارت عليها مصر فى العهود التالية (٢). كما بلغت مدينة الإسكندرية أوج عظمتها ، فقام فنار الإسكندرية الشهير شامخًا ، على جزيرة بالقرب من جزيرة فاروس ، وازدهرت دار العلم Mousion ، التى حرص بطلميوس فيلادلفوس على أن يجلب لها العلماء والفلاسفة من كافة أرجاء العالم، كما حظيت مكتبة الإسكندرية العظيمة باهتمام بالغ ، وجرى تزويدها بالكتب من كافة أرجاء المعمورة ، ولم يكتف علماء الإسكندرية بتجميع الكتب فحسب ؛ بل نشطت حركة ترجمة الكتب غير اليونانية ، ومن أشهر ما تم ترجمته فى عهد فيلادلفورس ، التوراة وهى الترجمة المعروفة باسم الترجمة السبيعينة Septuagint ، ويقال أن السبب فى هذه التسمية هو قيام حوالى سبعين من رجال الدين اليهود بترجمتها (٣). وإلى جانب ذلك فقد حرص الملك على إقامة حديقة للحيوان ، وضع فيها كل ما هو غريب من الطيور والحيوانات ، وهى أمور تعكس كلها حب فيلادلفوس للعلم ، وعلى وجه الخصوص علم الجغرافيا والتاريخ الطبيعى .

وإذا ما عدنا إلى إلقاء نظرة على الأحوال السياسية ، فى العالم الهللينيستى ، فإننا نجد تعارضًا واضحًا فى أهداف الدول الكبرى الثلاث . وكانت مملكة البطالمة فى مصر ، هى أقوى تلك الدول ، تليها مملكة السلوقيين التى شملت بلاد ما بين النهرين ، وولايات الشرق البعيدة، وسوريا فيما عدا إقليم جوف سوريا ، ثم تأتى بعد ذلك دولة مقدونيا ، التى كانت تبسط سيطرتها على بلاد اليونان بالإضافة إلى مقدونيا ذاتها .

---

(١) ظل اسم أرسينوى يطلق على إقليم الفيوم خلال العصر الرومانى والبيزنطى ، أيضًا .C.A.H. VII p. 703 .

(2) Grant. M; op. cit. p. 40 .

(٣) انظر : مصطفى العبادى . المرجع السابق ص ١٦٢ .

وإذا ما عدنا بالذاكرة قليلاً فإننا نجد أن الهدف الأول الذى وضعه بطلميوس الأول ، مؤسس الدولة ، نصب عينيه ، هو المحافظة على استقلال مصر ، وأن تكون قادرة على أن تلعب الدور الأول فى سياسات العالم الهللينيستى . وكان السبيل إلى تحقق هذا الهدف يكمن فى السيطرة على بحر إيجه . باعتباره مركز الثقل السياسى والحضارى ، فى العالم آنذاك ، وفى هذا الإطار حرص بطلميوس الأول على السيطرة على جزر الكيكلاديس فى مدخل بحر إيجه . وسارع بتقديم المساعدة إلى جزيرة رودس ، واستمراراً لهذه السياسة حرص فيلادلفوس على تدعيم مكانة مصر فى جزر بحر إيجه . غير أن ذلك لم يكن كافيًا ، لذا فقد سعى إلى الاستيلاء على بعض الشواطىء الجنوبية والغربية لآسيا الصغرى ، كما أخذ يعمل على تقوية وجود مصر فى المراكز التجارية الهامة ، التى تقع شمال بحر إيجه ، وعمل على حرمان مملكة مقدونيا من السيطرة على موانىء بحر إيجه ، حتى يحد من سيطرتها على تجارة هذا البحر . وأدت هذه السياسة إلى إغضاب دولة مقدونيا . أما الدولة السلوقية ، فإنها كانت تضمر الكراهية لمصر ، منذ أن قام بطلميوس الأول بالاستيلاء على إقليم جوف سوريا ، وهو الإقليم الذى ظل السلوقيون ينظرون إليه على الدوام باعتباره من أملاكهم الخاصة .

وفى إطار حرص بطلميوس الثانى على التدخل فى بلاد اليونان ، وربما كان ذلك أيضًا بتأثير من شقيقته وزوجته أرسينوى ، التى راحت تدس أنفها فى السياسة الخارجية للدولة ، فإنه راح يشجع المدن الإغريقية على الثورة ضد الوجود المقدونى . فقد كانت مصر ترى على الدوام أن وجود دولة قوية فى مقدونيا يشكل تهديداً لمكانتها فى بحر إيجه ، لذلك كان هدف السياسة البطلمية دائمًا ، هو خلق المشاكل لمقدونيا فى بلاد اليونان [١] .

قامت مصر بعقد تحالف مع مدينتى أثينا وأسبرطة ، وقد استجابت هاتان الدولتان لتحريض مصر ، وبدأتا فى التمرد على مقدونيا فى عام ٢٦٦ ق.م. وكان الإغريق يعولون كثيراً على مساعدة الأسطول المصرى . إلا أن مصر خذلتهم ، وتمكن أنتيجونس جوناتاس ، ملك مقدونيا ، من سحق هذا التمرد ، واستسلمت أثينا فى عام ٢٦١ ق.م. ، وخر ملك أسبرطة صريعًا فى ميدان القتال ، وتمكنت مقدونيا من استعادة مكانتها فى بلاد اليونان ، مما شكل فشلاً ذريعًا للسياسة البطلمية .

(1) C.A.H. VII. p. 699 .

وفيما يتصل بعلاقة مصر بالدولة السلوقية ، فقد ظلت هذه العلاقة متوترة بسبب إقليم جوف سوريا . وقد ادعى البطالمة على الدوام أن سلوقس الأول اعترف بسيادة مصر ، على فينيقيا وجنوب سوريا ، اعترافًا منه بفضلها عليه ، من خلال موقفها إبان الحرب بينه وبين لوسيماخوس (١). وقد رفضت الدولة السلوقية هذا التبرير ، واستمر التوتر فى العلاقة بين الطرفين ، وأدى ذلك إلى قيام الحرب بين الدولتين فى عام ٢٧٦ ق.م. ، وهى التى عرفت بالحرب السورية الأولى ، والتى لا نعرف عن أحداثها إلا النذر اليسير ، فقد ذكرت المصادر أن القوات البطلمية احتلت مدينة دمشق . إلا أن الملك السلوقى تمكن من استخلاص دمشق ، ورد القوات البطلمية على أعقابها . ولكن مصر ظلت على الرغم من ذلك تحتفظ بسيطرتها على جنوب سوريا وفلسطين وساحل فينيقيا (٢).

وفى عام ٢٦٢ ق.م. توفى أنطيوخس الأول ، وخلفه على العرش ابنه أنطيوخس الثانى ، الذى قرر الانتقام من فيلادلفوس لقيامه بمساعدة دولة برجامة (فى آسيا الصغرى) فى حربها ضد والده ، فشن حربًا ضد مصر وهى المعروفة بالحرب السورية الثانية (٣). وكانت آسيا الصغرى هى مسرح هذه الحرب ، ولم تكن الظروف فى صالح مصر ، فقد تحالف جوناتاس ملك مقدونيا ، مع أنطيوخس ، ولحقت بالأسطول المصرى هزيمة منكرة عند جزيرة كوس ، فى عام ٢٥٨ أو ٢٥٦ ق.م. ونجح الملك السلوقى فى طرد القوات البطلمية من آسيا الصغرى فيما عدا إقليم كاريا ، كما فقدت مصر ممتلكاتها فى جزر الكيكلاديس فيما عدا جزيرة ثيرا Thyra .

أدرك فيلادلفوس أن التحالف بين أنطيوخس الثانى وجوناتاس ، هو الذى جر عليه كل هذه النكبات ، فسعى إلى ضرب هذا التحالف عن طريق استمالة أنطيوخس إلى جانبه ، فقام بتوقيع معاهدة معه ، وتزوج أنطيوخس من ابنة فيلادلفوس الأميرة برنيكى ، وأبعد زوجته وأم أبنائه التى تدعى لاوديكى Laodike ، ويبدو أن برنيكى حملت معها مهراً ضخمًا إلى زوجها ، لذا أطلق عليها لقب " حاملة المهر " Phernephoros . ومن الجدير بالذكر أنه طبقًا

---

(1) C.A.H. VII. p. 700 .

(٢) انظر : إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص١١١ .

(3)Preaux. C; op. cit. p. 141 .

للتقاليد الإغريقية ، فإن العروس هى التى تدفع المهر إلى زوجها[١] ، وربما كان الهدف الذى يرمى إليه فيلادلفوس ، هو ربط الدولة السلوقية بمصر . من خلال هذا الزواج ، الذى قد يسفر عن مولد وريث للعرش السلوقى .

وعلى الحدود الغربية قام ماجاس ، الأخ غير الشقيق لفيلادلفوس ، الذى كان نائبًا لبطلميوس الأول فى ولاية قورينى ، بإعلان استقلاله بهذه الولاية فور تولى فيلادلفوس العرش[٢]. ولكن بعد وفاة ماجاس فى عام ٢٥٩ ق.م. تزوجت ابنته من ابن فيلادلفوس ، الذى سيصبح ملكًا على مصر بعد والده ، فعادت قورينى إلى مصر مرة أخرى .

فيلادلفوس وبلاد العرب :

أشرنا من قبل إلى اهتمام الإسكندر الأكبر ببلاد العرب[٣] ، ورغبته فى فتح هذه البلاد ، وقد ورث البطالمة هذا الاهتمام ، فقام بطلميوس الأول بإرسال حملة بقيادة ضابط يدعى فيلون Philon ، وقد وصلت هذه الحملة حتى مروى فى أفريقيا ، وجزيرة فى البحر الأحمر تسمى توبازوس . Topazos[٤].

وفى عهد بطلميوس فيلادلفوس ، تواصلت الحملات الكشفية ، وكانت إحداها بقيادة شخص يدعى أريستون Ariston ، وكان هدف هذه الحملة استكشاف شواطىء بلاد العرب[٥]. وقام فيلادلفوس بإنشاء مستعمرة فى بلاد العرب تدعى أمبيلونى Ampelone ، كما أعد أحد الملاحين فى عهد هذا الملك كتابًا عن موانىء البحرين الأحمر والمتوسط .

وقد تحدث أريستون عن سكان بلاد العرب ، وذكر أن أهم القبائل هى قبيلة ثمود ، التى كانت تسكن فى منطقة الحجاز الحالية تقريبًا ، بالإضافة إلى قبائل أخرى كانت تسكن إلى

---

(١) ظلت هذه الأميرة البطلمية لا تشرب إلا من مياه النيل لذلك كانت ترسل إليها هذه المياه بشكل مستمر : . Bowman.op.cit., p. 179

(2) C.A.H. VII. p. 704 .

(٣) انظر : أبو اليسر فرح . حملات الإسكندر الأكبر وتطور المعلومات الجغرافية عند الإغريق . حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس العدد ٢٧ جـ ١٩٩٩ ، ص ٥٣ – ٥٥ .

(4)Fraser. P.M, op. cit. p. 176 .

(5) Tarn.W.W, Ptoleny II and Arabia.J.E.A. vol.14 1928. p. 251 .

الجنوب منها . كما تحدث عن ممالك اليمن[1] . وقد تأثر الأنباط بالنشاط البحرى للبطالمة، فى البحر الأحمر ، فأخذوا فى ممارسة القرصنة ضد السفن المصرية ، مما جعل فيلادلفوس يقرر القيام بحملات لردعهم ، وتأمين تجارة مصر الشرقية ، فقام بحملة ضد الأنباط فى عام ٢٧٨ق.م. وأعقبها بحملة أخرى فى عام ٢٧٧ ق.م. مما جعل الأنباط يحملون الكراهية لدولة البطالمة حتى آخر أيامها .

ومما هو جدير بالذكر أن أهداف فيلادلفوس تجاه الجزيرة العربية ، كانت أهدافًا تجارية محضة ، فقد أراد أن يحكم سيطرة مصر على طرق التجارة الشرقية . وكان الأنباط منذ أيام الإمبراطورية الفارسية ، يتحكمون فى هذه التجارة عن طريق اتصالهم المباشر ما بين الممالك العربية فى الجنوب ، ومدن ساحل فينيقيا ، ولكن منذ أن تمكن البطالمة من الاستيلاء على فينيقيا ، فقد الأنباط تلك الميزة التى يتمتعون بها . وقد أراد فيلادلفوس من نشاطه فى بلاد العرب أن يتم تبادل السلع الشرقية مباشرة مع السبئيين ، دون الحاجة إلى وساطة الأنباط .

وقد ازدادت علاقة مصر بالجزيرة العربية توثقًا ، بعد حملات فيلادلفوس وأخذ التجار العرب يمارسون أعمالهم فى مصر ، وبلغ بعض العرب المقيمين فى مصر درجة عالية من الثراء، وهو ما يدل عليه تابوت عثر عليه فى الفيوم لرجل معينى يدعى " زيدأيل " . من المرجح أن تاريخه يرجع إلى عهد بطلميوس فيلادلفوس [3].

وإذا أردنا أن نقيم سياسة بطلميوس فيلادلفوس الخارجية ، فإنه يمكننا القول بأنه سار على خطى والده ، فعمل على تدعيم مكانة مصر الخارجية ، وبخاصة فى منطقة بحر إيجه . بل إنه قطع شوطًا أطول فى علاقة مصر الخارجية ، عندما سعى إلى الاتصال بدولة ناشئة فى غرب البحر المتوسط ، وهى الجمهورية الرومانية ، وأرسل إليها سفارة فى عام ٢٧٣ ق.م. [4]،

---

(١) انظر : مليحة الزهرانى : المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١١٤ .

(2) Rostovtzeff. M, op. cit. p. 387 .

أنظر أيضًا : نورة النعيم الوضع الاقتصادى فى الجزيرة العربية فى الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادى ص ٥٦ .

(٣) سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(4) Bowman. A.K, op. cit. p. 32 .

وحافظ على صلاته الطيبة بهذه الدولة ، حينما آثر ألا يتورط فى الحرب التى شنتها ضدها دولة قرطاجة . وهى الحروب التى تعرف باسم الحروب البونية . كما عمل على تنشيط تجارة مصر الشرقية . وكسر احتكار الأنباط لهذه التجارة . واهتم بإرسال الحملات إلى أثيوبيا ، ربما تحقيقًا لهوايته فى اقتناء الحيوانات النادرة .

وفى عام ٢٤٧ ق.م. أشرك معه فى الحكم ابنه الأكبر من أرسينوى الأولى ، وفى العام التالى ، توفى بطلميوس فيلادلفوس ، بعد حكم دام حوالى أربعين عامًا ، يعد بحق من أزهى سنوات تاريخ مصر فى عصر البطالمة [١].

بطلميوس الثالث (يورجيتيس) ٢٤٦ - ٢٢١ ق . م :

خلف بطلميوس الثالث والده ، على عرش مصر فى يناير ٢٤٦ ق.م. ، ويبدو أنه كان يتمتع بصفات حميدة ، ربما كانت السبب وراء إطلاق لقب يورجيتيس Euergetes عليه ، وهو لقب يعنى الصالح أو الخيّر ، لأنه أمر بإسقاط الضرائب المفروضة على الأهالى تقديراً منه لظروف المجاعة الى مرت بها البلاد[٢] .

وكان بطلميوس الثالث مثل أبيه ميالاً للعلم والثقافة ، فكانت تربطه صداقة حميمة بالعالم والجغرافى الشهير إراتوسثينس Eratosthenes . إلا أنه تميز عن والده بما كان يتمتع به من خلق رفيع ، فلم يكن له سوى زوجة واحدة هى الملكة برنيكى Bernike ، لم يتخذ لنفسه محظيات ، كما كان الحال مع أبيه .

وما أن تولى بطلميوس الثالث العرش ، حتى وجد نفسه مضطراً إلى خوض غمار حرب شرسة ، وهى التى عرفت باسم الحرب السورية الثالثة [٣]، وكانت هذه الحرب أمراً متوقعًا كنتيجة للمصاهرة التى تمت من قبل بين أنطيوخوس الثانى وبطلميوس فيلادلفوس ، وعندما مات أنطيوخوس الثانى فى ظروف غامضة ، فى إفيسوس (بآسيا الصغرى ، حيث كانت

---

(١) ظهرت هذه الفكرة بوضوح فى أعمال شعراء الإسكندرية . فقال ثيوكريتوس أن فيلادلفوس هو أعظم الملوك وأغناهم . وأنه حكم ١٣,٣٣٣ مدينة أما كاليماخوس فقال أن فيلادلفوس حكم العالم من المشرق إلى المغرب : . C.A.H. VII. p. 704 - 705 .

(2) C.A.H. VII. p. 726 .

(3) Preaux. C, op. cit. 142 .

توجد زوجته الأولى لاوديكى Laodike) ، أشارت أصابع الاتهام إلى هذه الزوجة ، وذكرت الشائعات أنها أقدمت على هذا العمل حتى تؤمن العرش لابنها ، بدلاً من ابن الزوجة الجديدة، الأميرة البطلمية برنيكى . وسارعت بإعلان إبنها ملكًا على الدولة السلوقية ، تحت اسم سلوقس الثانى ، تيمنًا باسم جده سلوقس الأول مؤسس الدولة [١].

لم يكن أمام برنيكى سوى أن تطلب العون من شقيقها ، بطلميوس الثالث ، ملك مصر ، فتقدم بطلميوس على الفور ملبيًا نداء شقيقته ، واستطاع أن يجتاح سوريا السلوقية ، وأرسل إلى مصر تقارير عن انتصاراته ، وتمكن من دخول أنطاكية ، عاصمة الدولة السلوقية ، ثم عبر نهر الفرات إلى بلاد ما بين النهرين ، وتذكر بعض الروايات أن برنيكى وابنها قتلا قبل وصول بطلميوس الثالث ، وأنه علم بهذا الخبر وأخفاه حتى يوجد لنفسه مبرراً للاستمرار فى الحملة ، تحت إدعاء الرغبة فى إقامة ابن شقيقته على العرش ، والحقيقة أنه بعد تلك الانتصارات التى أحرزها بطلميوس ، كان بمقدوره القضاء على الدولة السلوقية قضاء مبرمًا[٢].

ولكن فى نهاية عام ٢٤٥ ق.م. اضطر بطلميوس يورجيتيس إلى العودة إلى مصر ، فقد جاءت الأنباء من مصر ، بأن فيضان النيل فى هذا العام ، جاء منخفضًا ، مما سبب القحط والمجاعة[٣]، وأدى إلى حدوث حالة من الاضطراب فى البلاد . وقد انتهز سلوقس الثانى الفرصة ، وقام فى عام ٢٤١ ق.م. باستعادة كل ما استولى عليه بطلميوس يورجيتيس ، ولكن بقيت فى حوزة مصر سوريا الجنوبية ، وتشمل فلسطين وساحل فينيقيا . ولم يتمكن سلوقس الثانى من الاستمرار فى الحرب ، بسبب الصراع الذى نشب بينه وبين شقيقه الأصغر الذى يدعى أنطيوخس هيراكس Hierax ، وهو الصراع الذى سمى بحرب الأخوين ، وانتهت الحرب السورية الثالثة . بتوقيع معاهدة بين مصر وسوريا فى عام ٢٤١ ق.م. ومما هو جدير بالملاحظة أن بطلميوس الثالث استخدم سلاح الدبلوماسية فى توطيد مكانة مصر الخارجية ، فراح يعمل على إزكاء نار الخلافات الداخلية فى الدولة السلوقية ، وبذلك أمن من تدخل هذه الدولة فى مسألة جوف سوريا ، كما تمكن من تدعيم نفوذه فى آسيا الصغرى ، وامتد هذا

---

(1) Jouguet. P, op. cit.p. 193 .

(2) Jouguet. P, op. cit.pp. 193-195 .

(٣) ورد ذكر لهذه المجاعة فى قرار كانوب ، انظر: O.G.I.S. 56. 18 ff

النفوذ إلى بلاد اليونان ، وراح يساند المدن الإغريقية فى تطلعها إلى التخلص من نير الهيمنة المقدونية . ويمكن القول بأن هذا الملك تمكن عن طريق الدبلوماسية من تحقيق قدر أكبر من القوة لمصر ، مما مكنها من الاحتفاظ بممتلكاتها فى قورينى وجنوب سوريا ، وبعض مناطق آسيا الصغرى ، وقبرص .

وعلى صعيد السياسة الداخلية ، نجح بطلميوس الثالث فى إقامة علاقات طيبة مع الكهنة، وحظى بحب المصريين عندما أعفى الأهالى من الضرائب المقررة عليهم . ولم يكتف بذلك ، بل سارع باستيراد كميات من الغلال ، لإنقاذ البلاد من المجاعة . واعترافًا بهذا الفضل قام الكهنة فى عام ٢٣٧ ق.م. بإصدار قرار عرف بقرار كانوب[١] (نسبة إلى البلدة التى عقد فيها الاجتماع الذى صدر خلاله هذا القرار) ، قدموا فيه الشكر للملك لمظاهر العطف التى أسبغها على شعبه ، ومنحوه لقب " فاعل الخير " ، وهو فى الأصل من ألقاب الإله المحبوب أوزيريس . وترجم فى اللغة اليونانية إلى يورجيتيس Euergetes . وقد أولى بطلميوس الثالث اهتمامًا كبيرًا للديانة المصرية . فأقام صرحًا فى معبد الكرنك ، كما شرع فى بناء معبد فى مدينة إدفو ، وخصص هذا المعبد لعبادة الإله حورس الذى شبهه الإغريق بإلههم أبوللو Apollo .

وعلى الرغم من الأعمال المجيدة التى قام بها هذا الملك ، فإن النقد الذى يمكن أن يوجه إليه ، هو أنه أهمل الجيش والأسطول ، وذلك فى إطار ميله الواضح إلى انتهاج طريق العمل الدبلوماسى . وكان مطمئنًا إلى أن أعداءه التقليديين ، أى مملكة مقدونيا ، ومملكة السلوقيين تعانيان من مشاكل داخلية . إلى أن جاء عام ٢٢٦ ق.م، حين ارتقى عرش الدولة السلوقية ، واحد من أقوى ملوك هذه الدولة ، وهو أنطيوخس الثالث . فأخذ يعمل على استعادة المناطق التى فقدتها دولته فى آسيا الصغرى . ونجح فى كبح جماح أتاللوس Atallos ملك برجامة . مما دفع مصر إلى مهادنة مقدونيا ، وأدى إلى توثق العلاقة بين الدولتين . وفى عام ٢٢١ ق.م، توفى بطلميوس يورجيتيس وانتقل العرش إلى ابنه بطلميوس الرابع .

---

(١) انظر ترجمة هذا القرار : مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

بطلميوس الرابع فيلوباتور ٢٢١ - ٢٠٥ ق.م :

يعتبر عهد بطلميوس الرابع بداية لمرحلة من التدهور ، فى تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، فقد تولى هذا الملك العرش ، وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وأراد أن يتقرب من رعاياه ، فاتخذ لنفسه لقب " المحب لأبيه " فيلوباتور Philopator ، لمعرفته بمدى حب الناس لوالده . إلا أن هذا الابن كان على النقيض من والده ، فقد كان مستهتراً . أغرق نفسه فى حياة اللهو والمجون [1] ، وتحمس لعبادة الإله ديونيوس Dionysos إله الخمر عند الإغريق ، وحاول أن يفرض هذه العبادة على كافة رعاياه ، مما أدى إلى صدامه باليهود الذين رفضوا الانصياع إلى رغبته ، وعرف عن هذا الملك أيضًا شدة اهتمامه بالأدب والفلسفة ، ويقال أنه كتب قصيدة من الشعر . وسار فيلوباتور على نهج جده فيلادلفوس ، فتزوج من شقيقته أرسينوى الثالثة .

وقد وقع بطلميوس فيلوباتور تحت تأثير مجموعة فاسدة من رجال البلاط ، من أمثال أجاثوكليس Agathocles وسوسيبيوس Sosibios ، وقام هذا الأخير بتحريض الملك ضد أفراد عائلته ، فقتل والدته برنيكى ، ثم أقدم على قتل عمه وأخويه ، وعدد آخر من أصدقائه، حتى يخلو الجو لهذا الرجل فيحكم السيطرة على الملك ، ويدير دفة البلاد دون تدخل من أحد.

وبينما كان يجلس على عرش مصر هذا الملك الضعيف ، كان على عرش الدولة السلوقية أقوى ملوكها ، وهو أنطيوخس الثالث . وفى مقدونيا أيضًا كان يتربع على العرش فيليب الخامس Philipe ، الذى لم يكن يقل قوة وطموحًا عن مثيله فى سوريا . وقام هذان الملكان بعقد تحالف ضد الدولة البطمية ، هدفه اقتسام ممتلكات هذه الدولة . وفى ذلك الوقت كانت روما ، الدولة الناهضة فى الغرب ، ماتزال مشتبكة فى الحروب البونية التى كانت تخوضها ضد دولة قرطاجة ، تحت قيادة القائد العسكرى الشهير هانيبال Hanipal ، وقد إنحاز كل من الملك السلوقى والمقدونى إلى جانب هانيبال ، لخشيتهما من تزايد النفوذ الرومانى فى الشرق ، أما مصر وبرجامة وردوس فقد آثرت أن تقف على الحياد .

ولما كان الملك السلوقى يتحرق شوقًا إلي استعادة إقليم جوف سوريا ، فقد انتهز فرصة وفاة بطلميوس يورجيتيس، وقام بغزو هذا الإقليم فى عام ٢٢١ ق.م. ، إلا أن القائد البطلمى

---

(1) C.A.H.VII. p. 727 .

في هذا الإقليم ، تصدى له مما وقف حائلاً دون تحقيق رغبة الملك السلوقي . وقبل أن يفكر في إعادة الكرة ، إضطر أنطيوخس الثالث إلى مواجهة ثورة ضده في بابل ، فاستغل سوسيبيوس هذه الفرصة . وراح يعمل على بث القلاقل في أرجاء الدولة السلوقية ، وأدخل في روع أنطيوخس أنه يمكنه استعادة جوف سوريا عن طريق التفاوض ، بينما راح يعمل بهمة على إعداد الجيش ، الذي كان يعاني حالة من الاسترخاء ، وكانت المشكلة التي واجهت سوسيبيوس آنذاك ، هي صعوبة الحصول على أعداد من المرتزقة الإغريق ، لذا فقد قرر الإقدام على خطوة جريئة ، وهي إشراك المصريين في الجيش ، وكان المصريون قد انقطعوا عن المشاركة في الجيش البطلمي منذ موقعة غزة في عام ٣٢١ ق.م. (١) ، فقام بتدريب عشرين ألفًا من المصريين ، على أساليب القتال المقدونية ، وقد جرى ذلك في طي الكتمان .

أما أنطيوخس الثالث ، فبعد أن فرغ من تسوية مشاكله الداخلية ، راح يتطلع إلى عودة جوف سوريا إليه ، إلا أن اليأس بدأ يتسرب إلى نفسه ، في إمكانية تحقيق هذا الهدف عن طريق المفاوضات ، فقرر تحقيقه عن طريق القوة ، فاتجه على رأس قواته إلى جنوب سوريا ، واستولى على فينيقيا ، ثم واصل تقدمه واستولى على غزة ، وفي تلك الأثناء كان الجيش البطلمي قد أكمل استعداده ، فخرج لملاقاة الجيش السلوقي ، وكان بطلميوس فيلوباتور يتولى القيادة العامة ، بينما كان سوسيبيوس يتولى قيادة الفرق المصرية المشاركة في الجيش .

موقعة رفح عام ٢١٧ ق . م :

زحف أنطيوخس الثالث بقواته ، حتى تجاوز مدينة رفح ، والتقى بالجيش البطلمي الذي كان يعسكر بالقرب من هذه المدينة ، وكان إنطيوخس يقود جيشًا جراراً ، مزوداً بعدد كبير من الفيلة الهندية ، وتولى بطلميوس الرابع قيادة جيشه ، وكان في صحبته شقيقته أرسينوى الثالثة ، وعندما بدأ التلاحم تمكن أنطيوخس الثالث ، الذي كان يتولى بنفسه قيادة ميمنة جيشه ، من اجتياح فرسان الجيش البطلمي في الميسرة ، التي كان يقودها الملك البطلمي ، الذي ولى الأدبار . إلا أن المعركة لم تقف عند هذه الجولة ، فقد استمر القتال بين المشاة على الجانبين ، وفوجيء الجميع باندفاع الجنود المصريين إلى أتون المعركة ، وأثار هؤلاء الجنود

(1) C.A.H.VII. p. 728 .

من الجدير بالذكر أن مشاركة المصريين في هذه المعركة اقتصرت على الأعمال المساعدة .

دهشة الجميع ، بما أظهروه من بسالة منقطعة النظير . واستطاعوا أن يقلبوا ميزان المعركة لصالحهم ، وتحولت الهزيمة على أيديهم إلى انتصار باهر ، فجعلوا جنود الجيش السلوقى يفرون من ساحة القتال (١).

اضطر أنطيوخس الثالث إلى طلب الصلح ، ورحب فيلوباتور بهذا الطلب وتم توقيع معاهدة بين الطرفين ، تمكنت مصر بمقتضاها من استرداد إقليم جوف سوريا ، الذى سبق أن استولى عليه أنطيوخس الثالث . وعاد بطلميوس فيلوباتور إلى مصر ، وقد انتشى بما أحرزه من انتصار ، فألقى بنفسه مرة أخرى فى مستنقع المجون. وتزوج من شقيقته أرسينوى الثالثة ، وكانت على جانب كبير من الأدب ، والخلق الرفيع ، ولكنها كانت عاجزة حيال تلك الطغمة الفاسدة ، التى سيطرت على البلاط ، والواقع أنه لايوجد فى الشطر المتبقى من عهد فيلوباتور أحداث تستحق الذكر ، حتى وفاته فى عام ٢٠٣ ق.م.

عصر الضعف :

كانت موقعة رفح نقطة تحول ، فى تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ويميل المؤرخون إلى اعتبار عام ٢١٧ ق.م. ، الذى جرت فيه أحداث هذه الموقعة ، بداية لمرحلة جديدة فى تاريخ مصر ، جرت فيها تحولات كثيرة على الصعيد الداخلى والخارجى . ويمكن اعتبار الشطر الأول من عصر البطالمة ، الذى بدأ بانفراد بطلميوس الأول بالسلطة فى مصر ، وحتى عام ٢١٧ ق.م. ، عهد القوة والازدهار ، أما الشطر الثانى ، منذ ذلك التاريخ وحتى سقوط الدولة، فهو عهد الضعف والانحلال ، الذى شهد تدهور أحوال البلاد فى الداخل ، وضياع هيبة الدولة فى الخارج (٢).

ففى الشطر الثانى ، تكاتفت مجموعة من العوامل ، لكى تأخذ بخناق الدولة ، منها ما هو داخلى ، وما هو خارجى ، ويمكن إجمال العناصر الداخلية فى ثلاثة عوامل ، هى ثورات المصريين ، وضعف السلطة المركزية ، والنزاعات على العرش . أما العوامل الخارجية فإنها تكمن فى ظهور ثلاث قوى فتية ، راحت تتربص بدولة البطالمة ، وتعمل على إضعافها : وهى أنطيوخس الثالث ملك سوريا ، وفيليب الخامس ملك مقدونيا ، ودولة روما .

---

(١) قدم بولبيوس وصفًا دقيقًا لهذه المعركة انظر : Polyb. V. 107; Jouguet. P. op. cit.pp. 214 - 216

(٢) عن الآثار التى ترتبت على هذه الموقعة راجع : إبراهيم نصحى : المرجع السابق جـ١ ، ص ١٥٨ .

ولتفصيل ذلك ، فإنه فيما يتعلق بالعامل الأول ، فإن موقعة رفح التى شارك فيها المصريون لأول مرة كجنود مقاتلين ، أيقظت فى أنفسهم الروح القومية ، فراحوا يتذكرون أمجاد أجدادهم ، وتولدت فيهم الثقة فى النفس ، باعتبارهم أصحاب الفضل فى تحقيق النصر. بينما اندحر الجنود الإغريق ، وفروا من ميدان القتال . وحينما عادوا إلى قراهم تفتحت عيونهم ، على الظلم الذى يعيشون فيه [١].

قارن المصريون بين أحوالهم المزرية ، والامتيازات التى يتمتع بها الإغريق ، وسائر الأجانب الآخرين ، وهى تفرقة بدت لعيونهم ليس لها ما يبررها . فاستشرت بينهم روح التحدى للأجانب . وتحولت مدينة طيبة ، عاصمة مصر الخالدة ، إلي بؤرة للثورة[٢] ، وأخذ كهنة الإله آمون فى طيبة ينفخون فى النار ، ويروجون النبوءات الى تبشر المصريين بقرب ظهور البطل الوطنى ، الذى سيقضى على الأجانب ، ومما هو جدير بالذكر أن الكهنة انتهزوا فرصة فوران الشعور الوطنى المصرى ، فى اجتماعهم لتكريم الملك ، فلم يرد ذكر الملك البطلمى باعتباره ملكًا إغريقيًا فقط ، بل أضيفت إلى اسمه الألقاب الفرعونية المصرية كاملة [٣]. وانفجرت الثورات وراحت تتوالى [٤]. مما أقض مضاجع البطالمة ، فبذلوا جهوداً جبارة لإخمادها ، استنزفت مواردهم ، وأضعفت مكانتهم فى الخارج .

ويتمثل ضعف السلطة المركزية ، فى تولى ملوك ضعاف عرش البلاد ، وقد رأينا نموذجًا لهؤلاء الملوك فى بطلميوس الرابع ، الذى ألقى القدر فى حجره نصراً لم يكن يستحقه على الإطلاق ، وبعد عهد بطلميوس الرابع تولى العرش فى الأغلب ملوك صغار ، خضعوا لتسلط الأوصياء على العرش ، الذين كانوا فى الغالب لا هم لهم سوى الاستئثار بالسلطة .

أما ثالث العوامل الداخلية ، فهو الخلافات على العرش التى نشبت بين الأخوة ، وكان لها أوخم العواقب ، حيث انقسمت البلاد بين الأخوة المختلفين ، وانفتح الباب على مصراعيه ، أمام التدخل الخارجي .

---

(1) Rostovtzeff. M, op. cit. p. 710 .

(2) Bowman. A. K. , op. cit. p. 30 .

(3) C.A.H.VII. p. 731 .

(٤) يمكن القول بأن منطقة طيبة ، فى بعض الفترات قد استقلت استقلالاً كاملاً عن السلطة المركزية للدولة . بل : المرجع السابق ص ٨٣ .

وإذا ما أردنا أن نفصل الحديث عن العوامل الخارجية ، فإننا ذكرنا من قبل أنها تكمن فى وجود ثلاث قوى راحت تعمل على إضعاف دولة البطالمة ، وأولى هذه القوى هى دولة روما التى قامت ، عى ضفاف نهر التايبر Tiber فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية ، وما لبثت أن توسعت وراحت تلتهم باقى القوى فى إيطاليا . مما جعلها فى شغل شاغل عما كان يجرى فى شرق البحر المتوسط . وبلاد اليونان ، وبدأ اهتمام روما ببلاد اليونان ، حينما أرادت أن تحمى سواحل إيطاليا الجنوبية ، من غارات القراصنة ، الذين كانوا يتمتعون بحماية دولة إلليريا Illyria ، التى تقع على الشواطىء الغربية لبلاد اليونان ، مما إضطر الرومان إلى محاربة هذه الدولة ، وفرض سيطرتهم على الطريق الرئيسى للمواصلات بين إيطاليا وبلاد اليونان (١).

أدت أحداث الصراع مع إلليريا ، إلى استيلاء الرومان على مناطق بالقرب من حدود دولة مقدونيا . وعندما تولى فيليب الخامس عرش هذه الدولة فى عام ٢٢٠ ق.م. أدرك مدى الخطر الذى تتعرض له بلاده من الوجود الرومانى فى البلقان ، فانتهز فرصة نشوب الحرب بين روما ودولة قرطاجة ، وتحالف مع هانيبال Hanibal ، القائد القرطاجى ، وعدو روما اللدود (٢) . فردت روما على هذه الخطوة بالتحالف مع أعداء فيليب ، فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، الذين شنوا حربًا ضد فيليب ، عرفت باسم الحرب المقدونية الأولى (٢١٢ - ٢٠٦ ق.م) . ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى توقيع معاهدة مع مقدونيا .

خرج فيليب من هذه الحرب أكثر قوة ، فانتعشت آماله فى إقامة إمبراطورية كبرى ، وتحقيق السيادة على بحر إيجة . وكانت هذه الرغبة تتعارض مع مصالح بعض القوى الأخرى. مثل رودس ودولة برجامة ، وكذلك أنطيوخس الثالث ، ملك سوريا القوى .

ويعد هذا الأخير هو ثالث العوامل التى أثرت على دولة البطالمة فى الشطر الثانى ، فإنه لم يستكن للهزيمة التى لقيها فى رفح . فراح يعمل على تقوية دولته ، وتمكن من استرداد ممتلكاته التى كان قد فقدها فى آسيا الصغرى ، كما أعاد إلى حظيرة الدولة بعض الولايات الشرقية ، التى كانت قد شقت عصا الطاعة . وراح يشحذ أسلحته ، تمهيداً للثأر من هزيمته فى رفح ، واسترداد إقليم جوف سوريا .

وبينما كان العالم يضطرم بهذه التطورات ، سيطر الخمول على السياسة الخارجية لمصر ، فلم يعد لمصر نشاط يذكر فى مجال السياسة الدولية ، والأمر الوحيد الذى يستلفت الانتباه ،

---

(1) C.A.H.VII. p. 831. ff .

(٢) عن حروب هانيبال فى إيطاليا انظر :

Cary.M., Scullard. H. H., A History of Rome. p. 127 .

هو سريان الدفء فى العلاقات بين مصر وروما . فقد شعر الرومان بأهمية المساعدات التى قدمتها مصر ، عندما قام هانيبال بتدمير حقول القمح فى إيطاليا ، ويمكننا أن ندرك مدى إحساس الرومان بهذه الأهمية ، من خلال الوفود التى أخذت تتقاطر على مصر فى عهد فيلوباتور ، ما بين عامى ٢١٥ - ٢١٠ ق.م.[١]، وبعد انتصار الرومان على قرطاجة فى موقعة زاما Zama فى عام ٢٠٢ ق.م. تحققت لهم السيادة الكاملة على غرب البحر المتوسط.

أما مصر فإنها عندما تبين لها أن أنطيوخس بدأ يكشر عن أنيابه ، أخذت فى التقرب إلى مقدونيا وتذكر الروايات أن فيليب الخامس عرض على فيلوباتور مساعدته فى إخماد ثورات المصريين ، إلا أن الملك البطلمى رفض هذا العرض ، لما ينطوى عليه من إتاحة الفرصة لمقدونيا ، للتدخل فى شئون مصر الداخلية .

وتجدر الإشارة إلى أن أنطيوخس الثالث ، قد تقدم بالعرض ذاته ، مما يدل بجلاء على أن هذين الملكين لم يتركا فرصة للتدخل فى شئون مصر الداخلية ، إلا وعملا على انتهازها .

بطلميوس الخامس (إبيفانيس) ٢٠٣ - ١٨٠ ق.م :

توفى بطلميوس الرابع فى عام ٢٠٣ ق.م ، وترك طفلاً لم يتجاوز عمره السابعة ، وكان من المقرر أن تتولى الوصاية عليه ، أمه الملكة أرسينوى الثالثة . إلا أن سوسيبيوس وأجاثوكليس دبرا مؤامرة ، أودت بحياة هذه الملكة ، وأعلنا توليهما الوصاية على الملك الطفل ، وأدعيا أن هذه وصية الملك الراحل . وهى وصية يرى الكثيرون أنها موضع شك[٢].

وبعد وفاة سوسيبيوس إنفرد أجاثوكليس بالوصاية على الملك الصغير ، وتولى توجيه دفة السياسة الخارجية للدولة . فأرسل سفارة إلى روما طالباً منها التوسط بين مصر وأنطيوخس الثالث ، إلا أن الرومان لم يظهروا حماساً إلى إجابة هذا الطلب ، لأن بقاء الخلافات بين مصر وسوريا فى مصلحة روما . ومن ناحية أخرى فقد تابع أجاثوكليس سياسة التقرب إلى دولة مقدونيا .

والواقع أن كلا من فيليب الخامس ، ملك مقدونيا ، وأنطيوخس الثالث الملك السلوقى ، ظلت تراوده أحلام الاستيلاء على ممتلكات مصر الخارجية . وعلى الرغم من التعارض الواضح

---

(١) سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(2) Polyb. XV. 25. 3 - 11 .

فى أهداف هذين الملكين ، فقد اتفقا فى هذا الأمر . وجرت مفاوضات سرية بين الطرفين ، أسفرت عن توقيع معاهدة . ولا نعرف عى وجه التحديد فحواها ، ولكن من المرجح أنه جرى الاتفاق على اقتسام ممتلكات مصر الخارجية ، بين الطرفين . أما الرأى الذى يقول بأن الاتفاق شمل مصر ذاتها ، فإنه لا يلقى قبولاً لدى الدارسين (١).

ويقتضى هذا الاتفاق ، تقرر أن يستولى كل طرف على الممتلكات المصرية ، القريبة من مملكته . فيأخذ فيليب ما تبقى لمصر ، فى جزر الكيكلاديس ، وممتلكاتها فى تراقيا والدردنيل ، أما أنطيوخس فإنه يأخذ إقليم جوف سوريا ، وما تبقى لمصر من ممتلكات فى آسيا الصغرى .

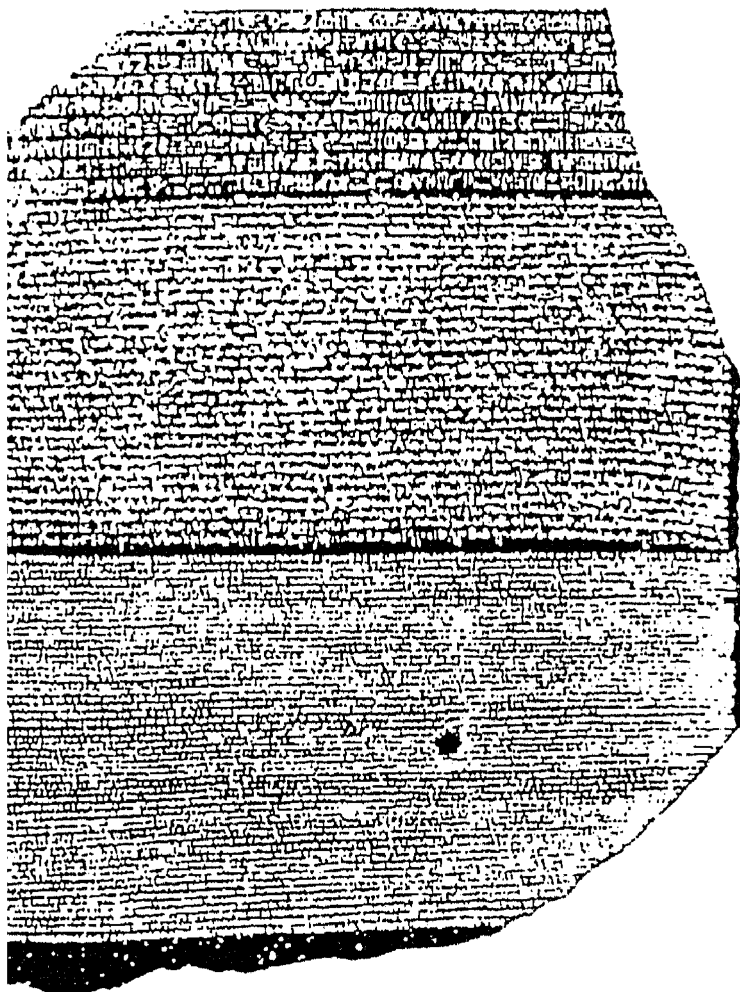
وفى داخل مصر ، ضاق السكندريون ذرعًا بممارسات أجاثوكليس ، ولم يغب عن بالهم ، الجريمة النكراء التى ارتكبها فى حق الملكة أرسينوى الثالثة ، وسرى الإحساس بالسخط فى الجيش ، فأعلن تلبوليموس Telpolemos ، قائد حامية بيلوزيون التمرد ، وانضمت إليه حامية الإسكندرية ، وعم الاضطراب العاصمة ، وأحاطت الجماهير الغاضبة بالقصر الملكى ، واقتحم الثوار القصر ، وأخرجوا الملك الصغير ، وطالبوه بإنزال العقاب بالمفسدين ، فوافق صاغرًا على طلب الجماهير . وقامت الحشود الغاضبة بسحل أجاثوكليس وأسرته فى شوارع الإسكندرية ، ثم تلقفتهم الجماهير وقطعتهم إربًا . وتولى تلبوليموس الوصاية على الملك الصغير ، إلا أنه أثبت فشله فى هذه المهمة ، وجرى عزله وتعيين وصى آخر ، هو أرستومنيس Aristomenes .

هيأت الأحداث فى الإسكندرية ، الفرصة أمام فيليب الخامس وأنطيوخس الثالث ، لوضع اتفاقهما موضع التنفيذ . فتقدم أنطيوخس الثالث واجتاح جوف سوريا وفينيقيا . وعلى الرغم من تصدى الجيش البطلمى له ، إلا أنه تمكن من إنزال هزيمة قاسية بهذا الجيش ، عند بانيون Panion ، بالقرب من نهر الأردن ، فى عام ٢٠٠ ق.م(٢). وفقدت مصر هذا الإقليم إلى الأبد ، كما فقدت قبل ذلك ممتلكاتها فى آسيا الصغرى .

---

(1) Magie. D, The Agreement between Philip V and Antiochos III for Partition of the Egyptian Empire. J.H.S. 29. 1939. pp. 32 ff.

(2) Polyb. XVI. 18-19.; Grant. M, op. cit. p. 47 .



حجر رشيد

أما فيليب فإن لم يتوان عن تنفيذ ما يخصه فى الاتفاق ، فقام بالانقضاض على ما تبقى لمصر من ممتلكات ، فى جزر الكيكلاديس ، وعند مضيق البسفور . وفى منطقة تراقيا (شمال بحر إيجه) ويمكن القول بأن مصر قد فقدت ممتلكاتها الخارجية بحلول عام ٢٠٠ ق.م. ، ولم يعد فى حوزتها سوى قبرص وقورينى (١).

أدى نشاط فيليب الخامس فى بحر إيجه ، إلى الاصطدام بجزيرة رودس ، ومملكة برجامة ، مما دفع هاتين الدولتين إلى طلب حماية الرومان (٢)، وكانت روما من ناحيتها تراقب بكثير من الشك تحركات فيليب ، وتتطلع إلى الفرصة الى تمكنها من التدخل لوقف نشاطه . فتلقفت بحماس طلب رودس وبرجامة . ومن ناحية أخرى ، كانت روما تحرص أشد الحرص على المحافظة على توازن القوى ، فى شرق البحر المتوسط . فخشيت من أن يؤدى تعاظم قوة أنطيوخس وفيليب ، إلى تفكيرهما فى الاستيلاء على مصر ذاتها .

والحقيقة أن شخصية فيليب الخامس ، أعادت إلى الأذهان صورة الإسكندر الأكبر ، الذى انطلق أيضًا من مقدونيا ، وأقام إمبراطورية عظيمة فى الشرق . ولكن فيليب كان يرنو إلى الغرب ، ويتطلع إلى إقامة إمبراطورية مقدونية ، على غرار إمبراطورية الإسكندر . وكانت روما هى القوة التى كانت تقف حائلاً أمام تحقيق طموحاته . لذا فإنه وجد فى هانيبال الذى قام بغزو إيطاليا خير من يعاونه على إزاحة هذا الحائل .

خرجت روما منتصرة ، من الحرب البونية الثانية ، وأخذت تتطلع إلى ما يحدث فى شرق البحر المتوسط . وفى عام ٢٠٠ ق.م. أرسل مجلس الشيوخ الرومانى (السناتو) بعثة . كان هدفها الظاهر العمل على التوفيق بين بطلميوس الخامس ، وأنطيوخس الثالث ، أما هدفها الحقيقى فكان الوقوف على أحوال المنطقة ، والتأكد من وقوف أنطيوخس على الحياد ، فى حال وقوع الصدام بين روما وفيليب . وأخذ الرومان يعملون على تأليب المدن الإغريقية ضد فيليب ، ثم وجهوا إليه إنذاراً بالكف عن التدخل فى شئون المدن الإغريقية . إلا أن فيليب لم يأبه بهذا الإنذار وواصل سياسته ضد هذه المدن ، ولم يلبث الرومان أن وجهوا إلى فيليب إنذاراً أشد قسوة ، وطالبوه بدفع تعويضات لجزيرة رودس ، وعدم المساس بممتلكات مصر .

---

(1) Bowman. A.K., op. cit. p. 29 .

(2) Cary. M., op. cit. p. 151 ff.

وفي هذه المرة أيضًا ، رفض فيليب الإنذار الروماني ، وأبلغ البعثة الرومانية بأنه سيدافع عن نفسه بمساعدة الآلهة (١).

أدى رفض فيليب للإنذار الروماني ، إلى نشوب الحرب المقدونية الثانية ، واستطاعت روما أن تحرز نصراً باهراً على فيليب ، في موقعة كينوس كيفالاي Kynos Kepalae ، أي رؤوس الكلاب ، في عام ١٩٧ ق.م(٢). مما جعلها تحتل مكانًا ساميًا في العالم ، وأن تقلم أظافر فيليب ، وأتبعت ذلك بإعلان حرية المدن الإغريقية .

في أثناء حربها مع فيليب ، كانت روما على استعداد لأن تغمض عينيها عن نشاط أنطيوخس الثالث ضد مصر ، حتى يتلهى عن التدخل في هذه الحرب ، فمضى أنطيوخس في تحقيق مشروعاته ، وهو مطمئن البال ، فاستولى على جوف سوريا ، كما سلف الذكر ، واستغل إنهماك روما وفيليب في صراعهما ، فاستولى على الممتلكات البطلمية في آسيا الصغرى . وأخذت روما تراقب سلوك أنطيوخس الثالث بكثير من الريبة ، وظنت أنه يتقدم إلى آسيا الصغرى لتقديم العون إلى فيليب (٣). إلا أن أنطيوخس مضى إلي شوط بعيد ، في تحقيق أحلامه . فاستولى على بعض ممتلكات فيليب ، في تراقيا وبلاد اليونان . ومما هو جدير بالذكر ، أن الرومان منذ انتصارهم على فيليب ، كان يعتبرون بلاد اليونان ، منطقة خاضعة لنفوذهم ، ومن ثم فقد رأوا أن وصول أنطيوخس إلى هذا المدى ، يشكل تهديداً لمصالحهم ، وقد حاولوا إقناعه بالتخلى عما استولى عليه ، إلا أنه رفض ، بل أمعن في تحدى الرومان بتعاونه مع العناصر المناوئة لهم .

وعلى الرغم من حرص الرومان ، على إبقاء مصر خارج دائرة الصراع ، فإن الملك البطلمي خضع لتأثير الحزب المعادى للرومان داخل البلاط السكندرى ، فسعى إلى التقارب مع أنطيوخس الثالث . وجرت مفاوضات بين الطرفين في عام ١٩٥ ق.م. وكانت إحدى النتائج التى أسفر عنها هذا الاتفاق ، زواج بطلميوس الخامس من كليوباتره ابنة أنطيوخس . وتم الاحتفال بهذا الزواج في رفح (٤). ومن الغريب أن يتم اختيار رفح لكى تكون المكان الذى

---

(1) C.A.H. VIII. p. 165 .

(2) Preaux. C, op. cit. pp. 156 - 157 .

(3) Preaux. C, op. cit. p. 159 - 160 .

(4) Whiteborne. J, op. cit. p. 80 .

يشهد حفل الزواج ، وهى التى سبق لها أن شهدت من قبل هزيمة أنطيوخس الثالث على يد فيلوباتور فى عام ٢١٧ ق.م. ويذهب البعض إلى القول بأن المهر الذى قدمته العروس إلى زوجها ، كان إقليم جوف سوريا ، إلا أن هذا الرأى لايبدو مقبولاً فى ضوء ما نعرفه من استماتة أنطيوخس فى الاستيلاء على هذا الإقليم . ولكن أغلب الظن أن هدية كليوباتره إلى زوجها ، كانت دخل هذا الإقليم فقط . فقد ذكر المؤرخ جوزيفوس أن دخل بعض مناطق جوف سوريا ، كان يدفع مناصفة لكل من كليوباتره وزوجها (١).

ومما هو جدير بالذكر أنه كان لدى أنطيوخس ثلاث بنات ، وكان يخطط للاستفادة من هؤلاء الفتيات ، فى تحقيق مكاسب سياسية ، فى إطار صراعه المرتقب مع الرومان ، فتزوجت الأولى بطلميوس الخامس ، وتزوجت الثانية التى كانت تدعى أنطيوخيس Antiochis من أرياراثيس Ariarathes ، ملك كبادوكيا (فى آسيا الصغرى) ، أما الثالثة فقد أرسلها لتكون عروسًا ليومينيس الثانى Eumenes II ، ملك برجامة ، الذى رفض هذه الزيجة ، لأنه كان يتوقع نشوب الحرب بين روما وأنطيوخس . وانتصار الرومان فيها ، فلم يشأ توريط نفسه بالارتباط مع أنطيوخس .

لم تتحقق آمال الملك السلوقى ، فى دعم مكانته فى مصر ، فسرعان ما تغير الوصى على الملك البطلمى وحل محله آخر كان أكثر ميلاً للرومان ، وقد رأى الوصى الجديد أن اتباع سياسة موالية للرومان ، تعد أفضل وسيلة لاستعادة ممتلكات مصر الخارجية ، لذلك نفض بطلميوس الخامس يديه من المعاهدة التى سبق له أن أبرمها مع صهره ، وأرسل يعرض على الرومان المساعدة ، فى صد هجوم أنطيوخس على بلاد اليونان فى عام ١٩٢ ق.م(٢). ورفضت روما هذا العرض تعبيراً عن استيائها من قيام بطلميوس بتوقيع معاهدة من قبل مع أنطيوخس ، دون استشارتها . واستمرت على موقفها على الرغم من محاولات بطلميوس المتكررة لاسترضائها . وفى عام ١٨٩ ق.م. اشتبك الرومان مع أنطيوخس الثالث فى معركة ماجنيسيا Magnesia ، وأوقعوا به هزيمة منكرة ، حيث طرد من بلاد اليونان شر طردة ، وأصبحت هذه البلاد خاضعة للسيطرة الرومانية ، بالإضافة إلى آسيا الصغرى .

---

(1) Josephos. Ant. 12. 154 .

(2) Livy. 36. 4. 1- 4 .

بعد الانتصار فرض الرومان على أنطيوخس ، أن يوقع معهم صلح مهين ، وهو الذى يعرف بصلح أباميا Apamia (عام ١٨٨ ق.م.) . وتم حرمان أنطيوخس من ممتلكاته ، التى تقع شمال وغرب جبال طوروس(١) ، وأعلنت روما حرية المدن الإغريقية ، وقسمت ممتلكات أنطيوخس السابقة فى آسيا الصغرى ، بين حليفتيها رودس وبرجامة . أما مصر فقد أصرت روما على الاستمرار فى معاملتها بجفاء ، فلم تعد إليها ممتلكاتها السابقة .

أدى صلح أباميا إلى تغيير خريطة القوى السياسية فى العالم الهللينيستى ، وصارت لروما الكلمة العليا ، فى شئون شرق البحر المتوسط ، وضاعت الإمبراطورية البطلمية ، وأنكمشت ممتلكات مصر ، وهكذا نرى أنه فى عهد بطلميوس الخامس تكالبت القوى على مصر ، وراحت تنهش فى أوصالها ، دون أن تستطيع أن تحرك ساكنًا .

وعلى صعيد الأوضاع الداخلية فى مصر ، نلاحظ أن بطلميوس الخامس ، أخذ يعمل على اكتساب ود الكهنة المصريين ، وانعكس ذلك بجلاء فى نص القرار الذى أصدره الكهنة عقب اجتماعهم فى منف عام ١٩٦ ق.م. ، وعبروا عن شعورهم بالامتنان . وقد كتب هذا القرار باللغة المصرية ، بخطيها الهيروغليفى والديموطيقى ، ثم باللغة اليونانية . وعثر عليه مدونًا على حجر من البازلت الأسود ، فى أيام الحملة الفرنسية على مصر ، فى عام ١٧٩٩ ، بالقرب من مدينة رشيد ، لذا فإنه يعرف بحجر رشيد . وتمكن العالم الفرنسى شامليون من فك رموز الكتابة الهيروغليفية ، من خلال هذا النص ، وفتح آفاقًا واسعة لمعرفة الحضارة المصرية القديمة(٢) .

وفى صعيد مصر ، اندلعت فى مدينة طيبة ثورات عنيفة ، قام بها المصريون ضد الحكم البطلمى ، وتطلب إخماد هذه الثورات جهوداً جبارة من الدولة ، ووجد العرش البطلمى نفسه بين شقى الرحى . أطماع الرومان فى الخارج ، وثورات المصريين فى الداخل . وفى عام ١٨٠ ق.م. توفى بطلميوس الخامس إبيفانيس تاركًا ولدين وابنة واحدة ، من زوجته السورية كليوباترة الأولى ، وكان أكبر الأولاد يبلغ من العمر سبعة أعوام .

---

(1) Mac Donelad. A.H, The Treaty of Apamia (188 B.C.) J.H.S. 57. 1967. pp. 1-8 .

(٢) انظر ترجمة هذا النص : سليم حسن : مصر القديمة جـ ١٦ من عهد بطلميوس الخامس إلى نهاية بطلميوس السابع ص ٤٥ - ٧٣ .

بطلميوس السادس فيلوميتور ١٨٠ - ١٤٥ ق.م. :

تولى بطلميوس السادس العرش ، تحت وصاية أمه الملكة كليوباتره الأولى و، لذلك حمل لقب المحب لإمه " فيلوميتور " Philometor ، وقد ظلت العلاقات بين مصر وسوريا طيبة ، خلال وصاية الملكة كليوباترة ، ولكن بعد وفاة هذه الملكة آلت الوصاية على الملك الصغير ، إلى اثنين من عبيد القصر المعتقين ، هما يولايوس Eulaeus ولينايوس Lenaeus ، اللذان استأنفا سياسة العداء للدولة السلوقية ، أملاً فى استعادة جوف سوريا[١] . وعندما بلغ الملك الصغير سن الخامسة عشرة ، تم تتويجه فى منف فى عام ١٧٢ ق.م. وكان قد سبق له الزواج من شقيقته كليوباترة الثانية[٢] ؛ التى كانت أكبر منه سنا .

وفى سوريا كان يتربع على العرش أنطيوخس الرابع ، الذى انشغل بالصراع مع اليهود[٣] ، ورأى رجال البلاط فى الإسكندرية ، أن الفرصة سانحة أمامهم لاستعادة جوف سوريا ، وأخذوا فى إعداد الجيش لهذا الغرض ، وأصبحت الحرب السورية السادسة على الأبواب ، وبادر كل طرف بإرسال بعثة إلى روما ، لتبرير وجهة نظره ، وإلقاء اللوم على الطرف الآخر ولم تكن روما من جانبها حريصة على حل الخلاف بين الطرفين ، لأنها كانت تتأهب لخوض الحرب المقدونية الثالثة ، وكان يهمها أن تنشغل الأطراف الأخرى بمشاكلها ، حتى لا يفكر أحدها فى المشاركة فى الحرب .

فى عام ١٧٠ ق.م. ، زحف أنطيوخس الرابع ، فى اتجاه الحدود المصرية ، فألتقى بالجيش البطلمى وتمكن من هزيمته ، واستولى على بيلوزيون ، وتقدم نحو منف ، وتقول بعض الآراء أنه توج فى منف فرعونًا ، كما فعل الإسكندر الأكبر من قبل[٤]. ومن منف أرسل فى استدعاء الملك البطلمى ، وأرغمه على توقيع اتفاق يقبل فيه حماية أنطيوخس الرابع . ولما تناهت هذه الأنباء إلى السكندريين ثاروا ثورة عارمة على الوزيرين يولايوس ولينايوس ،

---

(1) C.A.H. VIII. p. 283 .

(2)Whieborne. J. op. cit. Cleopatra II. p. 89 .

(٣) عن صراع هذا الملك مع اليهود انظر :

Tcherikover. V, Hellenstic Civilization and the Jews. New York. 1979 pp. 175 ff .

(4) Bowman. A.K, op. cit. p. 31 .

وأعلنوا الشقيق الأصغر لفيلوميتور ملكًا على مصر ، وأخذوا يتأهبون للتصدى للملك أنطيوخس الرابع ، إذا ما تقدم صوب الإسكندرية .

عندما علم أنطيوخس الرابع بما جرى فى الإسكندرية ، قرر أن يتجه إلى هذه المدينة لإعادة فيلوميتور إلى العرش ، ورفض قبول وساطة بعض سفراء المدن الإغريقية ، الذين تصادف وجودهم فى مصر ، ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، فقد قام اليهود بثورة فى فلسطين، بقيادة ياسون [١]، مما اضطر أنطيوخس إلى العدول عن خطته والانسحاب من مصر والاتجاه إلى فلسطين . وبذلك أصبح فى مصر ملكان ، الأول هو بطلميوس فيلوميتور الذى كان فى منف ، والثانى شقيقه الأصغر الذى أقامه الشعب السكندرى . ولكن نجحت الجهود فى التوفيق بين الأخوين ، واتفقا على أن يشتركا فى الحكم سويًا بمشاركة شقيقتهما كليوباترة الثانية [٢]، بغرض تفويت الفرصة على أنطيوخس فى التدخل فى شئون مصر .

بعد أن فرغ أنطيوخس الرابع من قمع ثورة اليهود ، عاود غزو مصر فى عام ١٦٨ ق.م. متذرعًا بالرغبة فى المحافظة على حقوق فيلوميتور ، وقام بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، ثم تقدم نحو مصر ، وعلى الرغم من أنه تلقى من الأخوين فى مصر ما يفيد اتفاقهما ، وعدم وجود ما يدعو إلى تدخله فى شئون العرش البطلمى ، فإنه أصر على موقفه . وتقدم نحو الإسكندرية وحاصرها ، وحاول الأخوان التفاهم مع أنطيوخس بشتى الطرق ، إلا أنه عرض عليهما مطالب ، لم يكن فى وسعهما القبول بها . مما دفعهما إلى طلب التدخل من روما ، وفى واقع الأمر ، فإن روما لم تكن تنتظر دعوة للتدخل ، وكانت تراقب الموقف عن كثب ، ولم تكن على استعداد لترك الملك السلوقى يبتلع مصر ، وكانت قد خرجت منتصرة من الحرب المقدونية الثالثة .

قامت روما بإرسال بعثة إلى أنطيوخس ، برئاسة النبيل الرومانى بوبليوس لايناس Popilius Laenas [٣]، وحملته رسالة من السناتو الرومانى إلى الملك السلوقى ، يطلب منه

(1) Roth. C, A Short History of the Jewish People. London. 1953. p. 68 .

(2)Whieborne. J. op. cit. Cleopatra II. p. 89 .

(3) Preaux. C, op. cit. p. 169 .

الجلاء عن مصر فوراً ، إذا أراد المحافظة على صداقة الشعب الرومانى ، وفى حالة رفضه لهذا الطلب ، فإنه يصبح فى نظر الرومان عدواً ، مما يستوجب شن الحرب عليه . وقد جرت أحداث المقابلة المثيرة بين السفير الرومانى والملك السلوقى ، بالقرب من الإسكندرية ، فعندما سلم بوبليوس الرسالة إلى أنطيوخس ، طلب الملك من السفير الرومانى إمهاله لبعض الوقت للتشاور . ولكن بوبليوس باغته بتصرف فى غاية الجرأة ، إذ رسم بعصاه دائرة فى الأرض حول أنطيوخس ، وطلب منه ألا يخرج من هذه الدائرة قبل أن يعطيه رداً على الرسالة . وقد أخذ الملك السلوقى . بجرأة السفير الرومانى ، إلا أنه لم يكن أمامه سوى الرضوخ ، فمد يده مصافحًا بوبيليوس ، إعلانًا عن رغبته فى أن يظل صديقًا للرومان ، وغادر مصر عائداً إلى بلاده [١].

وصف أحد المؤرخين ما أقدم عليه السفير الرومانى بأنه دبلوماسية الغطرسة[٢] . وعلى أية حال ، فإذا كانت دائرة بوبليوس قد أنقذت مصر ، من الاحتلال السلوقى ، إلا أنها أوقعتها فى براثن التسلط الرومانى ، ومن الآن فصاعداً أخذ الرومان يدسون أنفهم فى كل كبيرة وصغيرة من شئون مصر ، وقد أدى التدخل الرومانى إلى إثارة شعب الإسكندرية . فقامت ثورة تزعمها أحد رجال القصر ويدعى بتوسرابيس Petoscrapis ، وطالب بطرد فيلوميتور ، وانفراد شقيقه بالعرش ، وامتد لهيب الثورة إلى الوجه القبلى ، مما اضطر فيلوميتور إلى التوجه بقواته إلى الجنوب لقمع الاضطرابات . ولما عاد إلى الإسكندرية وجد أن شقيقه دبر مؤامرة لإبعاده عن العرش ، والانفراد بالسلطة ، فهرب إلى روما ، لكى يناشد الرومان مساعدته فى استرداد حقوقه .

قرر السناتو الرومانى التدخل فى الخلاف على العرش البطلمى ، واقترح تقسيم المملكة بين الأخوين ، وأن يستمر فيلوميتور ملكًا على مصر وقبرص ، على أن يمنح الشقيق الأصغر ولاية برقة (قورينى) . لكى تكون مملكة خاصة به . ولم يدخر الأخوان وسعا لإثبات ولائهما للرومان ، ولا أدل على ذلك من تلك الوصية التى تركها بطلميوس الصغير ملك برقة ، والتى أوصى فيها بأن تؤول مملكته للرومان ، فى حالة وفاته دون وريث . وفى عام ١٥٣ - ١٥٢ ق.م. أشرك فيلوميتور ابنه الأكبر الذى يدعى يوباتور Eupator معه فى الحكم ، إلا أن هذا الابن توفى بعد فترة وجيزة .

---

(1) Polyb: XXIX. 27, 1. 2 .

(2) Rostovtzeff. M., op. cit. p. 737 .

وربما يسأل سائل ، لماذا لم ينتهز أنطيوخس الرابع فرصة الخلافات داخل مصر ، ويقدم على غزوها مرة أخرى ، والحقيقة أن أنطيوخس كان غارقًا حتى أذنيه فى مشاكله الداخلية ، وبخاصة صراعه مع اليهود ، بالإضافة إلى خوفه من الرومان . وبعد وفاة أنطيوخس الرابع حلت الفوضى بالعرش السلوقى ، وتدخل بطلميوس السادس فى الصراع على العرش السلوقى، ونجح فى إقامة أحد الأمراء السلوقيين ويدعى الإسكندر بالاس Pallas فى عام ١٤٥ ق.م. على عرش سوريا . وكان يحلم باستعادة إقليم جوف سوريا[١] ، إلا أن سهمًا أطاح بحياته وأحلامه معًا ، فقتل فى ميدان القتال ، فى عام ١٤٥ ق.م.

وكان فيلوميتور قد أشرك معه فى الحكم ابنه الثانى ، وكان مايزال طفلاً . وبعد وفاة والده تولى العرش تحت اسم نيوس فيلوباتور Neos Philopator ، وتولت الوصاية عليه أمه الملكة كليوباترة الثانية . وكان الأمل فى استمرار هذا الملك الطفل على العرش ضعيفًا ، فى ظل وجود عمه ملك برقة . الذى كان يحظى بتأييد السكندريين ، إضافة إلى دعم الرومان له ومما هو جدير بالذكر أن الرومان صارت لهم السيطرة الكاملة على سياسات العالم آنذاك . فبعد وفاة فيليب الخامس ملك مقدونيا ، أراد إبنه برسيوس Perseus [٢] الانتقام من الرومان ، إلا أنهم هزموه فى موقعة بودنا Pydna عام ١٦٨ ق.م. وقاموا بتقسيم مقدونيا إلى أربع جمهوريات ، تتمتع كل منها الاستقلال الذاتى ، ولكنهم اضطروا فى عام ١٤٧ ق.م. ، إلى إلغاء هذا الوضع وتحويل مقدونيا إلى ولاية رومانية .

بطلميوس الثامن يورجيتيس الثانى (١٤٤ - ١١٦ ق.م.) :

عندما علم ملك برقة بوفاة شقيقه الأكبر بطلميوس فيلوميتور ، زحف على الإسكندرية لكى يستولى على العرش ، ويعزل كليوباترة الثانية وابنها . وكادت البلاد أن تشهد حربًا أهلية ، لولا تدخل الرومان . الذين بادروا بالتدخل من أجل مساعدة صديقهم . وقضوا بأحقيته فى العرش ، على أن يتزوج من شقيقته كليوباترة الثانية ، أرملة شقيقه . وتولى العرش تحت اسم يورجيتيس ، وهو ذات اللقب الذى حمله بطلميوس الثالث . ولكن شتان ما بين الاثنين . فقد كان هذا الأخير صورة مجسدة للشر[٣] ، وبدأ عهده بانتزاع الطفل الصغير

---

(1) Diod. 29. 29 .

(2) C. A. H. VIII p. pp. 267 ff.

(3) Diod. XXXIII. 6 .

نينوس فيلوباتور من أحضان أمه ، وأمر بإعدامه ويلغ به الاستهتار أنه تزوج من ابنة أخيه كليوباترة الثالثة فى عام ١٤٢ ق.م. على الرغم من أنه كان زوجًا لأمها . مما أثار حنق كليوباترة الثانية . فثارت عليه واستطاعت أن تكتسب عطف الكثيرين . فاندلعت الثورة فى كافة أرجاء البلاد . واضطر بطلميوس الثامن إلى الهرب ، ولم يتمكن من إلى العودة إلا بمساعدة الرومان[١] ، ويمكننا أن نلاحظ أن هذه المرحلة تمثل بداية لعهد جديد من التدخل الرومانى فى شئون مصر .

عندما عاد بطلميوس الثامن مؤيداً بالدعم الرومانى ، خاض حربًا ضد شقيقته كليوباترة الثانية : مما اضطرها إلى الهرب إلى أنطاكية ، عاصمة الدولة السلوقية ، ولكنها عادت إلى مصر مرة أخرى ، وتم التصالح بينها وبين بطلميوس الثامن ، وفى محاولة لإعادة الأحوال فى البلاد إلى سيرها الطبيعى ، صدر قرار باسم الملك بطلميوس الثامن وكليوباترة الثانية وكليوباترة الثالثة ، فى عام ١١٨ ق.م. ، والذى يعرف بقرار العفو . وحملته لنا ورقة بردية ، تعد من أهم النصوص البردية من عصر البطالمة [٢].

وفى عام ١١٦ ق.م. توفى بطلميوس الثامن يورجيتيس الثانى ، أما كليوباترة الثانية فقد اختفى ذكرها ، وربما تكون قد لقيت حتفها ، بشكل غير طبيعى [٣]. وانفردت كليوباترة الثالثة بشئون البلاد ، لأن بطلميوس الثامن لم يحدد واحداً من ابنية فى خلافة العرش ، وإنما ترك لكليوباترة الثالثة ، مهمة اختيار الأصلح من بين الاثنين ، لتولى العرش . وارتكب بذلك خطأ جسيمًا سوف يؤدى بالبلاد إلى متاعب لا حصر لها ، ولا ينبغى أن يغرب عن بالنا ، من بين أخطاء هذا الرجل ، تلك الوصية الغريبة التى كتبها عندما كان مايزال ملكًا على برقة ، والتى أوصى فيها بأن تؤول مملكته إلى الشعب الرومانى ، فى حالة وفاته دون وريث [٤]. وعلى الرغم من أن هذه الوصية لم يتم تنفيذها آنذاك ، لأن العرش آل إلى أحد أبنائه غير الشرعيين ، ويدعى بطلميوس أبيون Apion ، إلا أن هذا الأخير كرر وصيته أبيه ، وتم تنفيذ الوصية بعد ذلك ، وأصبحت برقة ولاية رومانية .

---

(1) Rostovtzeff. M, op. cit. p. 871 .

(2) P. Tebt. 5 .

(٣) ابراهيم نصحى.: المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٤٧ .

(٤) حمل هذه الوصية نقش عثر عليه فى بلدة قورينى انظر : S.E.G. IX. No.7 .

بطلميوس التاسع « سوتير الثانى » ، بطلميوس العاشر « الإسكندر الأول » :

بعد وفاة بطلميوس الثامن ، تولى العرش ابنه بطلميوس التاسع ، وحمل لقب سوتير الثانى لاثوروس Lothoros ، وكان قد سبق له الزواج عن شقيقته كليوباترة الرابعة ، إلا أنه طلقها وتزوج من شقيقته الأخرى كليوباترة الخامسة ، التى كانت تعرف بكليوباترة القمر Selene(١) . مما أثار كليوباترة الرابعة وجعلها تغادر مصر إلى سوريا ، حيث توفيت هناك . ولم تكن كليوباترة الثالثة راضية عن سلوك ابنها ، فحرضت عليه شعب الإسكندرية ، مما اضطره إلى الفرار إلى قبرص ، وقامت باستدعاء شقيقه الأصغر الذى ارتقى العرش تحت اسم بطلميوس العاشر الإسكندر الأول ، بالاشتراك مع والدته . ولكن بعد وفاة الأم فى عام ١٠١ ق.م. انفرد بالعرش . وتشكك بعض الروايات فى أن يكون بطلميوس العاشر ، هو الذى دبر مقتل والدته (٢)، حتى ينفرد بالحكم ، وظل هذا الملك متربعًا على العرش ، حتى ثار عليه شعب الإسكندرية فى عام ٨٨ ق.م. فاضطر إلى الفرار إلى قبرص ، حيث لقى حتفه .

بعد فرار بطلميوس العاشر الإسكندر الأول ، استدعى السكندريون شقيقه ، بطلميوس التاسع سوتير الثانى ، لتولى العرش مرة أخرى ، وبعد عودته تزوج من شقيقته برنيكى الثالثة ، على أمل أن ينجب منها وريثًا للعرش ، إلا أن هذه الرغبة لم تتحقق ، وتوفى الملك فى عام ٨١ ق.م. وتولت زوجته الحكم بمفردها . ومما هو جدير بالذكر أن عهد سوتير الثانى يتسم بازدياد النفوذ الرومانى فى مصر . فقد راحت الوفود الرومانية تتقاطر على البلاد ، وكان الهدف الحقيقى لهذه الزيارات هو الوقوف على أحوال مصر ، ومعرفة ثرواتها (٣). وعلى الصعيد الداخلى ، شهدت البلاد حالة من التدهور والفوضى ، فقد تجددت ثورات المصريين فى عام ٨٨ ق.م. ، واستمرت حتى عام ٨٦ ق.م. على الرغم من محاولات الملك البطلمى التودد إلى المصريين ، عن طريق بناء المعابد . والتقرب إلى الكهنة .

---

(١) سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(2) Rostovtzeff. M, op. cit. p. 876 .

(٢) تحدثت إحدى البرديات التى تم العثور عليها فى منطقة الفيوم ، عن الترتيبات التى كانت تعد فى ذلك الموقف لاستقبال أحد أعضاء مجلس السناتو الرومانى ، الذى كان يقوم بزيارة مصر : P.Tebt.33

بطلميوس الحادى عشر « الإسكندر الثانى » :

بعد وفاة سوتير الثانى ، وانفراد برنيكى بالحكم ، أصبح من الضرورى البحث عن زوج لها. وأسفر البحث عن العثور على ابن للإسكندر الأول (بطلميوس العاشر) ، كان قد أنجبه من إحدى عشيقاته ، ويعيش فى روما ، فتحمس الرومان لتوليه العرش البطلمى ، حتى يصبح عميلاً لهم . وسارعوا بإرساله إلى الإسكندرية ، حيث تزوج الملكة برنيكى الثالثة . وتولى العرش حاملاً لقب الإسكندر الثانى . غير أن هذا الملك سرعان ما تنكر لزوجته وقتلها ، وكانت هذه الملكة تتمتع بحب شعب الإسكندرية ، مما دفع الجماهير الغاضبة إلى الفتك بالملك القاتل فى عام ٨٠ ق.م. الذى دام حكمه لمدة عشرين يومًا فقط (١). وهكذا اختفى آخر شخص من سلالة البطالمة الشرعيين .

دولة البطالمة فى مرحلة الاحتضار (٢)

كانت المشكلة التى واجهت رجال البلاط فى الإسكندرية ، هى البحث عن شخص من سلالة البطالمة لكى يتولى العرش ، وقد وجدوا ضالتهم المنشودة ، فى ولدين غير شرعيين لبطلميوس التاسع سوتير الثانى . كانا يعيشان خارج مصر ، فتم استدعاؤهما على الفور ، من أجل تفويت الفرصة على الرومان للتدخل فى مسألة شغل العرش البطلمى ، وحينما وصل هذان الابنان إلى مصر تقرر تعيين الأصغر ملكًا على قبرص ، أما الأكبر فقد تقرر أن يتولى عرش مصر فى عام ٨٠ ق.م.

بطلميوس الثانى عشر « نيوس ديونيسوس ٨٠ - ٥١ ق.م :

تولى بطلميوس الثانى عشر العرش ، واتخذ لقب دينيسوس الجديد Neos Dionysos ، إلا أن أهل الإسكندرية أطلقوا عليه لقب الزمار Auletes ، لأنه يهوى العزف على المزمار ، وتزوج من شقيقته كليوباترة السادسة . إلا أن الرومان رفضوا الاعتراف به ملكًا على مصر ، وأشاعوا بأن بطلميوس الحادى عشر ، أوصى بأن تؤول مملكته للشعب الرومانى . ولما كان بطلميوس الزمار ملكًا ضعيفًا فقد سعى إلى الحصول على اعتراف الرومان ، بأى ثمن .

---

(١) يمكن للقارىء معرفة سنوات حكم البطالمة بدقة من خلال القائمة التى أعدها بومان فى نهاية كتابه الذى رجعنا إليه فى مواضع كثيرة من الصفحات الماضية ، انظر :

Bowman. A.K, op. cit. pp. 235-6

(٢) عن هذه المرحلة من تاريخ مصر ، وخطوات التغلغل الرومانى فى مصر . انظر : عبد اللطيف أحمد على . مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية - مقدمات الفتح الرومانى ، ص ١-٢٠ .

وفى روما كان الصراع الحزبى على أشده ، وانقسمت الساحة السياسية ، بين حزبين كبيرين، هما الحزب الجمهورى ، والحزب الديمقراطى ، وفى عام ٦٧ ق.م تقرر منح بومبى Pompius، زعيم الحزب الجمهورى ، سلطات استثنائية ، للقيام ببعض التسويات فى الشرق، وتمكن هذا القائد من إحراز الكثير من الانتصارات ، مما رفع اسهمه فى روما ، وكانت سوريا من الساحات التى تمكن بومبى من تحقيق المكاسب فيها ، وكانت الدولة السلوقية قد سقطت فى بؤرة الصراعات على العرش ، وتردت إلى حالة من الفوضى ، حتى تمكن بومبى من تحويل سوريا إلى ولاية رومانية فى عام ٦٤ ق.م. وهكذا سقطت الدولة السلوقية إلى الأبد . وأراد خصوم بومبى فى روما القيام بأعمال تكسبهم تأييد الجماهير ، فى مواجهة المكانة التى تمتع بها بومبى ، فتقدم كراسوس Crassos ، أحد زعماء الحزب الديمقراطى ، بمشروع لضم مصر إلى ممتلكات الدولة الرومانية ، واختار كراسوس شابًا ينتمى إلى إحدى العائلات النبيلة ، يدعى يوليوس قيصر Julius Caesar ، للقيام بهذه المهمة [١]. إلا أن هذا المشروع لم يقدر له النجاح . بسبب معارضة الحزب الجمهورى .

ولم تكن معارضة الحزب الجمهورى لمشروع ضم مصر ، نابعة من الحرص على استقلالها ، بل لشعور رجال هذا الحزب بأن نجاح هذا المشروع ، من شأنه أن يؤدى إلى تعزيز مكانة الحزب الديمقراطى فى روما . وألقى الخطيب الرومانى المشهور شيشيرون ، خطبة فى مجلس السناتو، دافع فيها دفاعًا حاراً عن بطلميوس الزمار ، مما كان له أكبر الأثر فى إفشال مشروع ضم مصر.

وفى عام ٥٩ ق.م. بينما كان يوليوس قيصر يشغل منصب القنصل فى روما ، قدم له بطلميوس الزمار رشوة كبيرة ، وعقد معه اتفاقًا يتضمن موافقة الرومان على الاعتراف ببطلميوس الزمار ملكًا على مصر ، وصديقًا للشعب الرومانى . دون أن يتضمن القرار إشارة إلى قبرص . وفى العام التالى (٥٨ ق.م.) أعلنت روما رسميًا ضم جزيرة قبرص إلى ممتلكاتها ، مما أدى إلى انتحار ملك قبرص ، وهو شقيق بطلميوس الزمار فى نفس الوقت ، ولم يتبس بطلميوس الزمار بكلمة واحدة ضد ما فعله الرمان ، مما أدى إلى ثورة شعب الإسكندرية عليه ، وطرده من المدينة [٢].

---

(1) Cary. H.H, op. cit. p. 245 .

(2) C.A.H. IX. p. 531 .

بعد طرده من مصر ، يمم الزمار وجهه شطر روما ، لكى يطلب من الرومان إعادته إلى العرش . وراح يمنى القادة الرومان بمكافآت سخية ، إذا عاد إلى العرش ، وكان ينزل فى ضيافة بومبى زعيم الحزب الجمهورى ، وكان هذا الأخير يتطلع إلى القيام بمهمة إعادة بطلميوس الزمار . إلا أن السناتو فى عام ٥٧ ق.م. أسند إلى قنصل ذلك العام القيام بهذه المهمة . وأعقب ذلك وقوع حادث كان ينظر إليه على أنه نذير شؤم لدى الرومان ، وهو نزول صاعقة على تمثال الإله جوبيتر ، كبير الآلهة عند الرومان ، وحين طلب السناتو من العرافين تفسير هذا الحدث ، أفادوا بأنه لا ينبغى استخدام القوة لإعادة الزمار إلى العرش . لذا تقرر تشكيل بعثة للذهاب إلى الإسكندرية ، لإعادة الملك المخلوع بالطرق الدبلوماسية . واحتدم الخلاف مرة أخرى ، حول الشخصية التى ينبغى إسناد رئاسة البعثة إليها . ولما ضاق بطلميوس الزمار ذرعًا ، من طول الانتظار ، قرر أن يلجأ إلى والى سوريا ، التى أصبحت ولاية رومانية ، كما سلف القول ، وكان هذا الوالى من أتباع بومبى ، ووعده بمكافأة كبيرة ، إذا أعاده إلى العرش .

فى عام ٥٥ ق.م. اندفع جابينيوس Gabinius ، والى سوريا الرومانى ، فى اتجاه الحدود المصرية . بعد أن حصل على الضوء الأخضر من بومبى[١] ، ولم يعبأ بالحصول على إذن السناتو فى روما . وقد ارتكب هذا الوالى خطأين ، مما يستوجب محاسبته ، أولهما هو شن الحرب بدون استئذان السناتو ، وثانيهما الإقدام على عمل سبق للسناتو أن حذر من القيام به. وبرر جابينوس تصرفه بأنه كان فى حالة دفاع عن النفس ، لأن قوات الملكة التى أقامها السكندريون ، بعد طرد الزمار ، كانت تتحرش بالقوات الرومانية .

عندما وصلت القوات الرومانية ، إلى بلوزيون ، بوابة مصر الشرقية ، قامت الحامية اليهودية التى تتولى مهمة الدفاع عن بلوزيون ، بتسليم المدينة إليهم ، فأصبح الطريق مفتوحًا إلى الإسكندرية ، وتمكنت القوات الرومانية من دخول الإسكندرية . وكان من الممكن أن يقوم الرومان آنذاك ، بإعلان مصر ولاية رومانية ، ولكن الخلافات الحزبية فى روما ، هى التى حالت دون تنفيذ هذه الخطوة . وتمت إعادة بطلميوس الزمار إلى عرشه مرة أخرى[٢]، وعاد جابينيوس إلى سوريا ، بعد أن ترك حامية ، لكى تشد أزر بطلميوس الزمار .

---

(1) Bowman. A.K, op. cit. p. 33 .

(2) Rostovtzeff. M, op. cit. p. 876 .

تعد الفترة ما بين عامى ٥٥ - ٥١ ق.م. من أسوأ فترات تاريخ مصر فى عصر البطالمة . فقد أخذ بطلميوس فى ملاحقة خصومه ، والتنكيل بهم ، وقام بإعدام الكثيرين منهم ، وأولهم ابنته التى عينها السكندريون ملكة بعد طرده من مصر . وكانت الديون قد تراكمت على بطلميوس الزمار ، فأراد أن يطمئن دائنيه الرومان على أموالهم ، فقام بتعيين أحدهم ويدعى رابيروس Rabirius ، فى منصب وزير المالية [١]، وأطلق يده فى شئون البلاد ، مما أدى إلى ثورة السكندريون ، وهروب رابيروس من مصر ، وفى عام ٥١ ق.م. مات بطلميوس الزمار تاركًا ولدين وابنتين ، وكان قد أوصى بأن تتزوج كبرى بناته ، وتدعى كليوباترة السابعة ، من شقيقها بطلميوس الثالث عشر ، وأن يحكما سويًا ، وأن يتولى الرومان تنفيذ هذه الوصية .

كليوباترة السابعة ٥١ - ٣٠ ق.م:

تولت كليوباترة العرش وعمرها سبعة عشر عامًا[٢]، بينما كان عمر شقيقها وزوجها وشريكها فى العرش ، عشر سنوات ، وبعد ثلاث سنوات ضاقت كليوباترة ذرعًا من تسلط رجال البلاط ، وأرادت أن تمارس السلطة بشكل مستقل ، مما أدى إلى إثارة قلق رجال القصر . فأخذوا يحيكون الدسائس حولها ، متهمين إياها بالتآمر على حياة شقيقها ، لكى تنفرد بالحكم ، ونجحوا فى إثارة شعب الإسكندرية ضدها ، مما دفعها إلى الهرب من الإسكندرية ، خوفًا على حياتها ، وتوجهت إلى الحدود الشرقية ، لكى تجمع قوات تمكنها من العودة إلى العرش . وأقنع رجال البلاط ملكهم الصغير بطلميوس الثالث عشر ، بضرورة التصدى لكليوباترة ، فزحف بقواته شرقًا ، ورابط بالقرب من بلوزيون ، استعداداً للدخول فى معركة فاصلة مع شقيقته .

وإذا ما تركنا مصر ، وتوجهنا بأبصارنا إلى روما ، فإننا نجد أن المواجهة بين الحزب الجمهورى بقيادة بومبى ، والحزب الديمقراطى بقيادة يوليوس قيصر ، وصلت إلى ذروتها ، ووقعت بين الطرفين معركة فاصلة فى بلاد اليونان ، هى معركة فارسالوس Pharsalos فى عام ٤٨ ق.م[٣]. التى أحرز فيها قيصر نصراً باهراً على خصمه ، وفر بومبى إلى مصر لكى

---

(1) C.A.H. IX. p. 621 .

(٢) عن هذه الملكة بشكل عام انظر : زكى على : كليوباترة . سيرتها وحكم التاريخ عليها .

(3) Cary. H.H, op. cit. pp. 271 - 3 .

يطلب معاونة صديقه بطلميوس الزمار ، وحين علم بأمر الخلاف بين أبنائه ، توجه إلى الشرق ، لكى يلتمس ضيافة بطلميوس الثالث عشر . وعقد الأوصياء على الملك الصغير جلسة لبحث طلب بومبى . وأصبح مصير بومبى العظيم ، متوقعًا على ما يتخذه مجلس يضم بعض الخدم، على حد تعبير المؤرخ بلوتارك[١] .

يصف بلوتارك اللحظات الأخيرة من حياة بومبى بقدر كبير من التأثر ، فإن مجلس الأوصياء بعد مداولات كثيرة ، قرر التخلص من بومبى ، حتى لا يعطى ذريعة لقيصر ، لاحتلال مصر ، وأسند المجلس إلى أخيلاس قائد الجيش البطلمى ، مهمة قتل بومبى ، فتوجه أخيلاس فى قارب مصطحبًا معه ثلاثة آخرين ، لإحضار بومبى من سفينته التى كانت ترابط بعيداً عن الشاطىء ، وعندما اقترب القارب من السفينة ، حيا ركابه بومبى وطلبوا منه النزول، فاستجاب لهم وقبّل زوجته وابنه ، وراح يردد أبياتًا من الشعر للشاعر سوفوكليس ، يقول فيها إذا دخلت بيت طاغية ، أصبحت عبداً له ، وإن جئت إليه حراً . وعندما وصل القارب إلى الشاطىء ، هم بومبى بالنزول ، وأمسك بيد واحد من مرافقيه . وفى هذه اللحظة عاجله الباقون بطعناتهم من الخلف [٢]، ولم يفعل بومبى شيئًا ، بل جذب طرف عباءته ، وغطى به وجهه ، ومات فى جلال يليق بقائد عظيم مثله . وقام القتلة بعد ذلك بقطع رأسه ، وألقوا جثته عارية على الشاطىء . وتصادف مرور جندى رومانى بعد ذلك ، فقام بإحراق الجثمان حسب الطقوس الرومانية .

فى يوم ٢ أكتوبر من عام ٤٨ ق.م. وصل يوليوس قيصر ، إلى الإسكندرية ، فى أثر عدوه ، وسارع رجال البلاط السكندرى بعرض رأس بومبى وخاتمه على قيصر [٣]، ظنًا منهم أن هذا التصرف كفيل بإرضائه ، ولكن قيصر حزن ، واغرورقت عيناه بالدموع ، عندما رأى رأس بومبى .

أخذ يوليوس قيصر ، يسير فى شوارع الإسكندرية ، تحف به شارات السلطات التى كان يتمتع بها ، بوصفه دكتاتوراً فى روما ، وقد استفز هذا المشهد سكان الإسكندرية ، الذين

---

(1) Plut. Pomp. 77. 2 .

(٢) إبراهيم نصحى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠١ .

(3) C.A.H. IX. p. 669 .

فاض بهم الكيل ، من التدخل الرومانى فى شئون بلادهم ، وبدا لهم قيصر وكأنه يتصرف كفاتح منتصر ، وليس مجرد زائر للمدينة ، كما اعتقد السكندريون أن قيصر جاء يطالبهم بديون روما ، على بطلميوس الزمار ، مما يعنى فرض المزيد من الضرائب عليهم .

ومن ناحيته كان قيصر يردد أنه جاء إلى مصر ، لكى ينفذ وصية الزمار ، التى تقضى بوضع أبناء بطلميوس تحت وصاية الرومان [١]، وأرسل قيصر فى استدعاء كليوباترة وشقيقها ، وبينما استجاب بطلميوس الثالث عشر ، وحضر إلى الإسكندرية ، فإن كليوباترة خشيت على حياتها إذا حضرت جهاراً ، فاضطرت إلى الحضور متخفية ، بعد أن حملها أحد أعوانها فى داخل سجادة ، وطلب مقابلة قيصر ، وعندما انفرد به فتح السجادة ، فخرجت كليوباترة ، التى استطاعات أن تؤثر على قيصر من اللحظة الأولى ، وأقنعته بوجهة نظرها. وعندما حضر شقيقها إلى القصر فى اليوم التالى ، أحس بانحياز قيصر إلى كليوباترة، ثار ثورة عارمة لفتت أنظار الجماهير التى كانت تحيط بالقصر ، وأخذت الجموع تلتف حول القصر. مما أضطر قيصر إلى الخروج لتهدئتهم ، وقرأ عليهم وصية بطلميوس الزمار ، وفى محاولة منه لامتصاص ثورتهم ، وعدهم بإعادة قبرص إلى ممتلكات مصر .

عى الرغم من نجاح قيصر بعد ذلك فى التوفيق بين كليوباترة وشقيقها ، فإن الأوصياء على الملك الصغير ، ساءهم أن يتم هذا التصالح ، فأخذوا فى إثارة السكندريون ضد قيصر وجنوده ، وأصدروا الأوامر إلى الجيش الذى كان مرابطًا عند الحدود الشرقية فى بلوزيون ، بأن يزحف إلى الإسكندرية ، وتحرج موقف قيصر الذى حوصر فى الحى الملكى ، واضطر إلى إحراق سفنه الى كانت ترسو فى الميناء ، حتى لايستولى عليها أعداؤه ، مما تسبب فى إحراق مكتبة الإسكندرية العظيمة ، التى كانت تقع بالقرب من الميناء .

وهكذا بدأت تلك الحرب المعروفة بحرب الإسكندرية [٢]، وكاد قيصر أن يلقى الهزيمة ، لو لم تنقذه وصول الإمدادات من حلفائه فى الشرق . وقد انتهت هذه الحرب فى عام ٤٧ ق.م. بانتصار قيصر ، وموت بطلميوس الثالث عشر غريقًا . وحسم قيصر مسألة العرش البطلمى ، بأن أعلن كليوباترة ملكة على البلاد ، على أن تتزوج من شقيقها الصبى الصغير ، بطلميوس

---

(1) C.A.H. IX. p. 670 .

(٢) عن حرب الإسكندرية ، انظر : Cary. M, op. cit. pp. 273 - 5 .

الرابع عشر ، وقضى يوليوس قيصر الشتاء فى مصر ، مستمتعًا بصحبة كليوباترة ، وقاما معًا برحلة نيلية إلى صعيد مصر . ولما كانت الأحوال فى روما تتطلب عودة قيصر على وجه السرعة ، فإنه اضطر للرحيل تاركًا فى مصر ثلاث فرق لمساندة كليوباترة .

وفى صيف عام ٤٧ ق.م. أثمرت علاقة قيصر بكليوباترة ، حين أنجبت إبنًا أطلقت عليه بطلميوس قيصر ، إلا أن السكندريون سخروا من هذا الاسم وأطلقوا عليه قيصرون ، ومعناه قيصر الصغير ، وفى العام التالى أرسل قيصر إلى كليوباترة ، لكى تلحق به ، فذهبت إلى روما ومعها بطلميوس الرابع عشر وقيصرون ، ونزلت فى قصر يوليوس قيصر ، وحرصت على أن تحيط نفسها بمظاهر الأبهة الشرقية ، مما أثار امتعاض الرومان ، الذين نظروا إليها باعتبارها محظية لقيصر ، وليست زوجة له ، لأن زوجته كانت على قيد الحياة .

وقد أثارت الحفاوة التى قابل بها يوليوس قيصر كليوباترة ، ثائرة الرومان ، فراحوا ينسجون الأقاويل حول رغبة قيصر فى إقامة ملكية ، على الطراز الشرقى ، ونقل عاصمة الإمبراطورية إلى الإسكندرية بدلاً من روما(١) . والحقيقة أن تصرفات قيصر وبعض أتباعه ، أدت إلى تعزيز تلك الأقاويل . وكان الرومان يتأهبون للثأر من البارثيين (فى بلاد الفرس) ، الذين قهروا جيشًا رومانيًا ، وظهرت نبوءة مؤداها أن الرومان لن يهزموا البارثيين ، إلا إذا كانوا تحت قيادة ملك . لذا فقد تقدم أنصار قيصر باقتراح يقضى بمنح قيصر لقب ملك على الولايات ، حتى يتسنى له هزيمة البارثيين ، وتقرر عقد جلسة لمجلس السناتو لمناقشة هذا الاقتراح ، فى يوم ١٥ مارس عام ٤٤ ق.م. إلا أن أنصار النظام الجمهورى ، الذين نفذ صبرهم من تصرفات يوليوس قيصر ، الذى كان يرمى فى اعتقادهم إلى تقويض النظام الجمهورى ، قاموا باغتياله وهو يهم بدخول قاعة السناتو قبل الجلسة(٢).

تبخرت الآمال التى كانت تعقدها كليوباترة ، ووجدت نفسها وحيدة فى روما ، فلم يكن أمامها غير الفرار ، فعادت إلى مصر بعد الأحداث مباشرة ، فى أوائل شهر أبريل ، وبعد وصولها بفترة تخلصت من شقيقها بطلميوس الرابع عشر ، وأشركت معها فى الحكم ابنها قيصرون ، الذى ادعت أنها أنجبته من الإله آمون ، الذى تمثل لها فى شخص قيصر (٣).

---

(1) C.A.H. IX. p. 748 .

(2) Cary. M, op. cit. p. 281 .

(3) Bowman. A.K. op. cit. p. 35 .

وفى روما سادت الفوضى فى أعقاب مصرع قيصر ، وأصيب الناس بحالة من الوجوم ، إلا أن القنصل ماركوس أنطونيوس M. Antonius ، تمكن من الإمساك بزمام الموقف . وقرأ وصية قيصر على الملأ ، ولعل أهم ما ورد فى هذه الوثيقة ، إعلان قيصر أنه تبنى أوكتافيوس Octavius ، حفيد شقيقته يوليا ، وأنه منحه اسمه وثروته . وكان هذا الشاب الصغير فى اليونان عندما تم اغتيال قيصر ، وعلى الفور شد الرحال إلى روما ، وعندما وصل إلى روما ، قال إنه جاء إلى المدينة لكى ينتقم لقيصر ، لا لكى يرثه ، وتجمع حوله أنصار قيصر ، وأخذت الأصوات تتعالى بضرورة القصاص من القتلة ، وتحالف أنطونيوس مع أوكتافيانوس ، ومضيا فى تعقب القتلة ، وعلى رأسهم كاسيوس Casius وبروتس Brutus ، وفى عام ٤٢ ق.م. وضعت الحرب بين الطرفين أوزارها ، وتحقق النصر لرجال قيصر فى مركة فيليبى Philippi ، التى دارت رحاها ببلاد اليونان (١).

اقتسم كل من أنطونيوس وأكتافيوس العالم الرومانى ، فيما بينهما ، فتولى أنطونيوس الإشراف على الولايات الشرقية ، بينما كانت الولايات الغربية من نصيب أوكتافيوس ، أما إيطاليا فتم الاتفاق على أن تكون مشاعًا بين الاثنين . وعندما توجه أنطونيوس إلى الشرق ، أرسل إلى بعض القادة ، لكى يحضروا إليه لتوضيح موقفهم خلال الصراع بين قتلة قيصر وأنصاره ، ومنهم كليوباترة التى وقفت موقفًا متخاذلاً آنذاك ، فلم تمد يد المساعدة إلى رجال قيصر ، بل اكتفت بإرسال الفرق الرومانية ، التى كان قيصر قد تركها فى مصر . ويبدو أن تلك الملكة الذكية لم تشأ أن تزج بنفسها فى حرب ، لم يكن معروفًا من سيكون الرابح فيها . وذهبت كليوباترة إلى أنطونيوس ، فى موكب أسهبت المصادر فى الحديث عن فخامته(٢) ، ونجحت فى التأثير على أنطونيوس ، فقبل على الفور المبررات التى ساقتها أمامه . وغادرت أفيسوس عائدة إلى الإسكندرية ، بعد أن وجهت إلى القائد الرومانى دعوة لزيارة مصر ، وهى دعوة صادفت هوى فى نفس أنطونيوس .

ما أن فرغ أنطونيوس من تنظيم أحوال ولاية سوريا ، حتى بادر بالذهاب إلى الإسكندرية، لكى يقضى فيها شتاء عام ٤١ - ٤٠ ق.م. وحتى ذلك الحين ، ظلت علاقته طيبة مع أوكتافيانوس . ولكن فى أثناء غياب أنطونيوس فى الشرق ، تمكن أوكتافيانوس من كشف

---

(1) Cary. M, op. cit. pp. 288-90 .

(2) Plut. XXVI. 1-4 .

مؤامرة ضده ، من تدبير زوجة أنطونيوس وشقيقه . وسيطر الشك على أوكتافيانوس حول ضلوع أنطونيوس فى هذه المؤامرة ، مما أدى إلى تدهور العلاقة بين القائدين . وكادت الحرب أن تقع بينهما ، لولا المساعى التى بذلها أصدقاء الطرفين ، والتى كللت بالنجاح ، وبخاصة بعد وفاة زوجة أنطونيوس . وعقد الصلح بين الطرفين فى عام ٤٠ ق.م. وهو الذى يعرف بصلح برنديزى Brundisium ، ومن أجل تدعيم هذا الصلح ، تم زواج أنطونيوس من أكتافيا ، شقيقة أوكتافيانوس (١).

ولكن العلاقة ما لبثت أن تدهورت بين القائدين ، مرة أخرى ، بسبب شك كل منهما فى نوايا الآخر ، ومما زاد الطين بلة ، قيام أنطونيوس باستئناف علاقته بكليوباترة ، وإعلانه الزواج منها ، واعترافه بالتوأم الذى أنجبه منها كأبناء شرعيين له ، وقطع شوطًا أبعد فى تحديه لأكتافيانوس ، حين أعلن أن قيصرون هو الابن الشرعى ليوليوس قيصر . ومضى أنطونيوس فى ارتكاب المزيد من الحماقات ، ومنها على سبيل المثال أنه فى أعقاب النصر الذى أحرزه فى أرمينيا فى عام ٣٤ ق.م. ، خالف العرف الذى يقضى بإقامة مهرجان النصر فى روما ، واحتفل فى الإسكندرية ، وقام بتوزيع الولايات التى فتحها على كليوباترة وأبنائها ، واصفًا إياها بأنها الملكة أم الملوك ، كما أن إهماله لزوجته الوفية أوكتافيا ، كانت من العوامل التى أفقدته حب الرومان .

موقعة أكتيوم ونهاية دولة البطالمة :

أخذت دعاية أوكتافيانوس ، تنفث سمومها ضد أنطوينوس ، وتمكن أوكتافيانوس من الحصول على صورة من وصية لأنطونيوس ، تتضمن رغبته فى أن يدفن فى الإسكندرية بعد وفاته ، وكانت هذه الوصية هى ثالثة الأثافى . مما زاد من سخط الرومان على أنطونيوس ، واستعدادهم للحرب ضده ، لأنه فى نظرهم أصبح مجرد أداة طيعة فى يد امرأة أجنبية ، كانوا يرون فيها نموذجًا مجسداً للفجور (٢). وراح أوكتافيانوس يستعد للحرب ، وأخذت كليوباترة

---

(1) Cary. M, op. cit. p. 291 .

(٢) صور شعراء الرومان هذا الصراع . على أنه صراع بين الشرق والغرب إذ يقول الشاعر بروبرتيوس Propertius: المرأة المبتذلة حتى بين خدمها . التى طالبت زوجها الفاسق بأسوار روما نعم لقد اجترأت الملكة العاهرة . ملكة كانوب الدنسة ، على أن تواجه إلهنا جوبيتر بأنوبيس الذى ينبح كالكلب .

ترجمة هذه الأبيات عن عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

من ناحيتها تشجع أنطونيوس . وركز أوكتافيانوس دعايته على القول بأنه لا يحارب أنطونيوس ، المواطن الروماني ، ولكنه يحارب كليوباترة الملكة الأجنبية .

أعد الطرفان عدتهما للمعركة الفاصلة ، فوضع أنطونيوس قواته فى منطقة اكتيوم Actium ، على الشواطىء الغربية لبلاد اليونان ، ونصح رجال أنطونيوس قائدهم بإبعاد كليوباترة عن الظهور فى ميدان القتال ، وإرسالها إلى مصر ، غير أن كليوباترة كانت تخشى من نجاح أوكتافيا فى التوفيق بين أنطونيوس (زوجها) وشقيقها أوكتافيانوس ، لذلك فقد أصرت على البقاء[١] ، وقد أدى ظهور كليوباترة بهذا الشكل إلى تأكيد دعاية أوكتافيانوس، مما كان له أكبر الأثر فى خفض الروح المعنوية لدى جنود أنطونيوس ، وإلهاب مشاعر جنود أوكتافيانوس من ناحية أخرى . وفى خريف عام ٣١ ق.م. جرت أحداث موقعة أكتيوم ، حيث لقى أنطونيوس هزيمة ثقيلة ، أما كليوباترة فقد أخذت أسطولها وهربت من ميدان القتال ، فى اتجاه مصر ، وعلى الفور ترك أنطونيوس جنوده فى ميدان القتال ، وسار فى أثرها [٢].

يحاول المؤرخ بلوتارك إلقاء تبعة الهزيمة على كليوباترة ، لأنها هى التى أقنعت أنطونيوس بخوض معركة بحرية ، على الرغم من أنه كان متفوقًا فى البر [٣]. ويمعن هذا المؤرخ فى توجيه سهام الاتهام إلى كليوباترة ، فيقول إنها نظمت سفن الأسطول ، فى شكل يجعلها قادرة على الفرار فى أى لحظة [٤]. إلا أنه لايمكن قبول هذه الاتهامات على علاتها ، والقبول بمسئولية كليوباترة عن الهزيمة .

حسمت موقعة أكتيوم الموقف لصالح أوكتافيانوس ، وأصبح الطريق إلى الإسكندرية ممهداً أمامه ، فقسم قواته إلى قسمين ، جعل القسم الأول منها تحت قيادة كورنيليوس جاللوس Cornilius Gallus ، أما القسم الثانى فقد تولى قيادته بنفسه . وتقدم القسم الأول لدخول مصر من الغرب ، فاستولى على مدينة برايتونيون Paraetonion (مرسى مطروح الحالية) ، وفى الوقت ذاته تقدم أكتافيانوس من الشرق ، فاستولى على بلوزيون ، وتقدم صوب

---

(1) Plut. LVI. 1-5 .

(٢) لمعرفة تفاصيل هذه المعركة ، انظر ك إبراهيم نصحى ، المرجع السابق جـ ١ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٩ .

(3) Plut. LXIV. 1 - 2 .

(4) Plut. LXIII. 5 .

الإسكندرية ، وعندما اقترب من المدينة خاض معه أنطونيوس معركة يائسة ، هزم فيها ، وانفض الكثيرون من حوله ، وانضموا إلى خصمه ، وسيطر عليه إحساس باليأس ، فقرر الانتحار ، وبخاصة عندما تسرب إليه نبأ بأن كليوباترة قد انتحرت ، ولكن عندما تبين له كذب هذه الإشاعة وهو فى النزع الأخير ، طلب أن يحمل حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة بين يديها ، وتم تلبية رغبته .

دخل أوكتافيانوس الإسكندرية مكللاً بالنصر ، وحاولت كليوباترة أن تتفاوض معه ، وعرضت عليه أن تتنازل عن العرش لأبنائها ، إلا أنه راح يماطل فى قبول عرضها ، وكان قد وعد الرومان بأنه سوف يحضرها إلي روما ، لكى يسوقها فى موكب النصر ، وحينما أدركت كليوباترة ما يرمى إليه القائد الرومانى ، فضلت الانتحار على أن " تدخل فى ثياب الذل روما ، وتُعرض كالسبى على الرجال " .

وماتت بلدغة الحية المقدسة ، وبعد ذلك أمر أوكتافيانوس بقتل قيصرون ، الذى كان يرى فيه منافسًا خطيراً له ، أما أبناء كليوباترة من أنطونيوس ، فقد أخذهم معه إلى روما ، وأعطاهم إلى أوكتافيا ، لكى ترعاهم بصفتهم أبناء زوجها الراحل .

وهكذا سقطت دولة البطالمة إلى الأبد ، وتخلصت روما من هذا الكابوس ، الذى جثم على صدرها . والحقيقة أن كليوباترة تعد من أكثر الشخصيات إثارة للجدل ، فقد وصفها تارن Tarn ، وهو من أعظم الأساتذة المتخصصين فى العصر الهللينيستى ، بأنها أعظم خلفاء الإسكندر(١) ، وقد تأثر المؤرخون فى حكمهم على كليوباترة بالدعاية الرومانية ، التى راحت تلصق بها كل ما هو مشين ، ولكن كليوباترة كانت تتمتع بالذكاء وقوة الشخصية ، وكانت تتقن الكثير من اللغات ، حتى أنها لم تكن تحتاج إلى مترجمين ، وتعد الوحيدة من ملوك البطالمة التى تعلمت اللغة المصرية (٢)، وكانت على دراية بالكثير من العلوم ، ولم تكن قدرتها على التأثير على الرجال نابعة من جمال خارق ، بل أن مظهرها كان عاديًا ، ولكنها كانت تستمد قوتها من ذكائها ، وسعة معارفها . لقد استطاعت كليوباترة أن تنتزع كلمات الإعجاب حتى من ألد أعدائها ، فنجد الشاعر الرومانى هوارتيوس Horatius الذى هاجمها كثيراً يصف موتها بأنه كان موقفًا نبيلًا(٣) .

---

(1) C.A.H. X. p. 111 .

(2) Bowman. A.K., op. cit. p. 25 .

(3) Horatius. Odesi. 37.21-32 .

وقد ألهمت شخصية كليوباترة الكثيرين من الكتاب والشعراء ، على مر العصور ، فكتبوا عنهـا[١] ، واختلفت نظرتهم إلى هذه الملكة ، ولكن عندما تضعها فى ميزان التاريخ فإننا يجب أن ننصفها ، فقد تولت عرش مصر، وهى دولة ضعيفة ، تكالبت عليها القوى الخارجية، ومزقتها الصراعات الداخلية ، وحتى لو اختلفنا حول الوسائل التى اتبعتها للمحافظة على استقلال بلادها ، فقد كانت هى الوسيلة الوحيدة أمامها للوقوف أمام الغطرسة الرومانية، ويختم الأستاذ زكى على كتابه عن كليوباترة بالكلمات التالية " إنها ملكة قسا عليها الدهر، فأثخنها بالطعنات والجراح ، حتى خرت كليمة ، وهى أحوج ما تكون إلى كلمة عدل وإنصاف"[٢] . ويمكن القول فى خاتمة هذا الحديث ، أن عهد كليوباترة كان يمثل صحوة الموت لدولة البطالمة .

(١) انظر : أحمد عتمان . كليوباترة وأنطونيوس ، دراسة فى فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقى ، القاهرة ١٩٩٠ ، كما لا يغيب عن بالنا العمل العظيم الذى كتبه أمير الشعراء أحمد شوقى وهو المسرحية الشعرية " مصرع كليوباترة " والتى كتب فيها دفاعًا حارًا عن هذه الملكة .

(٢) زكى على : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

الفصل الثالث

حضارة مصر فى عصر البطالمة

الديانة :

تمثل العقيدة الدينية جانبًا مهمًا فى حياة الناس ، وتنعكس بشكل واضح ، على كافة مظاهر الحياة اليومية . ويمكن القول بأن المصريين عُرفوا منذ القدم بتمسكهم بعقائدهم . وقد أدرك البطالمة هذه الحقيقة ، وعلى الرغم من أصلهم الإغريقى ، ورغبتهم فى الظهور أمام العالم الإغريقى ، فى مظهر الحريصين على المحافظة على الحضارة الإغريقية ، فإن سياستهم الدينية بشكل عام ، اتسمت بروح التسامح . وأولوا الديانة المصرية اهتمامًا كبيراً ، فساروا على نهج الإسكندر ، الذى كان حريصًا على التأكيد على انتسابه للإله آمون ، وحرص على أن يتوج فى منف على نهج الفراعنة ، بل إنه حمل ثلاثة من ألقاب الفراعنة[1] . ويبدو أن بطلميوس الأول حمل لقبين من تلك الألقاب ، أما بطلميوس الثانى ، فقد حمل الألقاب الفرعونية الخمسة كاملة ، وذهب إلى مدى أبعد فى التشبه بالفراعنة ، حينما تزوج شقيقته أرسينوى الثانية ، جريًا على عادة الفراعنة . وإذا كان البطالمة الثلاثة الأوائل ، لم تتم مراسم تتويجهم فى منف كفراعنة ، وهو أمر ربما كان مرده ، إلى اعتقادهم بأنه لا حاجة بهم إلى هذا الإجراء ، باعتبارهم خلفاء الإسكندر ، الذى توج فرعونًا فى منف . إلا أن بطلميوس الرابع حرص على أن يتم تتويجه فى منف ، على نهج الفراعنة ، ودرج البطالمة من بعده على أن يقوموا بهذا الطقس . ولا يفوتنا أن نتذكر أن كليوباترة السابعة كانت تحرص على التشبه بالربة إيزيس .

---

(١)الألقاب الثلاثة التى حملها الإسكندر هى : ١ - حورس ، ٢ - نسوت بيتى (أى ملك مصر العليا والسفلى) ، ٣ - سارع (أى ابن رع) . عن الآراء التى دارت حول تتويج الإسكندر راجع : إبراهيم نصحى: المرجع السابق جـ ٢ ، ص ١٤ .

قد حرص البطالمة على إظهار احترامهم للديانة المصرية ، وكان الإسكندر الأكبر قد بادر بتقديم القرابين للآلهة المصرية ، فور دخوله إلى مصر (١). وحذا بطلميوس الأول حذوه ، فقدم القرابين للآلهة المصرية ، وقام بإعادة تماثيل الآلهة المصرية ، التى كان الفرس قد استولوا عليها ، أثناء احتلالهم لمصر . واهتم البطالمة جميعًا بإنشاء المعابد المصرية ، التى مايزال البعض منها شامخًا حتى يومنا هذا . مثل معبد الإله حورس فى إدفو ، ومعبد حورس وسبك فى كوم أمبو ، ومعبد إيزيس فى فيلة (٢). وهى معابد تقع جميعها فى صعيد مصر . ومنحوا تلك المعابد العطايا والأراضى .

وقد تمتع الكهنة المصريون بمكانة رفيعة فى البلاد ، وعلى الرغم من حرص البطالمة منذ البداية على إظهار احترامهم لهؤلاء الكهنة ، إلا أنهم كانوا يخشون من زيادة نفوذهم ، لذلك حرصوا على أن ينحصر دور رجال الدين فى ممارسة الشعائر . وأن يكونوا تحت رقابة رجال الملك ، فقامت الدولة بتعيين موظفين مدنيين لمراقبة النشاط الاقتصادى فى المعابد . ومن ناحيتهم ، حرص الكهنة على إظهار ولائهم للملوك ، فكانوا يعقدون اجتماعًا سنويًا ، يصدرون فى أعقابه مرسوم الولاء للملك . ومن أشهر تلك المراسيم ، قرار كانوب الذى أصدره الكهنة ، فى عهد الملك بطلميوس الثالث فى عام ٢٣٧ ق.م(٣)، وكذلك القرار الذى حفظه لنا حجر رشيد ، والذى أصدره الكهنة ، فى عهد الملك بطلميوس الخامس فى عام ١٩٧ ق.م.

وإذا كان البطالمة الأوائل ، قد تمكنوا من تحجيم دور الكهنة ، فإن الشطر الثانى من عصر البطالمة ، شهد حصول الكهنة على المزيد من المكاسب ، كنتيجة لضعف السلطة المركزية ، وحرص البطالمة الأواخر على إرضاء الكهنة . ويأتى ذلك فى إطار ازدياد أهمية المصريين ، بعد النصر الذى أحرزوه فى رفح عام ٢١٧ .ق.م. وانقسم الكهنة المصريون فى موقفهم إزاء البطالمة ، فبينما حافظ كهنة منف فى الشمال على علاقتهم الطيبة بالملوك ، نجد أن كهنة الإله آمون فى طيبة ، ناصبوهم العداء ، وراحوا يحرضون المصريين على الثورة ضدهم .

---

(١) إبراهيم نصحى ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .

(٢) بالإضافة إلى هذه المعابد الكبرى ، تشير الدلائل إلى أن بعض القرى الصغرى ، كانت تحتوى على عدد يثير الدهشة من المعابد الصغيرة ، للآلهة المتعددة ، فإن قرية كيركيوسيريس التى لم يكن يزيد عدد سكانها فى القرن الثانى ق.م. عن ١٥٠٠ نسمة . كان يوجد بها ١٣ معبداً صغيراً . انظر : P.Test. 88

(3) Bowman. A.K., op. cit. p. 169 .

يأتي الإغريق فى المرتبة الثانية ، بعد المصريين من حيث العدد ، وإذا كان المصريون يألفون نظام الحكم الفردى ، فإن الأمر يختلف مع الإغريق ، الذين ينتمى غالبيتهم إلى دويلات المدن، التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى ، وربما كان يسيطر على الحكم فى بعضها أنظمة ديمقراطية ، لذا فقد شعر بالبطالمة بالحاجة إلى إضفاء شرعية على حكمهم ، أمام رعاياهم من الإغريق [١]. فاستندوا إلى بعض المعتقدات فى التراث الإغريقى . وطبقًا لهذه المعتقدات ، فإن مؤسسى المدن كانوا يستحقون أن يرفعوا إلى مصاف الآلهة ، ولما كان الإسكندر ومن بعده بطلميوس الأول من مؤسسى المدن ، فإنهما استحقا هذه المرتبة [٢]. فقام بطلميوس الأول بتأليه الإسكندر ، أما خطوة تأليه بطلميوس الأول فقد جاءت من خارج مصر ، حين أعلنت رودس تأليه بطلميوس الأول عرفانًا بما قدمه لها من مساعدات ، وأطلقت عليه لقب الإله المنقذ Soter. وتلى ذلك إنشاء عبادة أسرة البطالمة ، وجاءت الخطوة الأولى على يد بطلميوس الثانى فى عام ٢٧١ - ٢٧٠ ق.م. حين قرر رفع والديه إلى مصاف الآلهة ، وربط عبادتهما بعبادة الإسكندر[٣]. وأصبح كل ملك يرتقى العرش يتمتع بهذه المكانة ، ويحمل لقبًا إلهيًا .

ومن ناحية أخرى جرى استخدام الفلسفة السياسية ، فى إضفاء الشرعية على حكم البطالمة، وتم التركيز على أفكار بعض الفلاسفة ، التى كانت ترى أن الحكم الملكى هو أفضل أنظمة الحكم ، وأكثرها استقرارًا .

أما عن موقف البطالمة من الديانة الإغريقية ، فقد اتسم أيضًا بروح التسامح . وكان الإغريق الذين وفدوا إلى مصر ، حريصين أشد الحرص على الحفاظ على مظاهر قوميتهم ، فأحضروا معهم عباداتهم ، وحرصوا على ممارسة شعائر العبادة كما ألفوها فى بلادهم الأصلية، ولما كان البطالمة بدورهم يعتزون بأصلهم الإغريقى ، فقد شجعوهم على هذا . فانتشرت المعابد الإغريقية فى شتى أرجاء البلاد [٤] . وحرص البطالمة على إقامة علاقات

---

(1) C.A.H. VII. pp. 112 - 4 .

(2) Bowman. A.K, op. cit. p. 170 .

(3) Rostovtzeff. op. cit., p. 268 .

(٤) تسجيل إحدى وثائق البردى من القرن الثانى ق.م. وجود عدد كبير من المعابد الإغريقية فى قرية كركيوسيريس على سبيل المثال انظر : P. Tebt. 39 .14 .

قوية مع مراكز العبادة فى بلاد اليونان ، مثل جزيرة ديلوس ، وكذلك دلفى مقر عبادة الإله أبوللو . وأقاموا المهرجانات الدينية ، التى تشبه تلك التى كانت تقام فى بلاد اليونان ، وكانوا يدعون إليها ممثلى المدن الإغريقية ، وخير مثال على هذه المهرجانات ، عيد البطوليمايا Ptolemaea الذى أقامه بطلميوس فيلادلفوس تكريمًا لوالده .

وقد تأثر إغريق مصر بالعبادات المصرية ، وأخذوا يشبهون الآلهة المصرية بآلهتهم ، فربطوا بين الإله آمون والإله زيوس Zeus كبير الآلهة فى الديانة الإغريقية ، وكذلك ربطوا ما بين الإله حورس والإله أبوللو ، والربة حتحور المصرية بالربة أفروديت ربة الجمال فى ديانتهم(٣). إلا أن الإغريق بشكل عام كانوا ينفرون من عبادة الحيوانات التى كان المصريون يمارسونها .

إلى جانب المصريين والإغريق ، عاش فى مصر العديد من العناصر الأجنبية ، لعل أبرزهم اليهود (٤)، الذين ازداد عددهم بعد قيام بطلميوس الأول بضم فلسطين . فانتشروا فى سائر أرجاء البلاد ، وكانوا يشغلون حيًا بأكمله فى الإسكندرية ، وهو الحى الرابع . وقد سمح البطالمة لليهود بحرية ممارسة شعائرهم . بل إن بطلميوس الثانى أمر بترجمة كتب اليهود المقدسة إلى اللغة اليونانية ، وهى الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية Septuagint . ولم يتعرض اليهود للاضطهاد إلا فى حالات نادرة . فعلى سبيل المثال كان بطلميوس الرابع ، متحمسًا لعبادة إله الخمر ديونيسوس ، وأراد أن يفرضها على رعاياه ، ومنهم اليهود ، الذين رفضوا الانصياع إلى رغبته فاضطهدهم ، كما اتبع البطالمة سياسة التسامح الدينى مع العناصر الأخرى ، مثل الفرس والسوريين والعرب .

وقد أدرك بطلميوس الأول أهمية تحقيق الوئام ، بين أهم عنصرين فى البلاد ، أى المصريين والإغريق ، ولما كانت الديانة هى البوابة التى لابد منها من أجل تحقيق هذه الغرض ، فقد أمر بتشكيل لجنة لبحث هذا الأمر من رجال الدين المصريين والإغريق ، وضمت هذه اللجنة من بين أعضائها الكاهن المصرى مانيثون ، واستقر الرأى على إيجاد ديانة جديدة يتعبد لها الطرفان،

---

(1) Bowman. A.K., op. cit. p. 176 .

(٢) عن اليهود فى مصر ، انظر : مصطفى كمال عبد العليم . اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان . القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٧ - ١٢٦ .

يكون محورها ثالوث يتألف من سيرابيس Sarapis وإيزيس وحاربوكراتيس Harpocrates ، وليس هناك شك فى أن إيزيس وحاربوكراتيس كانا إلهين مصريين ، أما سيرابيس فهو من حيث اختصاصاته الإله المصرى أوزوريس ، ولكن تمثال سيرابيس الذى قدم للناس كان يتخذ هيئة إغريقية [١].

والحقيقة أن سيرابيس قدم للإغريق فى صورة إله إغريقى ، أما المصريون فقد نظروا إليه باعتبار إلههم القديم أوزيريس أبيس . واهتمت الدولة اهتمامًا كبيراً بالديانة الجديدة . وتم إنشاء معابد لهذا الإله ، عرفت باسم معابد السيرابيون Serapeum ، لعل من أشهرها المعبد الذى أقيم فى الإسكندرية . وانتشرت هذه الديانة فى منطاق كثيرة من العالم[٢] . ولكن على الرغم من هذا الانتشار فإنها فشلت فى تحقيق الهدف المنشود من وراء إقامتها ، وهو التقريب بين المصريين والإغريق . فقد ظل كل طرف يتعامل مع الديانة الجديدة باعتبارها امتداداً لديانته القديمة .

النظم الاقتصادية :

قامت النظم الاقتصادية والمالية على أسس شرقية ، مع إضفاء مسحة إغريقية لكى تتلائم مع الأهداف التى يرمى إليها حكام البلاد ، ولما كانت أهم الأهداف التى وضعها بطلميوس الأول أمام عينيه ، هى إقامة دولة قوية قادرة على أن تلعب دوراً مؤثراً ، فى سياسات العالم الهللينيستى ، فإن تنفيذ هذا الهدف تطلب إقامة جيش وأسطول قويين ، وهذا يستتبع بالضرورة إقامة اقتصاد راسخ .

وكان الأساس الذى استندت إليه هذه النظم هو اعتبار مصر ضيعة oikos خاصة للملك . وقد انطلق هذا المفهوم من اعتبار البطالمة أنفسهم فراعنة مصريين ، ومن ناحية أخرى فهم خلفاء الإسكندر ، الذى استولى على مصر بحد السيف ، كما تأكد هذا المفهوم بعد انتصار بطلميوس الأول على برديكاس فى عام ٣١٢ ق.م : وطبقًا لهذا المفهوم فإن الملك هو الذى

---

(١) عن هذه الديانة والمناقشات التى دارت حول أصل سيرابيس ، انظر الآراء الكثيرة التى دارت حول هذا الأمر : إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٧٧ - ١٩٩ .

(٢) وصلت عبادة الإله سيرابيس حتى بريطانيا فى عصر الرومان، انظر: بل . المرجع السابق ، ص ٥٥.

يملك أرض مصر وما عليها . ومن حقه أن يسخر جهود البشر فيما يراه صالحًا للبلاد . وكانت خزانة الدولة تسمى خزانة الملك BasilKon [١]، كما كان وزير المالية يسمى dioiketes ، وهو لقب يعنى القائم على شئون الضيعة ، ويصدق هذا القول على ممثل وزير المالية فى كل مديرية، وكان يسمى أويكونوموس Oikonomos [٢].

الزراعة :

اهتم البطالمة بالزراعة باعتبارها الركيزة الأولى للاقتصاد المصرى ، فوجهوا اهتمامًا كبيراً إلى إصلاح نظام الرى وشق القنوات وإقامة الجسور ، وشهد إقليم الفيوم على وجه الخصوص نشاطًا ملحوظًا فى تحسين شبكة الرى والصرف ، وجرى استصلاح مساحات شاسعة من الأرض، وإقامة قرى جديدة من أجل استيعاب الأعداد الكبيرة التى وفدت إلى البلاد من الإغريق . ومن أشهر تلك القرى قرية فيلادلفيا Philadelphia . كما تم إدخال الميكنة فى الزراعة والرى ، والعمل على تحسين الزراعة من خلال إدخال زراعات جديدة ، وشهدت الثروة الحيوانية أيضًا تطوراً ملحوظًا ، وتم استيراد سلالات جديدة لكى تتلاءم مع حاجات البلاد .

وفيما يتعلق باستغلال الأرض الزراعية ، فإننا نعرف من إحدى الوثائق التى يرجع تاريخها إلى عام ١١٨ ق.م.[٣] إنها كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، أولاهما يطلق عليه الأرض الملكية ge Basilike ، وهى الأراضى التى كان الملك يقوم باستثمارها بشكل مباشر ، فيقوم موظفو الإدارة المالية بعرضها فى مزاد علنى فى كل عام يتقدم إليها من يجد فى نفسه القدرة على زراعة الأرض ، ومن يرسو عليه المزاد ، يقوم بتوقيع عقد مع رجال الملك تحدد فيه بدقة التزاماته . وعلى الرغم من أن هؤلاء المزارعين كانوا من الرجال الأحرار ، فإنهم كانوا يخضعون لرقابة صارمة من رجال الملك . ولم يكونوا أحراراً فى الانتقال من مكان إلى آخر ،

---

(١) مشتقة من كلمة Basileus ومعناها ملك باليونانية .

(٢) يعد هذا الموظف عماد نظام الإدارة المالية ، فهو الذى يقوم بالإشراف على كافة مصادر الدخل الملكى، انظر : أبو اليسر فرح : مهام الأديكونوموس (عامل المالية) فى مصر فى عصر البطالمة ، دراسة وثائقية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٨٠ .

(3) P. Tebt. 5.

وبشكل خاص في موسم العمل[١] . ولم يكن مزارعوا الملك أحراراً في اختيار المحاصيل التى يزرعونها في الأرض المستأجرة ، بل كانت الدولة تلزمهم بزراعة محاصيل طبقًا للائحة محددة، ولا يجوز لمزارع حصاد المحصول قبل حضور موظفى الملك ، من أجل تقدير قيمة المحصول ، لضمان تحصيل مستحقات الدولة .

وقد تأثرت الأراضى الزراعية بالتدهور الذى لحق بكافة مرافق البلاد ، فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، فقد أدى إهمال وسائل الرى إلي انخفاض انتاجية الأرض ، وعزوف الأهالى عن التقدم لاستئجار أرض الملك ، فلجأت الإدارة إلى إجبار الأهالى على استئجار الأرض الزراعية ، وفرضت عليهم فى غالبية الأحيان شروطًا جائرة ، مما كان يدفعهم إلى التعبير عن الإحساس بالظلم ، وترك أراضيهم واللجوء إلى المعابد ، فيما يعرف بظاهرة الهروب Anachoresis ، وهى أشبه بنظام الإضراب فى عصرنا الحالى [٢].

أما القسم الثانى من الأراضى الزراعية فهو ذلك القسم الذى يطلق عليه أرض العطاء أو أرض السماح ge en aphesie ، وهو الذى يشمل الأرض التى يسمح الملك للآخرين بأن يقوموا بزراعتها نظير شروط محددة ، وينقسم هذا النوع بدوره إلى خمسة أقسام هى : ١-الأرض المقدسة ، ٢ - أرض الإقطاعات العسكرية ، ٣ - أرض الهبات ، ٤ - أرض المدن، ٥ - أرض الامتلاك الخاص .

١ - الأرض المقدسة ge iera :

وهى الأرض التى كان الملوك يمنحونها للمعابد [٣]. وهو تقليد درج عليه ملوك مصر منذ العصور القديمة . والأرض المقدسة نوعان ، الأول منها مخصص للكهنة لكى يقوموا بزراعتها،

---

(١) أخذت الإدارة البطلمية والإدارة الرومانية فيما يعد بنظام الموطن idia ، وهو نظام يقضى بأن يكون لكل شخص موطن محدد لايجوز له مبارحته إلا بعد الحصول على إذن من رجال الإدارة فى موطنه . عن هذا النظام راجع: أبو اليسر فرح : الدولة والفرد فى مصر فى عصر الرومان ، القاهرة ١٩٩٤ ، ص ٤١ - ٥٢ .

(٢) عن هذه الظاهرة راجع : أبو اليسر فرح ، المرجع السابق « الفصل الأول : عن ظاهرة الهروب فى عصر البطالمة » ، ص ٥٣ - ٧٧ .

(3) Rostovtzeff. M., op. cit. p. 280 .

ويكون دخلها بمثابة راتب لهم . أما القسم الثانى فكان يخصص دخله للإنفاق على شئون العبادة ، وكانت المعابد تتمتع بثروة زراعية كبيرة ، لذا فقد حرصت الدولة على إبقاء ثروات المعابد تحت رقابتها(١). إلا أن الشطر الثانى من عصر البطالمة شهد ارتخاء قبضة الدولة على المعابد ، بسبب ضعف الملوك الذين حرصوا على استرضاء الكهنة .

٢ - أرض الإقطاعات العسكرية ge Klerouchia :

اعتمد البطالمة فى تكوين جيوشهم على الجنود المرتزقة من الإغريق ، وقاموا بإقطاعهم مساحات من الأرض يكون دخلها بمثابة راتب لهم (٢). وقد أرادت الدولة من هذا النظام أن تحقق عدة أهداف ، أولها تشجيع هؤلاء الجنود على البقاء فى مصر ، وثانيها استغلال جهودهم فى استزراع مساحات جديدة من الأرض . وقد تراوحت مساحات الأرض حسب رتبة الجندى أو الضابط ، وكانت أصغر المساحات هى تلك التى كانت تمنح للجنود المصريين ، وإلى جانب الأرض كانت الدولة تمنح الجندى مسكنًا . وقد تغيرت أوضاع أراضى الإقطاعات العسكرية فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، فى عدة مظاهر لعل أبرزها ازدياد المساحات المخصصة للمقاتلين المصريين .

٣ - أراضى الهبات ge en doreai :

وهى الأرض التى كان البطالمة يمنحونها لكبار موظفيهم (٣)، وهى منحة شخصية يجوز للملك أن يستردها فى حالة ترك صاحبها للمنصب الذى يشغله . وخير مثال لهذا النوع من الأرض هى تلك الضيعة التى منحها بطلميوس الثانى لوزير ماليته المعروف أبوللونيوس Apollonios ، فى قرية فيلادلفيا ، وكان يقوم بإدارتها زينون Zenon . الذى عرفنا الكثير عن جوانب الحياة فى مصر خلال هذا العصر بفضل الوثائق البردية التى تركها لنا (٤).

---

(1) P. Tebt. 703 .

(2) Rostovtzeff. M., op. cit. p. 284 .

(3) Rostovtzeff. M., op. cit. p. 289.

(٤) عن هذه الضيعة وشخصية زينون ، انظر : Rostovtzeff. M., A Large Estate in Egypt in the third Century B.C. Madisan. 1922 .

٤ - أرض الامتلاك الخاص ge ktemata :

وهو نوع من الأرض يدور جدل كبير بين الباحثين بشأنه ، فى ضوء ما نعرفه من أن الشخص الوحيد فى مصر الذى كان يجوز له امتلاك الأرض ملكية خاصة هو الملك ، ولكن من المرجح أن الدولة أرادت تشجيع الأفراد على استثمار أموالهم فى استصلاح الأرض البور ، فمنحتهم حق تملك هذه الأراضى فى حالة قيامهم باستزراعها .

٥ - أراضى المدن ge politike :

وهى الأراضى التى كانت الدولة تخصصها للمدن التى كانت تتمتع بوضع المدينة الإغريقية Polis ، مثل الإسكندرية ، وبطلمية Ptolemais ، التى أقامها بطلميوس الأول فى صعيد مصر ، وكان مواطنو هذه المدن يتمتعون بحق تملك هذه الأراضى .

الصناعة :

كانت مصر منذ القدم موطنًا للعديد من الصناعات الهامة ، وإذا كان الملك البطلمى قد اعتبر نفسه الزارع الأول فى مجال الزراعة فقد مارس السياسة ذاتها فى مجال الصناعة ، فكان الملك هو الصانع الأول ، وانطلاقًا من هذه الفكرة مارست الدولة سياسة الاحتكار الكلى فى بعض الصناعات ، بينما اكتفت بالتدخل المباشر فى صناعات أخرى [١]. ومصدرنا الأساسى عن سياسة الاحتكار التى مارستها الدورلة فى مجال الصناعة ، هى وثيقة بردية تعد من أطول الوثائق البردية التى ترجع إلى عصر البطالمة ، وهى الوثيقة التى تتضمن القوانين المنظمة للدخل الملكى ، والتى يرجع تاريخها إلى عهد الملك بطلميوس فيلادلفوس [٢].

وقد احتكرت الدولة بشكل كامل صناعة الزيوت ، وكانت تعد من أهم الصناعات ، حيث يجرى استخراج زيت الزيتون والسمسم والقرطم والخروع . وهى مواد ضرورية لحياة الناس . وكانت الدولة تلجأ إلى وسطاء هم الملتزمون ، الذين كانوا يشترون حق إنتاج الزيت فى كل مديرية ، وكان هذا الحق يباع فى مزاد علنى يعقد كل عام فى عاصمة المديرية ، ويضمنون حصول الدولة على كافة مستحقاتها بدقة ، وكان الملتزم يتابع هذه الصناعة فى كافة مراحلها ،

---

(1) Preaux. C, L' economie royal des Lagides. pp. 61. ff .

(2) Revanue Laws of Ptolemy Philadelphos. ed. by. B.P.Grenfell. Oxford. 1896 .

ابتداء من عملية إلقاء البذور فى التربة ، ونضوج المحصول ، وحتى استخراج الزيوت وبيعها فى السوق . ولم يكن الملتزم يتمتع بالحرية الكاملة وإنما كان يخضع لرقابة صارمة من موظفى الدولة (١). لضمان التزامه الكامل بشروط العقد .

كما اشتهرت مصر بصناعة المنسوجات ، وعلى رأسها نسيج الكتان ، وقد احتكرت الدولة صناعة نسيج الكتان احتكاراً كليًا ، ومارست رقابة صارمة على كافة مراحل إنتاج هذا النسيج (٢). أما صناعة المنسوجات الصوفية فكانت تتمتع بقدر أكبر من الحرية ، فلم تحتكرها الدولة احتكاراً كاملاً ، بل سمحت للأفراد بإنتاج المنسوجات الصوفية ، فى نظير التزامات يؤدونها للدولة ، بالإضافة إلى هاتين الصناعتين ازدهرت فى مصر صناعات أخرى كثيرة ، مثل صناعة الورق من نبات البردى ، وصناعة الفخار والزجاج والخمور والجعة والعطور والحلى والأحجار الكريمة (٣).

التجارة :

طبق البطالمة فى مجال التجارة المعايير ذاتها ، التى طبقوها فى مجال الراعة والصناعة والتى تقوم على تدخل الدولة فى كافة أوجه النشاط الاقتصادى . ففى مجال التجارة الداخلية أحكمت الدولة رقابتها على الأسواق ، وتدخلت فى تحديد أسعار السلع ، وبخاصة تلك التى كانت تخضع لسياسة الاحتكار ، إلا أنها سمحت فى أحيان قليلة بالتداول الحر لبعض السلع ، حيث كان سعرها يتحدد حسب حالة السوق . وهناك بعض السلع ذات الأهمية القصوى التى حرصت الدولة على متابعة حركتها فى السوق بدقة شديدة ، مثل القمح ، فقد كان الملك البطلمى يعد من أكبر تجار الغلال فى العالم ، وكان لابد من اتباع هذه السياسة حتى يتمكن من الوفاء بتعهداته فى السوق العالمية(٤) .

---

(1) P. Tebt. 703 .

(2) Rostovtzeff. M., Social and Economic History of the Hellenistic World. p. 302 .

(3) Rostovtzeff.M., op. cit. p. 370 .

(4) Rostovtzeff.M., op. cit. pp. 381. FF .

كما انتعشت تجارة مصر الخارجية ، وأصبحت الإسكندرية من أهم المراكز التجارية فى العالم ، ولم تكن الإسكندرية هى المنفذ التجارى الوحيد ، بل وجدت أيضًا العديد من الموانىء على البحر الأحمر ، بالإضافة إلى المنافذ البرية على طول حدود مصر . وكانت الدولة تسمح للتجار باستيراد ما تحتاج إليه مصر من الخارج فى مقابل دفع جمارك محددة . كما قامت مصر بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب ، فكانت تقوم باستيراد منتجات أفريقيا وآسيا ، ثم تعيد تصديرها إلى أوروبا .

الحياة الاجتماعية :

كان الهدف الذى يرمى إليه بطلميوس الأول ، هو إقامة دولة تستند على أسس شرقية ، مع إضفاء الصبغة الإغريقية عليها ، وإذا كان البطالمة قد حرصوا على الظهور أمام رعاياهم من المصريين فى مظهر الحكام الوطنيين ، فإنهم فى نفس الوقت كانوا حريصين على الاعتزاز بأصلهم الإغريقى ، والاحتفاظ بعلاقات قوية مع بلاد اليونان ، لأنهم كانوا بحاجة إلى الإغريق للاستعانة بهم فى إقامة دولتهم ، فى المجال العسكرى والإدارى .

فتح البطالمة أبواب البلاد على مصراعيها أمام الأجانب ، وعلى وجه الخصوص الإغريق ، فشجعوهم على الاستقرار فى مصر ، وأختصوهم بالوظائف العليا ، وأغدقوا عليهم الهبات السخية [1]. وحرصوا على تهيئة المناخ الملائم لحياتهم فى مصر ، ولما كان الإغريق يألفون العيش فى ظل نظام المدن الحرة ، فإن البطالمة قاموا بتطوير مدينة الإسكندرية لكى تأخذ طابع المدينة الإغريقية ، وإلى جانب هذه المدينة قام بطلميوس الأول بإنشاء مدينة بطلمية فى صعيد مصر ، وربما كان الهدف الأول من وراء اختيار منطقة الصعيد لإقامة مثل هذه المدينة هو أن تكون منافسًا لمدينة طيبة، التى تعد أهم قلاع الحضارة المصرية . كما استمرت مدينة نقراطيس Naucratis التى أقامها الإغريق فى مصر منذ العصر الصاوى[2] ، فى التمتع بنظمها الإغريقية ، والقيام بدورها كمركز للحضارة الإغريقية فى مصر .

---

(١) عن الإغريق فى مصر بشكل عام ، انظر :

Lewis.N, Greeks in Ptolemaic Egypt, Oxford, 1986 .

وكذلك :

Preaux. C.Les Greces en Egypte d'apres Les Archive de Zenon. Bruxelles 1947 .

(٢) عن هذه المدينة انظر الفصل الخاص عن العلاقات بين مصر والإغريق . أبو اليسر فرح : النيل فى المصادر الإغريقية ، ص ٩ - ٣٤ .

ولم يقتصر وجود الإغريق فى مصر على المدن الإغريقية ، بل انطلقوا فى كافة أرجاء مصر، وأقيمت من أجلهم قرى جديدة فى إقليم الفيوم ، كما سكنوا المدن والقرى القديمة ، جنبًا إلى جنب مع المصريين (١). وحرص الإغريق على إقامة تجمعات تحمل اسم المواطن التى أتوا منها فى شكل جاليات Politeuma ، لها قوانينها الخاصة ، كما حرصوا على إقامة معاهد الجمنازيوم Gymnosion ، التى تعد من أهم مظاهر المجتمع الإغريقى ، وهى معاهد لها وظيفة ثقافية وتربوية ، ورياضية ، بالإضافة إلى الدور الاجتماعى الذى كانت تقوم به (٢).

ونظراً للمكانة التى يتمتع بها الإغريق ، فإنهم كانوا يعاملون المصريين معاملة تتسم بالتعالى ، ولكن منذ عهد بطلميوس الرابع تغير الوضع قليلاً ، وأخذت الدولة فى إفساح المجال أمام المصريين لتولى وظائف أعلى ، إلا أن ذلك لا يعنى تحقق المساواة بين الإغريق والمصريين ، ولكن يمكننا أن نلاحظ وجود قدر أكبر من التقارب بين الفريقين ، فقد أقبل المصريون على تعلم اللغة الإغريقية ، واكتسبوا مسحة من الثقافة الإغريقية . وحمل الكثيرون منهم أسماء إغريقية ، كما تأثر الإغريق بالكثير من مظاهر الحياة المصرية ، فتعلموا اللغة المصرية ، وعبدوا للآلهة المصرية ، واتخذوا أسماء مصرية .

وقد أدى انقطاع قدوم الإغريق إلى مصر فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، إلى تحقيق المزيد من التقارب بين الإغريق والمصريين ، وليس أدل على ذلك من تزايد حالات الزواج بين الطرفين ، إلا أن ذلك لايدل على ذوبان الإغريق فى الكتلة السكانية المصرية ، فقد ظل الإغريق يعتزون بأصلهم .

وعلى الرغم من توافد الإغريق إلى مصر فى أعداد كبيرة ، فإن المصريين ظلوا يشكلون الغالبية باعتبارهم سكان البلاد الأصليين ، وفى بداية الفتح المقدونى كانت توجد طبقة أرستقراطية مصرية ، بشقيها الدينى والمدنى ، ويتمثل الشق المدنى فى بقايا الشريحة العليا من المجتمع المصرى من كبار الملاك ، وفى ظل سياسة الاقتصاد الموجه التى مارسها البطالمة ،

---

(1) Bowman. A.K., op. cit. p. 122 .

(٢) عن الأحوال الاجتماعية للإغريق بشكل عام انظر : Rostavzeff. M., op. cit. pp. 330 - 332 .

تمت مصادرة ممتلكات هذه الفئة مما أدى إلى تقليص دورها الاجتماعى ، أما الشق الدينى فى هذه الطبقة فإنها تتمثل فى رجال الدين المصريين ، وقد ظلت هذه الطبقة تتمتع بمكانة هامة طوال عصر البطالمة[1]. وقد تعاظم نفوذ رجال الدين المصريين فى الشطر الثانى من عصر البطالمة . بسبب حرص الملوك على اكتساب ودهم .

وتلى هذه الطبقة طبقة المحاربين ، وهى طبقة فقدت مكانتها فى عصر البطالمة الأوائل ، بسبب اعتماد هؤلاء فى تكوين جيوشهم على الجنود الأجانب ، وإسناد مهام ثانوية إلى الجنود المصريين ، لذا فقد حرم المقاتلون المصريون من الامتيازات التى أغدقت على سواهم من الأجانب ، ولكنهم حينما منحوا فرصة الاشتراك فى القتال ، وأثبتوا جدارتهم فى معركة رفح عام ٢١٧ ق.م. وتحسنت أحوالهم بعض الشىء .

ثم تأتى بعد ذلك فئة الموظفين المصريين ، وفى بداية عصر البطالمة أسندت الوظائف الكبرى إلى الإغريق ، وظل المصريون يشغلون الوظائف الدنيا فى الجهاز الإدارى مثل وظائف الكتبة . وهى وظائف كانت تدر عليهم دخلاً يكاد أن يكفى لسد الرمق .

ويأتى فى قاعدة الهرم الاجتماعى ملايين المصريين ، الذين كان يعمل غالبيتهم فى مجال الزراعة ، بينما عمل البعض منهم فى مجال الصناعة والتجارة ، وكان أفراد هذه الطبقة يرسفون فى أغلال الظلم ، ويعانون شظف العيش ، فقد وقعت على رؤوسهم النظم الاقتصادية الجائرة التى طبقها البطالمة . والتى كان هدفها الأكبر توفير أكبر قدر من الدخل للملك ، حتى يتمتع هو ورجال الحاشية بأكبر قدر من الرفاهية ، على حساب الغالبية المحرومة من الشعب[2] .

ولكن على الرغم من تلك الظروف القاهرة التى فرضت على المصريين ، فإنهم حافظوا على عاداتهم وقوانينهم ، وظلوا يعبدون آلهتهم القديمة ، واستمرت المعابد المصرية تؤدي دورها

---

(1) Rostavzeff. M., op. cit. p. 322 .

(2) Westonnan. W.L, The Ptolemies and the welfare of their subjects. American Historical Review. XLIII. 1938. pp. 277 ff.

كخط الدفاع الأول عن القومية المصرية ، فكان يتم فى داخلها تعليم اللغة المصرية ، التى تمسك بها المصريون ، وحتى هؤلاء الذين تعلموا اللغة الإغريقية منهم ، فإن الثقافة الإغريقية ظلت بالنسبة لهم مجرد قشرة خارجية ، وطريقًا للحصول على الوظائف فى الإدارة البطلمية[1].

وإذا كان التقارب بين الإغريق والمصريين قد بدا فى الظاهر ، فإن النفور ظل كامنًا فى الأعماق ، فقد ظل المصريون ينظرون إلى الإغريق نظرتهم إلى غرباء عن البلاد اغتصبوا حكمها ، فظهرت فى الأدب الشعبى نبوءات راحت تبشر باقتراب اليوم الذى سيتم فيه طرد الغرباء من البلاد [2]. وإذا كان الإحساس بالظلم قد سيطر على المصريين منذ بداية حكم البطالمة ، فإن قدرتهم على التعبير عن سخطهم كانت مكبلة . بسبب ماكانت تتمتع به الدولة من قوة وجبروت ، ولكن بعد عام ٢١٧ ق.م. تفجرت مراجل الغضب لديهم ، بعد أن عادت إليهم ثقتهم فى أنفسهم عقب النصر الذى أحرزوه فى موقعة رفح ، فاشتعلت ثوراتهم فى عام ٢١٦ ق.م[3]. وازداد أوارها ، وراح الكهنة ينفخون فى النار ، ويحرضون المصريين على المزيد من التمرد ، فشهدت البلاد ثورة عنيفة فى عهد بطلميوس الخامس فى عام ١٨٤ – ١٨٣ق.م. وفى الإسكندرية قام أحد الزعماء المصريين ويدعى بتوسيرابيس Potoserapis يتزعم ثورة فى عهد بطلميوس السادس فى عام ١٦٥ - ١٦٤ ق.م. وفى عام ٨٥ ق.م. قاد بطلميوس التاسع قواته ضد الثوار المصريين فى طيبة ، وتمكن من إخماد الثورة وانتقم من المصريين بتخريب مدينتهم الخالدة طيبة . ومما لاشك فيه أن هذه الثورات على الرغم من أنها لم تحقق الهدف الذى قامت من أجله ، وهو القضاء على الحكم الأجنبى ، فإنها ساهمت إلى حد كبير فى إضعاف دولة البطالمة .

---

(1)Bowman. A.K., op. cit. p. 122 .

(٢) بل : المرجع السابق ، ص ٥ .

(٣) عن ثورات المصريين ، انظر : إبراهيم نصحى : المرجع السابق جـ٤ ص ١٧٩ - ٢٢٤.

مدينة الإسكندرية :

خصص آلان بومان A. Bowman الأستاذ بجامعة أكسفورد ، فصلاً من كتاب له عنوانه "مصر ما بعد الفراعنة " ، عن مدينة الإسكندرية ، واصفًا إياها بملكة البحر المتوسط . التى تعد أعظم منجزات الإغريق فى مصر ، فقد ظلت لمدة ستة قرون ونصف أعظم مدن شرق البحر المتوسط . كما استمرت تناطح مدينة القسطنطينية ، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية لمدة ثلاثة قرون أخرى [١].

وقد بلغ الإعجاب بأحد الخطباء حدا جعله يبالغ بالقول بأن مصر هى مجرد ملحق لمدينة الإسكندرية[٢]. كما وصف المؤرخ ديودور الصقلى الإسكندرية بأنها المدينة الأولى فى العالم المتحضر ، لأنها تتفوق على سائر المدن فى الفخامة والاتساع والغنى [٣].

يرجع تاريخ إنشاء مدينة الإسكندرية إلى العام الأول للفتح المقدونى لمصر[٤] ، فقد قرر الإسكندر الأكبر بعد أن تم تتويجه فى منف ، أن يتوجه إلى معبد الإله آمون فى واحة سيوة ، فأبحر فى الفرع الكانوبى لنهر النيل ، وعند مدينة كانوب نزل مع مرافقيه ، وسار بمحاذاة شاطىء البحر ، قاصداً برايتونيون Paraetonion (مرسى مطروح الحالية) . ومر فى طريقة بقرية صغيرة يسكنها الصيادون المصريون تسمى راكوتيس Rhakotis [٥]، تقع قبالتها فى البحر جزيرة صغيرة تسمى فاروس Pharos ، فأعجب بهذا الموقع وقرر اختياره لإقامة مدينة تحمل اسمه . ويقال أن الإسكندر أراد إقامة مدينة تستطيع أن تنافس مدينة صور الفينيقية ، التى كانت تحتل المركز الأول فى عالم التجارة فى شرق البحر المتوسط [٦].

---

(1)Bowman. A.K., Egypt After the Pharaohs. pp. 203 - 33 .

(2) Dio of Pruse. Or. 32 . 36 .

(3) Diod. 17. 52. 5 .

(٤) يذكر بلورتارك أن تاريخ إنشاء المدينة على وجه التحديد هو يوم ٧ أبريل عام ٣٣١ ق.م. : Plut. Life of Alexander .

(٥) فى الواقع كان يوجد فى هذا الموقع ١٦ قرية ، ولكن راكوتيس كانت أكبرها انظر : Fraser. P.M. , Ptolemaic Alexandria. p. 5 .

(6) Bell. H.I., Alexandria. J.E.A. XIII. 1927. p. 171 .

أسند الإسكندر إلى دينوكـراتيس Dinocratis مهمة تخطيط المدينة ، وكان يعتبر من أعظم مهندسى عصره . وتم إقامة جسر يربط ما بين جزيرة فاروس وقرية راكوتيس ، أطلق عليه هيبتاستاديون Hiptastadion (أى سبع ستاديون وهى وحدة قياس إغريقية) [١]. ونتج عن إقامة هذا الجسر ميناءان ، أحدهما يقع إلى الشرق وهو الميناء الكبير Magas Limen ، والآخر فى الغرب وقد أطلق عليه " يونوستوس " Eunostos ، ويعنى العـود الحميد ، وهو الميناء المستخدم فى عصرنا الراهن[٢] .

والواقع أن فكرتنا عن تخطيط الإسكندرية ومعالمها ، نستمدها بشكل أساسى مما ذكره الجغرافى إسترابون الذى زار الإسكندرية فى عام ٢٤ ق.م[٣]. وقد قام دينوكراتيس بوضع تخطيط للمدينة فى الشريط الرملى الذى ينحصر ما بين بحيرة مريوط والبحر . ومن الجدير بالذكر أن بحيرة مريوط ترتبط بالفرع الكانوبى للنيل من خلال قناة [٤]. مما كـان يؤمن احتياجات المدينة للمياه العذبة ، ويوفر طريق ملاحى للاتصال بوادى النيل .

وقد جرى تخطيط شوارع الإسكندرية بشكل مستقيم ، وأهم هذه الشوارع شارعان يتقاطعان عموديًا . ويزيد عرض كل منهما على ثلاثين ياردة ، وتوجد على جانبيهما دهاليز بها أعمدة تضاء ليلاً ، ويجتاز أحد هذين الشارعين المدينة من الغرب بادئًا عند الجبانة الغربية (القبارى) ، ومنتهيًا عند كانوب فى الشرق [٥]، أما الشارع الرئيسى الآخر فكان يبدأ عند بحيرة مريوط ، وربما كان ينتهى عند جسر الهيبتاستاديون ، ومن المحتمل أنه كان يتقاطع فى

---

(١) يبلغ طول هذا الجسر حوالى ١٣٠٠ متراً .

(2) Fraser. P.M., op. cit. p. 21 .

(3) Strabo. 17 .

(٤) عن هذه القناة ، انظر : أبو اليسر فرح : النيل فى المصادر الإغريقية ، ص ١٦٩ .

(٥) يحدثنا استرابون بأن مدينة كانوب ، كانت مكانًا شيء السمعة يرتاده طلاب المتعة واللهو :

Strabo. 17.1.6

وسطه تقريبًا مع الشارع الأول . وينتج عن هذا الالتقاء ميدان كبير ، وكانت باقى الشوارع بشكل عام موازية لهذين الشارعين[١].

والحقيقة أنه لم يكن يدور فى خلد الإسكندر عندما قرر إقامة مدينته الجديدة ، أن يجعل منها عاصمة لمصر . وكان الرجال الذين عينهم الإسكندر لإدارة البلاد يمارسون مهامهم من منف . وفى البداية اتخذ بطلميوس بن لاجوس منف عاصمة له ، ولكن فى عام ٣٢٠ ق.م. قرر نقل العاصمة إلى الإسكندرية ، وربما جاءت هذه الخطوة لكى تعكس تحولاً فى فكر بطلميوس ، الذى كان يشايع الإسكندر فى أفكاره حول المساواة بين الشعوب . إلا أنه ما لبث أن ارتد عن هذه الأفكار ، وأخذ يتصرف كرجل إغريقى ، يؤمن بتفوق الإغريق على ماعداهم من الشعوب ، ومن ثم فقد قرر اتخاذ الإسكندرية المدينة الإغريقية عاصمة لمصر . بدلاً من منف ، المدينة المصرية [٢].

بعد نقل العاصمة إلى الإسكندرية ، أخذت المدينة تزدهر بشكل مضطرد . ففى جزيرة فاروس وقف شامخًا فنار الإسكندرية الشهير ، الذى كان يعد من عجائب الدنيا السبع . وينسب إنشاؤه إلى سوستراتوس من كيندوس Sostratos of Cnidus[٣]. وقد اكتمل بناء الفنار فى أوائل عهد بطلميوس الثانى ، وتم تكريسه إلى بطلميوس الأول وزوجته " الألهين المنقذين " . ويتألف من ثلاثة طوابق يصل ارتفاعها إلى ١٢٠ متراً ، وينبعث ضوء الفنار هاديًا السفن فى البحر إلى مسافة ثلاثة أميال [٤].

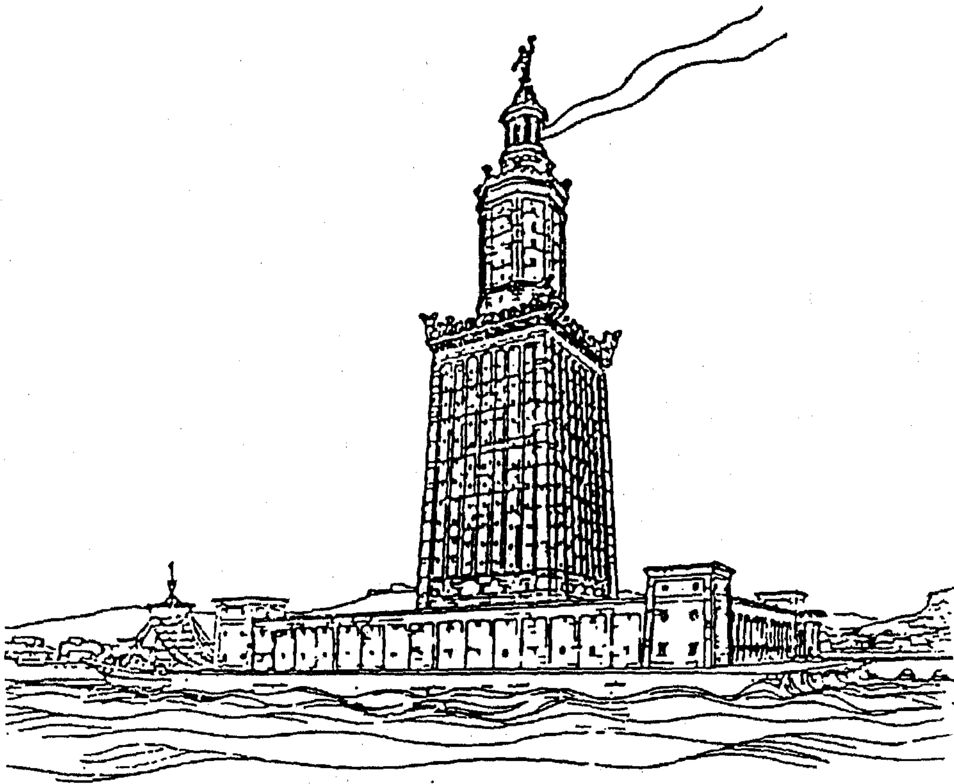
---

(١) يذكر بلوتارك أنه لم تتوفر كميات من الجير لوضع خطوط تحديد الشوارع ، فتم استخدام كميات من الحبوب المخصصة للجيش ، وفجأة ظهرت فى السماء أسراب ضخمة من الطيور ، من اتجاه البحيرة ، انقضت على الحبوب ولم تبق على شىء منها . فاضطرب الإسكندر لهذا المشهد ، ولكن مستشاروه أخبروه بأن هذا فأل حسن ، وأن هذا معناه أن المدينة ستكون مصدر خير عميم ، وأنها سوف تجتذب إليها الناس من جميع أنحاء العالم ، انظر : Plut. The life of Alexander .

(2) Bell. H.I, op. cit. p. 172 .

(٣) يرى البعض أن سوستراتوس هو الشخص الذى كان يتولى رعاية هذا المشروع ، وليس المهندس الذى وضع تصميمه كما هو شائع انظر : Bowman. op. cit. p. 206 .

(٤) عن فنار الإسكندرية ، انظر : Fraser. P.M., op. cit. p. 17-21 .



فنار الإسكندرية

وتجدر الإشارة إلى أن مدينة الإسكندرية قسمت إلى خمسة أحياء ، وأول هذه الأحياء هو الحى الملكى الذى عرف باسم " بروخيون " Bruchion ، ويقع إلى الشرق من الميناء الكبير ، وتوجد فيه قصور البطالمة ، التى أخذ الملوك يضيفون إليها تباعًا ، حتى اتسعت رقعتها ، وأصبح الحى يشغل ربع مساحة المدينة ، أو الثلث كما يذكر البعض(١) . ويضم الحى الملكى المنطقة التى تحوى مقبرة الإسكندر ومقابر البطالمة ، ويطلق عليها " السيما " Sema (٢). ويحتوى الحى الملكى أيضًا على دار العلم Mousion ، التى كانت فى الأصل معبداً لربات الفن Musae ، والحقت بها المكتبة الكبرى .

كما يوجد فى الحى الملكى المعبد الذى أطلق عليه Caesareum ، الذى أقامته الملكة كليوباترة السابعة ، من أجل يوليوس قيصر أو أنطونيوس ، واستكمل بناؤه بعد الفتح الرومانى ، وأصبح مخصصًا لعبادة الإمبراطور أوغسطس ، وهو بناء فخم . توجد أمامه مسلتان (٣). وقد ظل هذا المبنى يتمتع بمكانة هامة فى الإسكندرية لفترة طويلة (٤).

ومن المنشآت العامة فى مدينة الإسكندرية معبد السيرابيوم Serapeum . الذى أقيم فى موقع قرية راكوتيس القديمة ، وخصص من أجل العبادة الجديدة ، التى قرر إقامتها بطلميوس الأول ، مما جعل البعض يعتقد أن بطلميوس الأول هو الذى أقامه (٥). إلا أن الشواهد الأثرية

---

(١) حول تفاصيل هذا الحى راجع : . Fraser. P.M., op. cit.,, pp. 14ff .

(٢) عن الجدل الذي يدور حول مقبرة الإسكندر وما تعرضت له انظر :
Fraser. P.M., op. cit. pp. 15-17 .

(٣) ظلت هاتان المسلتان فى مكانهما حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم نقلت إحداهما إلى لندن والأخرى إلى نيويورك .

(٤) قرر الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) تحويله إلى كنيسة ، وهى كنيسة القديس ميخائيل . وفى منتصف القرن الرابع ، أصبح المقر الرسمى لبطريرك الإسكندرية ، وتعرض للتدمير خلال الاضطرابات التى وقعت بين أنصار المسيحية والوثنية فى عام ٣٦٨م . وفى عام ٤١٥م شهد هذا المبنى العمل الوحشى الذى قام به بعض المتعصبين من المسيحيين ضد العالمة والفيلسوفة هيباشيا Hypatia . حيث جردت من ملابسها وتم سحلها فى شوارع الإسكندرية حتى الموت : انظر : Bowman. A.K.op. cit. p. 207 .

(٥) إبراهيم نصحى : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ١٩٤ ؛ يوجد فى منطقة عمود السوارى ، حيث يوجد العمود الذى يطلق عليه خطأ عمود بومبى . الذى أقيم فى عام ٢٩٩م. تكريمًا للإمبراطور دقلديانوس .

تؤكد أن بطليموس الثالث هو الذى أقام معبد السيرابيوم ، والحقت بهذا المعبد مكتبة الإسكندرية الصغرى .

وبالإضافة إلى المؤسسات السابقة ، وجدت مؤسسات أخرى مثل معهد التربية "الجمنازيوم" Gymansium ، وساحة الألعاب الرياضية Stadion ، وحلبة سباق الخيل Hippodromos ، والمسرح . وخارج أسوار الإسكندرية ، كانت توجد المدافن Nicropolis ، وانتشرت فى أرجاء المدينة الحدائق والمتنزهات العامة ، التى تزدان بالنافورات الجميلة ، فقد توسطت إحدى هذه المتنزهات نافورة ضخمة ، يعلوها تماثيل فيلادلفوس وأرسينوى الثانية ، اللذان أهديت إليهما النافورة [١].

وبعد وفاة أرسينوى الثانية ، أعاد بطليموس الثانى تسمية الكثير من شوارع الإسكندرية، لإضفاء مظاهر التكريم على شقيقته الراحلة ، حيث تم الربط بين اسم أرسينوى وبعض الربات الإغريقيات مثل ديميتر وهيراو أفروديتى [٢]. ووجدت تحت سطح المدينة شبكة دقيقة من القنوات ، لإمداد المنازل بحاجتها من مياه الشرب ، ومن المرجح أن ساحة السوق العامة Agora كانت توجد فى وسط المدينة .

أما عن سكان الإسكندرية ، فيذكر ديودور الصقلى أن عدد السكان الأحرار بلغ ٣٠٠ ألف نسمة[٣] ، وهذا يعنى أن إجمالى عدد السكان قد يصل إلى نصف مليون[٤] . ويتكون النسيج السكانى فى المدينة من خليط من البشر ، على رأسهم الملك ورجال الحاشية ، والجيش وكبار الموظفين والقضاة والكهنة ، وكذلك العلماء والفلاسفة وطلاب العلم ، وتلاميذ المدارس من الفتيان والفتيات . ورجال الأعمال من أهل البلاد والأجانب ، والبقالون ، والحرفيون ، والباعة الجائلون ، والرجال الذين كانت مهمتهم إنارة الشوارع ، وعمال السفن والميناء والبحارة ، والعبيد ، ويمكن للمرء أن يستمع إلى العديد من اللغات ، ولكن الغلبة كانت للغة الإغريقية بلهجاتها المختلفة ، ولكن اللغة المصرية كانت هى السائدة فى الحى المصرى ، بينما

(1) Rostovtzeff. M, op. cit. p. 417 .

(2) Bell. I., op. cit., P. 175 .

(3) Diod. 17. 52 .

(4) Bowman. A.K., op. cit. 208 .

كانت اللغة العبرية والآرامية تستخدم فى الحى اليهودى . ويمكن للمرء أن يستمع إلى اللغة الهندية أيضًا فى شوارع الإسكندرية (١).

ومما هو جدير بالذكر أن أحياء الإسكندرية الخمسة حملت أسماء الحروف الأولى للأبجدية اليونانية (٢). وكان أولها هى الحى الملكى كما أسلفنا ، وسكن الإغريق الحى الثانى والثالث، واليهود فى الحى الرابع ، أما المصريون فقد أقاموا فى الحى الخامس ، وهو موقع قرية راكوتيس القديمة .

شكل المقدونيون الذين أقاموا فى المدينة من البداية ، الشريحة العليا من السكان ، وتشكلت منهم هيئة المواطنين Politai ، التى كانت لها الحق فى تسمية الملك من الناحية النظرية . ثم يأتى بعد ذلك الغالبية الباقية من السكان الذين وفدوا من مختلف أنحاء بلاد اليونان . وكانت الغالبية العظمى منهم تتمتع بحقوق المواطنة السكندرية . إلا أن بعض سكان الإسكندرية من الإغريق لم يكونوا يتمتعون بحقوق المواطنة (٣)، ويتم تسجيل مواطنو الإسكندرية فى قبائل Phylae ، تنقسم بدورها إلى أحياء deme ، وتنقسم الأحياء إلى وحدات أصغر تسمى Phrarai . وكان كل مواطن يضيف إلى اسمه اسم الحى الذى يقيم فيه ، دلالة على تمتعه بحقوق المواطنة ، أما النساء اللاتى ينتمين إلى هذه الطبقة ، فإنهن لم يكن يضفن اسم الحى إلى أسمائهن ، إلا أنهن كن يوصفن بلقب سكندريات .

وكانت الطبقة الأرستقراطية فى الإسكندرية ، تنعم بمستوى معيشى مرتفع ، وتسكن فى منازل على درجة عالية من الفخامة . ويمكننا من خلال بعض الشعراء السكندريين أن نتعرف على مظاهر الحياة اليومية لأسرة سكندرية ، فنرى وصفًا داخليًا لأحد المنازل ، ونتعرف على النشاط اليومى لربة البيت ، ونرى كيف تستقبل ضيوفها ، وكيف تتعامل مع أبنائها وخدمها ، كما نتعرف على برامج الترفيه ، من خلال قيام هذه الأسرة بالتنزه فى شوارع الإسكندرية وميادينها العامرة (٤).

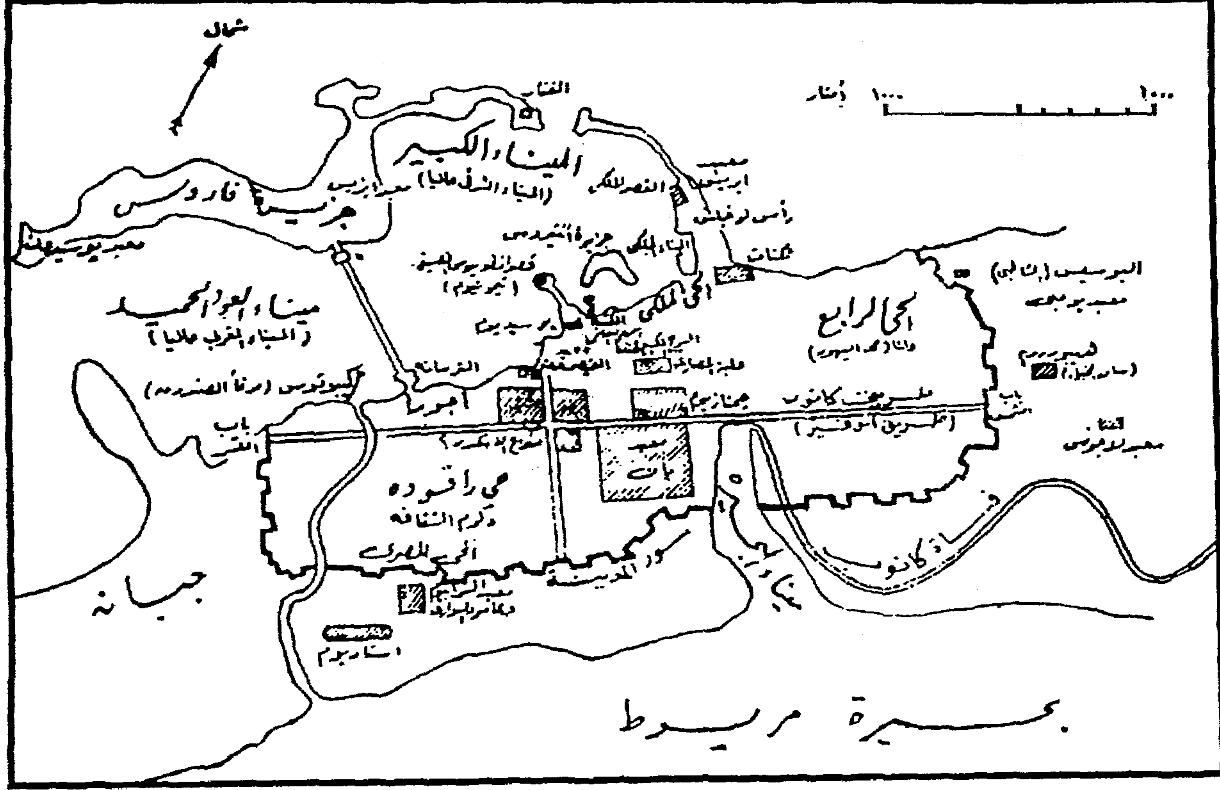
---

(1) Rostovtzeff. M, op. cit. p. 418 .

(٢) الحروف الخمسة الأولى للأبجدية اليونانية هى ألفا A ، بيتا B ، جاما g ، دلتا d ، إبسيلون e .

(3)Bell. I., op. cit., p. 173 .

(4) Rostovtzeff. M., op. cit. P. 419 .



خريطة الإسكندرية
« من كتاب الدكتور مصطفى العبادي »

والحقيقة أننا لا نعرف الكثير عن دستور مدينة الإسكندرية ، ولا نستطيع أن نقرر على سبيل المثال ما إذا كانت قد تمتعت بوجود مجلس للشورى Boulé ، أم لا ؟ ولا يغيب عن بالنا أن مجلس الشورى يعد من أهم مظاهر المدن الإغريقية ، ولعل أكثر الآراء قبولاً هو الرأى الذى يقول بأن الإسكندرية منحت مجلسًا للشورى عند إنشائها ، وأن أحد الملوك قام بإلغائه . إلا أن مواطنى الإسكندرية كانوا يمارسون حقوقهم من خلال المؤسسات الأخرى ، التى كانت توجد فى المدينة ، وعلى رأسها معهد الجمنازيوم ، الذى يعد من أهم مظاهر المجتمع الإغريقى[1]. الذى كان يترأسه شخص من ذوى المكانة العالية فى المجتمع السكندرى .

ويمكننا أن نلاحظ إزدياد الدور الذى قام به السكندريون ، فى الشئون السياسية فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، بسبب ضعف السلطة المركزية ، والأمثلة على هذا الدور كثيرة ، ففى عام ١٦٩ ق.م. حينما كان بطلميوس فيلوميتور فى قبضته أنطيوخس الرابع ، قاموا بتعيين شقيقه الأصغر ملكًا ، كما فرضوا على كليوباترة الثالثة فى عام ١١٦ ق.م. أن تعين ابنها الأكبر ملكًا ، وفى عام ٥٧ ق.م. قاموا بطرد بطلميوس الزمار من مصر ، وعينوا ابنته ملكة على البلاد[٢]. مما دعى يوليوس قيصر إلى القول بأن أهل مصر ، كانت لديهم عادة طرد الملوك الذين لايرضون عنهم ، وتعين آخرين مكانهم [٣].

وإلى جانب الإغريق ، وجدت فى الإسكندرية أعداد كبيرة من اليهود ، حتى أن الإسكندرية أصبحت من أهم المراكز اليهودية فى العالم ، ولم تكن تقل فى الأهمية عن أورشليم وبابل [٤]. ويزعم المؤرخ اليهودى يوسف ، أن الإسكندر الأكبر هو الذى أحضر اليهود وأنه اختصهم بالحى الرابع فى المدينة . وهو قول لا يلقى قبولاً لدى الدارسين ، لأن الإسكندرية كانت مجرد خطوط ، ولم تكن معالمها قد اتضحت ، حينما كان الإسكندر فى مصر[٥] . ومن المرجح أن بطلميوس الأول هو الذى أحضر أعداداً من اليهود بعد أن استولى

---

(1)Bell. I., op. cit., p. 174 .

(٢) عن الدور الذى مارسه السكندريون فى شئون الحكم والسياسة . انظر : لطفى عبد الوهاب : دراسات فى العصر الهللينيستى ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(3) Caesar. De Bell. Alex. III. 110 .

(٤) مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(5) Joseph. Apion. II. 35 .

على أورشليم فى عام ٣١٩ - ٣١٨ ق.م. ، كما جلب عدداً من الأسرى اليهود عقب موقعة غزة عام ٣١٢ ق.م.

وقد مارس يهود الإسكندرية أنشطة متعددة ، وبخاصة فى مجال المال والتجارة ، وكان بعضهم على قدر كبير من الثراء ، وربما اشتغل نفر منهم بالربا . وكان منهم الكثير من أرباب الحرف ، الذين كانت تجمعهم نقابة مهنية . وعلى الرغم من عدم تمتع يهود الإسكندرية بحقوق المواطنة ، فإنهم كانوا يشكلون جالية Politeuma ، ولهم مجلس للشيوخ Gerousia ، ويترأسهم زعيم Ethnarches يتمتع بسلطات إدارية وقضائية واسعة .

ولم يكتف يهود الإسكندرية بالدور الذى مارسوه فى النشاط الاقتصادى ، بل حرصوا على الزج بأنفسهم فى خضم الشئون السياسية ، فى بعض الأحيان ، ففى عام ١٤٥ ق.م. تقدم الزعيم اليهودى أونياس الرابع على رأس قواته ، لمؤازرة كليوباترة الثانية فى صراعها مع شقيقها يورجتيس الثانى . وعندما انتصر هذا الأخير ، انتقم من اليهود ونكل بهم . وفى عام ٥٥ ق.م. ساعد اليهود جابينيوس والى سوريا الرومانى ، الذى قام بغزو مصر لإعادة بطلميوس الزمار إلى العرش ، وقام يهود الإسكندرية بمؤازرة قيصر فى حربه ضد السكندريين فى عام ٤٨ ق.م. كما سارعوا بالترحيب بأوكتافيانوس عند دخوله إلى الإسكندرية فى عام ٣٠ ق.م. وجرت عليهم هذه المواقف وغيرها كراهية السكندريين .

ويأتى فى قاعدة الهرم الاجتماعى لمدينة الإسكندرية المصريون ، الذين كانوا يقيمون فى الحى الخامس . وكانوا مستبعدين تمامًا من هيئة مواطنى الإسكندرية ، ولم يكن مسموحًا لهم بممارسة أى دور سياسى ، كما أن الزواج الذى يقع بين المصريين والإغريق لم يكن يتم الاعتراف به . إلا أن الاختلاط بين الطرفين أمر لا يمكن تفاديه ، ومن ثم فإن الامتزاج أصبح أمراً شائعًا ، ويمكننا القول بأن الإسكندرية فى أواخر القرن الثالث ق.م. كانت عبارة مزيج ثقافى وعنصرى [١].

وإذا أدرنا أن نلقى نظرة على الأحوال الاقتصادية فى الإسكندرية ، فإنه يمكننا القول بأنها أصبحت أعظم المراكز التجارية فى عالم البحر المتوسط [٢]. وحتى يمكننا أن نفسر هذا القول

(1) Bell. I., op. cit., p. 174 .

(2) Dio. Or. 32. 36 .

فإنه ينبغى أن تسترجع كلمات الخطيب ديون " فم الذهب " Dio Chrysostomos فى خطبته التى وجهها إلى السكندريين قائلاً " إنكم لم تتمكنوا من إحكام السيطرة على الملاحة فى البحر المتوسط ، بسبب روعة موانئكم ، وعظمة أسطولكم ، وكثرة الأسواق التى تتوفر فيها منتجات من كل البلاد فقط ، ولكن أيضًا لأن المياه البعيدة تقع تحت سيطرتكم ، سواء أكانت مياه البحر الأحمر أو المحيط الهندى .... ونتيجة لذلك فإن تجارة العالم بأسره فى أيديكم ، وليست تجارة الجزر أو الموانىء أو المضايق أو الأرخبيل فقط ، لأن الإسكندرية تقع فى ملتقى الطرق العالمية ، حتى تلك الطرق التى تؤدى إلى الأمم البعيدة . إنها سوق يتمثل فى شكل مدينة ، يجتذب إليه البشر من كل الأنحاء ، لكى يتعرفوا على بعضهم البعض ، ما أمكنهم حتى يصبحوا فى النهاية كما لو كانوا ينتمون إلى عنصر واحد " .

وقد احتلت الإسكندرية هذه المكانة الهامة فى مجال التجارة العالمية ، بفضل جهود البطالمة المتوالية من أجل تنشيط تجارة مصر الخارجية ، والبعثات الكشفية التى أرسلوها ، ونشاط علماء مدرسة الإسكندرية فى مجال الدراسات الجغرافية ، فكانت ترد إلى أسواق المدينة منتجات أفريقيا [١]، مثل العاج والأبنوس والذهب والتوابل ، وكذلك منتجات الهند والصين، ومنتجات بلاد اليونان مثل زيت الزيتون والنبيذ والعسل والسمك المملح واللحوم والإسفنج[٢] . وكان يوجد فى الإسكندرية مندوبون تجاريون من بلاد كثيرة مثل فرنسا وإيطاليا وشمال أفريقيا وفارس . كما كانت الإسكندرية مركزاً لتصدير منتجات مصر ، وأهمها القمح الذى كان ينقل من سائر أنحاء البلاد عن طريق القوارب فى النيل ، ويتم تجميعه فى سوق القمح العظيمة فى الإسكندرية ، كما كانت الإسكندرية تقوم بتصدير بعض المنتجات التى اشتهرت بضاعتها مصر ، مثل الزجاج ونسيج الكتان وأوراق البردى [٣].

الحياة الثقافية :

أظهر البطالمة اهتمامًا كبيراً بالعلم ، مما جعل الإسكندرية تحتل مركز الصدارة ، وتتفوق على أثينا ، ومما لاشك فيه أن إنشاء دار العلم والمكتبة ، كان له أبعد الأثر فى اجتذاب

(1)Fraser. P. M., op. cit, p. 173 ff.

(2) Fraser. P. M., op. cit. p. 160 .

(3) Fraser. P.M., op. cit. pp. 135 ff .

العلماء والدارسين من شتى أرجاء العالم . ففى مجال العلوم والرياضيات بلغت مدرسة الإسكندرية شأنًا كبيراً ، واشتهر من علمائها إقليدس Euclides ، الذى وضع كتابًا فى أصول الهندسة (١)، كما عرف أرشميدس Archemedes صاحب قانون الطفو ، وفى مجال الدراسات الطبية برع علماء الإسكندرية فى التشريح والجراحة ، كما ساعد وجود حديقة الحيوان التى أقامها بطلميوس الثانى ، على تقدم علم الحيوان Biology .

كما أولت مدرسة الإسكندرية اهتمامًا كبيراً للدراسات الجغرافية ، بفضل تشجيع البطالمة ، وتوصل أرستارخوس Aristarchos إلى نظرية دوران الأرض حول الشمس ، سابقًا كروبرنيكوس بعدة قرون ، كما نجح اراتوستثينز Eratosthenes فى قياس محيط الكرة الأرضية ، ولم يختلف تقديره عما توصلت إليه الدراسات الحالية إلا بخمسين ميلاً فقط ، كما لقيت الدراسات التاريخية الاهتمام ذاته ، وكانت ثمرة ذلك الاهتمام الكتاب الذى وضعه الكاهن المصرى مانيثون ، عن تاريخ مصر القديم باللغة اليونانية ، وعلى الرغم من ضياع غالبية أجزاء هذا الكتاب، فإن التقسيم الذى وضعه هذا المؤرخ هو المتبع حتى عصرنا الراهن.

وشهد الأدب ازدهاراً كبيراً ، حتى أن الأدب اليونانى برمته فى هذا العصر يطلق عليه الأدب السكندرى(٢) . واشتهر من شعراء هذا العصر كاليماخوس Calimachos وثيوكريتوس Theocratos ، ويمكن القول بأن علماء مدرسة الإسكندرية هم الذين وضعوا أسس النقد الأدبى ، وعكفوا على دراسة الأدب اليونانى القديم ، وكانت أعظم انجازاتهم نشر ملاحم هوميروس وتاريخ هيرودوت ، وكذلك أعمال كبار شعراء الدراما الإغريقية(٣). ومما هو جدير بالذكر أن دار العلم التى تقع فى الحى الملكى ، هى أشبه بالجامعات فى عصرنا الراهن ، وهى مكان يقيم فيه العلماء ، ويلقون فيه دروسهم على الطلاب ، وكان هؤلاء العلماء منقطعين للعلم ، ولا يمارسون عملاً آخر ، فقد كانت الدولة تجرى عليهم الرواتب ، لكى تكفيهم مؤونة البحث عن لقمة العيش .

---

(1)Bell. I., op. cit., p. 177 .

(٢) عن الأدب فى هذا العصر انظر : محمد حمدى إبراهيم : الأدب السكندرى ، القاهرة ١٩٨٥ .

(٣) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

وترتبط بدار العلم مكتبة الإسكندرية الكبرى ، التى يرجع تاريخ إنشائها إلى عهد بطلميوس الأول ، وكان أول من ترأس دار العلم والمكتبة ديمتريوس الفاليرى ، وهو أحد تلاميذ أرسطو ، وكان أيضًا أحد رجال السياسة فى أثينا ، ومن أشهر الذين تولوا هذا المنصب فيما بعد الشاعر كاليماخوس والجغرافى اراتوستثينيز . وبفضل الرعاية المستمرة للبطالمة أصبحت مكتبة الإسكندرية ، أعظم مكتبات العالم القديم . فقد دأب بطلميوس الثانى على إرسال البعثات إلى بلاد اليونان من أجل إحضار الكتب ، كما أصدر بطلميوس الثالث قرارًا يفرض على كل قادم إلى الإسكندرية ، أن يقدم ما لديه من كتب إلى المكتبة ، حيث يقوم الكتبة بنسخها وإعطاء صاحبها نسخة معتمدة ، مع الاحتفاظ بالنسخة الأصلية ، وقد بلغ عدد المخطوطات التى احتوتها المكتبة ، ما يقرب من نصف مليون لفافة بردية [١]. وبالإضافة إلى المكتبة الكبرى تم إنشاء مكتبة أخرى الحقت بمعبد السيرابيوم .

ولم تقتصر محتويات مكتبة الإسكندرية على الكتب اليونانية ، بل تضمنت كتبًا بلغات أخرى مثل الفينيقية ، وربما ضمت أيضًا كتبًا بالهندية ، بعد أن أرسل أسوكا Asoka حاكم الهند ، رسالة إلى بطلميوس الثانى داعيًا إياه إلى اعتناق الديانة البوذية [٢].

وقد ظلت مكتبة الإسكندرية تقوم بدورها على الوجه الأكمل ، إلى أن تعرضت للتدمير فى عام ٤٨ ق.م. خلال حرب الإسكندرية ، وهى الحرب التى خاضها يوليوس قيصر ضد جيش بطلميوس الثالث عشر والسكندريين ، ومن الغريب أن استرابون الذى زار الإسكندرية فى عام ٢٥ ق.م. ، أى بعد الحريق بثلاث وعشرين عامًا ، لم يشر إلى المكتبة فى وصفه لمعالم الإسكندرية . وبعد حريق المكتبة الكبرى انتقل مركز النشاط العلمى إلى المكتبة الصغرى فى معبد السيرابيوم ، ويبدو أن وجود هذه المكتبة فى حرم المعبد ، كفل لها نوعًا من الحماية ، ولكن هذا المعبد فقد ما كان يتمتع به من توقير ، بعد انتصار المسيحية ، وأفول نجم الوثنية ، ففى عام ٣٩١ ميلادية أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس قرارًا بتدمير المعابد الوثنية ، وعلى أثر ذلك قام الأسقف ثيوفيلوس على رأس مؤيديه بالهجوم على معبد السيرابيوم وتدمير

---

(١) لم تكن البشرية قد توصلت إلى الكتاب فى شكله المألوف حاليًا ، ومن ثم فقد كانت المخطوطات عبارة عن لفافات من البردى .

(٢) بل . آيدرس : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ص ٧٢ .

محتوياته[١] ، ومن ثم فإن العرب حينما دخلوا مصر كانت مكتبة الإسكندرية أثراً بعد عين ، ولا صحة للرواية التى تنسب إلى العرب والمسلمين حريق مكتبة الإسكندرية ، وهو أمر يتفق عليه الباحثون[٢] .

---

(١) عن مكتبة السيرابيوم راجع : مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ - ١٩٢ .

(٢) انظر على سبيل المثال : . Bowman. A.K., op. cit., p. 225 .

الفصل الرابع
قيـــام دولـــة رومـــا
وقصة التوسع الرومانى

العصر الرومانى هو ذلك العصر الذى خضعت فيه بلدان الشرق الأدنى للحكم الرومانى ، وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، والسؤال الذى يطرح نفسه هو ما هى الإمبراطورية الرومانية ؟ وكيف تمكنت من بسط سيطرتها على بلدان الشرق الأدنى ؟ ، إن الإجابة على هذه الأسئلة تقتضى منا أن نعود بالذاكرة إلى الوراء ، لكى نتحدث عن مدينة روما ، وكيف تحولت من مدينة صغيرة قامت على ضفاف أحد الأنهار فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية ، إلى دولة تمكنت من فرض سيطرتها على كافة أرجاء إيطاليا ، ثم ما لبثت أن انطلقت بعد ذلك لكى تقيم إمبراطورية كبرى ، شملت غالبية بلدان المعمورة ، ومن بينها الأراضى التى تقع حول البحر المتوسط ، الذى كان يحتل قلب العالم القديم ، حتى غدا هذا البحر بحيرة رومانية، وكان يحلو للرومان أن يطلقوا عليه عبارة Mare Nostrum أى « بحرنا » . إن قصة تحول روما من مدينة إلى إمبراطورية قد رواها لنا المؤرخ الإغريقى بوليبيوس Polybius الذى كان يحمل إعجابًا شديد بالرومان [1].

كانت روما واحدة من المدن التى قامت فى إقليم لاتيوم ، وهو إقليم يقع فى الجانب الغربى من شبه الجزيرة الإيطالية [2]، وعرف سكانه باسم اللاتين Latini ، وكان الرومان جزءاً من

---

(١) - عن هذا المؤرخ راجع : عبد اللطيف أحمد على ، مصادر التاريخ الرومانى ، ص ٥٥ - ٥٩ .

(٢) عن إقليم لاتيوم انظر :
Gary.M.The Geographic Background of Greek and Roman History. pp. 128 - 130 .

هذا الشعب ، ويتحدثون لغته ، وهى اللغة اللاتينية . واللاتين هم من الشعوب الإيطالية ، فقد درج المؤرخون على تقسيم سكان شبه الجزيرة الإيطالية فى الفترة المبكرة ، إلى قسمين رئيسيين ، أولهما القسم الذى يضم الشعوب الإيطالية ، ويأتى فى مقدمتها اللاتين ، بالإضافة إلى بعض الشعوب الأخرى ، مثل القبائل السمنية .

أما القسم الآخر فإنه يضم الشعوب التى يطلق عليها ، الشعوب غير الإيطالية ، ويقصد بها الشعوب التى وفدت إلى إيطاليا من مناطق أخرى ، مثل الإغريق والإتروسكيون . فمن المعروف أن الإغريق خرجوا من بلادهم فى عصر الانتشار والاستيطان ، فى الفترة ما بين عامى ٧٥٠ ، ٥٥٠ ق.م. تقريبًا ، وراحوا يستعمرون مناطق كثيرة فى حوض البحر المتوسط وما حـــــوله[١]. وكان لمناطق جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية ، حظ وافر من نشاط الإغريق الاستيطانى ، حيث أقاموا فيها العديد من المدن والمستعمرات ، التى تحولت إلى مراكز إشعاع للحضارة الإغريقية ، فى مناطق الجنوب الإيطالى ، وكان للإغريق أثر واضح على الرومان من الناحية الحضارية ، ويكفى أن نذكر فى هذا المجال أنهم نقلوا حروف الكتابة الإغريقية إلى إيطاليا ، التى امتزجت بالكتابة الإتروسكية ، لكى تخرج لنا حروف جديدة هى التى كتبت بها اللغة اللاتينية . كما أن الأدب الرومانى قد خرج من عباءة الأدب الإغريقى ، وإن كان قد اتخذ سمة مختلفة ، تعكس إلى حد بعيد الشخصية الرومانية ، التى تختلف بشكل كبير عن الشخصية الإغريقية .

أما الشعب الآخر من الشعوب غير الإيطالية ، فهم الإتروسكيون ، سكان إقليم إتروريا Etruria ، وهى المنطقة التى تعرف الآن باسم توسكانيا[٢] ، وقد ثار جدل بين المؤرخين حول أصل الإتروسكيون ، فهناك من يرى أنهم من الشعوب الأصيلة فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وهناك من يرى خلافًا لذلك ، ويقول بأن هؤلاء القوم قد وفدوا من خارج إيطاليا ، ومن بينهم المؤرخ الإغريقى الشهير هيرودوت ، الذى ذكر أن الإتروسكيين جاؤوا من منطقة ليديا فى آسيا الصغرى ، حيث أدى وقوع مجاعة فى تلك المنطقة إلى هجرة سكانها إلى الخارج ، إلا

---

(١) للحصول على معلومات مفصلة حول هذه الحركة راجع : سيد الناصرى : الإغريق ، تاريخهم وحضارتهم ، ص ١٣٤ - ١٧٢ .

(2) Cary, op. cit. p.. 123 - 6 .

أن بعض المؤرخين يرفضون هذا الرأى ، ويرون أن الإتروسكيين من الشعوب الإيطالية الأصيلة، وأنه يوجد اختلاف واضح ما بين لغة الإتروسكيين ونظمهم ، ونظم أهل ليديا ولغتهم ، واضطر فريق آخر من الباحثين إلى اللجوء إلى علم الأنثروبولوجى (علم الأجناس) فى محاولة لحسم هذه القضية (١).

وعلى أية حال ، فإننا إذا ما نحينا جانبًا هذا الجدل الدائر حول أصل الإتروسكيين ، فإنه يمكننا القول بأن الإتروسكيين أقاموا حضارة ازدهرت فى عدة مدن ، وأدت طبيعة إقليم إتروريا إلى قيام عدة وحدات سياسية ، لم تعرف طريقها إلى الوحدة ، وعندما وصل الإتروسكيون إلى مرحلة متقدمة من النضج السياسى والحضارى ، انطلقوا خارج إقليمهم ، فاتجه بعضهم جنوبًا واستولى على إقليم لاتيوم ومدينة روما ، وذهبوا إلى مدى أبعد حينما تجاوزوا إقليم لاتيوم ، وسيطروا على إقليم كمبانيا Campania (٢). وقد أدى اندفاع الإتروسكيين فى اتجاه الجنوب إلى صدامهم مع الإغريق ، الذين استوطنوا جنوب إيطاليا ، وكان ذلك سببًا فى توقف الزحف الإتروسكى نحو الجنوب .

لم يلبث النفوذ الإتروسكى فى إقليم لاتيوم أن أخذ فى الانحسار ، ففى عام ٥٠٩ ق.م. ثار الرومان على ملكهم الإتروسكى ، وطردوه خارج المدينة ، مما شجع باقى مدن إقليم لاتيوم على أن تحذو حذوهم ، وتتخلص من حكامها الإتروسكيين .

أما البعض الآخر من الإتروسكيين ، فقد اتجهوا إلى الشمال ، وأخذوا فى تدعيم نفوذهم فى وادى نهر البو Po ، واستمرت سيطرتهم على هذه المنطقة لما يقرب من قرن من الزمان ، حيث أقاموا العديد من المدن ، إلى أن ظهر أمامهم منافس قوى يتمثل فى القبائل الكلتية ، الذين جاءوا من قلب القارة الأوروبية ، وشكلوا تهديداً للوجود الإتروسكى ، وقد أطلق الرومان على هذه القبائل اسم الغال Galli ، وأطلقوا على المنطقة التى أقاموا فيها ، فى شمال إيطاليا ، اسم بلاد الغال المتاخمة للألب Galia Cisalpina .

وعلى الرغم من انحسار النفوذ الإتروسكى ، من إقليم لاتيوم ، فإن الإتروسكيين تركوا آثاراً واضحة علي الشعوب التى حكموها ، فى نظم الحكم والإدارة ، وكذلك فى بعض الجوانب الحضارية .

---

(١) عن مشكلة أصل الإتروسكيين راجع : . Cary, M. A History of Rome. p. 18

(2) Cary, op. cit. pp. 26ff .

إذن فقد كان للإغريق والإتروسكيين آثارهم الواضحة على الرومان ، من الناحيتين السياسية والحضارية ، أما مدينة روما ، موطن الرومان ومهد حضارتهم ، فإنها تقع على الحدود الفاصلة بين إقليم لاتيوم وإقليم إتروريا ، وتبعد ١٥ ميلاً عن مصب نهر التايبر فى البحر التيرانى ، وتقع المدينة فى إقليم خصيب ، وهو إقليم لاتيوم ، الذى كانت تربته قادرة علي إنتاج ما يكفى حاجة سكان الإقليم من الغذاء .

نشأت مدينة روما على مجموعة من التلال ، لذلك فقد عرفت بمدينة التلال السبعة ، وكان أشهر تلك التلال ، تل الكابيتول Capitolenus ، وتل الأفنتين Aventinus ، وتل البلاتين Platinus . وكان نهر التايبر يشكل وسيلة الاتصال بين روما والبحر التيرانى ، وقد هيأ الموقع المتوسط الذى كانت تحتله مدينة روما علي السواحل الغربية لإيطاليا ، فرصة طيبة للمدينة لكى تتحكم فى هذه السواحل ، ومن ناحية أخرى ، فإن موقع روما المتوسط فى قلب إيطاليا ، جعل منها محطة اتصال بين شمال إيطاليا وجنوبها(١).

عند الحديث عن نشأة مدينة روما ، فإننا نجد أنفسنا بإزاء عدد كبير من الروايات ، لعل أكثرها رواجًا بين الرومان ، تلك الرواية التى تنسب نشأة مدينة روما إلى شخصية رومولوس Romulus ، وتستطرد الرواية إلى القول بأن رومولوس وشقيقه التوأم ريموس Remus ، قد حملت بهما أمهما سفاحًا من الإله مارس ، وهو الإله المحبب لدى الرومان ، وأن هذه الأم بعد أن وضعت التوأم ، أرادت التخلص منهما ، فألقت بهما فى مياه نهر التايبر ، ثم حملتهما المياه وألقت بهما على إحدى ضفتى النهر ، حيث عثرت عليهما ذئبة(٢) ، فأخذت فى إرضاعهما ، إلى أن جاء أحد الرعاة ، فحملهما إلى بيته وقام بتربيتهما ، وعندما شبا على الطوق ، وبلغا مبلغ الرجولة ، أقام رومولوس مستعمرة على تل اللاتين ، بينما حاول شقيقه إقامة مستعمرة أخرى على تل آخر وهو تل الأفنتين (٣).

كانت المشكلة التى واجهت رومولوس عند إنشاء المستعمرة ، هى نقص النساء ، وفكر فى حل هذه المشكلة ، فتظاهر بإقامة مهرجان للاحتفال بإقامة المستعمرة ، ودعا أفراد قبيلة مجاورة وهى قبيلة السابين Sabini لحضور المهرجان ، ولبى هؤلاء الدعوة ، وأحضروا معهم

---

(1) Cary, The Geographic Backgraund of Greek and Roman History. pp. 130 - 30 .

(2) Cary, A History of Rome. p. 37 .

(3) C.A.H. VII. p. 353 .

زوجاتهم وأبناءهم وبناتهم ، وفى أثناء الاحتفال انقض رومولوس ورفقاؤه على فتيات السابين، واستولوا عليهن [(١)]، وبعد عودة السابين إلى بلادهم ، سيطر عليهم الغضب ، وأعدوا العدة للانتقام ، واسترجاع بناتهم . وحينما أكملوا استعدادهم ، زحفوا إلى روما لمحاربة رومولوس ورجاله ، إلا أن السابينيات اللاتى أصبحن زوجات للرومان ، وقفن بين الطرفين ، ومنعن قيام الحرب بين أزواجهن وآبائهن . وبعد ذلك أصبح الرومان والسابين أصدقاء. ومن أجل تخليد هذه الأسطورة ، أقام الرومان تمثالاً من البرونز ، ونصبوه فى ساحة السوق العامة Forum بمدينة روما فى عام ٢٩٦ ق.م. ويمثل هذا التمثال الذئبة Lupa Capitolina وهى ترضع طفلين .

وقد أدلى الإغريق بدلوهم فى مجال الروايات التى ذكرت حول نشأة روما ، فقالوا أن الذى أنشأ مدينة روما ، هو روموس Romus ابن أوديسيوس ، بطل ملحمة الأوديسة ، كما نسجوا قصة أخرى ترجع الفضل فى إنشاء روما إلى البطل الطروادى أينياس Aeneas ، الذى فر من طروادة بعد سقوطها ، وأنه هام على وجهه لفترة طويلة ، إلى أن حط رحاله فى إقليم لاتيوم ، حيث رحب به الملك لاتينوس Latinus وزوجه من ابنته ، وأن ريموس ورومولوس ، هما أحفاد أينياس من الأميرة اللاتينية ، وقد خلد هذه القصة شاعر الرومان العظيم فرجيل Vergelius فى ملحمته الرائعة الإنيادة .

وإذا ما تركنا الأساطير ، فإننا نعرف أن منطقة روما عرفت الاستيطان البشرى حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. فى شكل قرى منفصلة[(١)] ، إلا أن عزلة هذه القرى ما لبثت أن زالت ، مع مجيء الإتروسكيين فى القرن السابع ق.م. ، وفى الربع الأخير من القرن السابع ق.م. بدا التأثير الإتروسكى واضحًا ، وهى الفترة التى تذكر المصادر أن الملك الإتروسكى تاركوينيوس بريسكوس قد استولى على الحكم فى روما خلالها ، وكان ذلك على وجه التحديد فى حوالى عام ٦١٦ ق.م[(٣)].

---

(1) C.A.H. VII. p. 368 .

(2) Cary, op. cit. p. 38 .

(3) C.A.H. VII. p. 378 .

كان نظام الحكم فى روما فى البداية ملكيًا ، مثل كافة نظم الحكم السائدة فى المجتمعات المعاصرة . وإذا ما استبعدنا رومولوس من قائمة ملوك روما القدماء ، باعتباره شخصية أسطورية ، لا يقوم على وجودها دليل ، فإن الروايات تذكر أن روما قد حكمها ستة ملوك ، وكان الثلاثة الأواخر منهم إتروسكيون ، وآخرهم هو الملك تاركو ينيوس سوبيربوس[١] Tarquinius Superbus ، كما تحدثت المصادر عن بعض انجازات الملوك الإتروسكيين فى روما ، مثل بناء أسوار المدينة ، أو الاصلاحات العسكرية ، والاجتماعية التى تتمثل فى إعادة ترتيب طبقات المجتمع على أساس الثروة [٢].

وإذا ما أردنا أن نلقى نظرة على أهم الملامح الاقتصادية والاجتماعية فى روما فى العصر الملكى ، فإنه يمكننا القول أن الاقتصاد الرومانى قام على الرعى والزراعة ، كما عرفت روما التبادل التجارى مع بلاد الإغريق وقرطاجة ، وكان المجتمع يتألف من الرجال الأحرار ، يأتى فى مقدمتهم طبقة الأرستقراط ، وفى الريف كان يسكن المزارعون الأحرار ، الذين يمتلكون مساحات صغيرة من الأرض الزراعية ، وشيئًا فشيئًا أخذت الهوة تزداد بين الطبقات ، فأصبح هناك غالبية من الشعب يطلق عليهم العامة Plebs ، فى مقابل أقلية من النبلاء Patrici .

وكان المجتمع الرومانى يتألف من مجموعة من العشائر Gens ، وتنقسم العشائر إلى عائلات Familiae ، وكان المواطنون يمارسون واجباتهم السياسية من خلال وحدات سياسية هى القبيلة Tribus ، التى انقسمت بدورها إلى وحدات أصغر هى الأحياء Curiae ، وكان هذا التقسيم جغرافيًا ، ولا يقوم على أساس عنصرى ، أما السلطة الأكبر فكانت فى أيدى مجلس الشيوخ Senatus ، وهو مجلس يضم قادة العشائر ، ويعد هيئة استشارية ، وعند وفاة الملك، كانت السلطة تنتقل بشكل تلقائى إلى السناتو (مجلس الشيوخ) ، الذى يقوم بدوره باختيار ملك جديد .

ومما هو جدير بالذكر أن شغل العرش لم يكن يتم عن طريق الوراثة ، بل عن طريق الانتخاب ، وكان الملك يتمتع بسلطات مطلقة ، فهو الذى يتولى قيادة الجيش ، ويرأس جهاز العدالة فى الدولة ، ويحافظ على سلام الآلهة ، أى رضا الآلهة عن الدولة ، ويشرف على

---

(1) C.A.H.VII. p. 370 .

(٢) عن روما فى العصر الملكى انظر : Cary, op. cit. pp. 41ff .

الكهنة الذين يؤدون الشعائر ، وفى الشئون الخارجية ، كان الملك يتولى البت فى كل ما يتعلق بالحرب والسلام .

وكان الجيش الرومانى فى العصر الملكى يقوم على التقسيم القبلى ، فكان يتحتم على كل قبيلة أن تمد الجيش بعدد محدد من المحاربين ، وكان على الجندى أن يتكفل باحضار عدة قتاله.

وفى عام ٥٠٩ ق.م. ثار الرومان على ملكهم الإتروسكى ، تاركوينيوس سوبيربوس (أى المتغطرس) ، وطردوه من روما[١] . وإن كان بعض المؤرخين يستبعدون فكرة الثورة ، ويرون أن التطور فى نظام الحكم عندما الرومان جاء بشكل سلمى ، وأنهم استبدلوا نظامهم القديم بنظام جديد للحكم .

أطلق الرومان على النظام الجديد اسم Res Publica ، وهى كلمة تترجم حرفيًا إلى «الشىء العام » ، ولكن الترجمة الشائعة لهذه الكلمة فى اللغة العربية هى « الجمهورية » ، وهذا يعنى أن الحكم من الآن فصاعداً لم يعد من شأن فرد بعينه ، كما كان الحال فى ظل النظام الملكى ، بل أصبح عامًا ومن شأن كافة المواطنين ، أى الجمهور ، هذا من الناحية النظرية، أما من حيث الواقع ، فإن نظام الحكم كان له طابع أرستقراطى ، حيث تركزت السلطة فى أيدى النبلاء[٢] ، وتداول الحكم عدد محدود من العائلات النبيلة .

انتقلت سلطات الملك إلى اثنين من الحكام ، حمل كل منهما لقب قنصل Consul [٣]، وهى كلمة تعنى الزميل ، وقد كان كل من هذين الزميلين يتمتع بسلطات متساوية ، ومن حق كل منهما الاعتراض على ما يصدره الآخر من قرارات ، وكان القنصلان يشغلان وظيفتهما لمدة عام واحد ، غير قابل للتجديد . ولكن الرومان أدركوا أنهم فى وقت الشدة يحتاجون إلى سرعة البت فى الأمور ، والحسم فى اتخاذ القرار ، لذلك فقد أوجدوا وظيفة استثنائية هى وظيفة الدكتاتور Dectator ، وهى وظيفة تتيح لحاملها حق التمتع بسلطات مطلقة ، ولكن هذه السلطات كانت محدودة بمدة قصيرة ، وهى ستة شهور فقط . ويأتى بعد القنصل مجموعة

---

(1) C.A.H. VII. p. 394 .

(2) Crawford. M, The Roman Republic. p. 23 .

(3) Cary., op. cit. p. 62 .

من الموظفين ، يتولون تصريف شئون الدولة ، وجميع هذه الوظائف شرفية ولايتقاضى شاغلوها مقابلاً نظير شغلهم إياها . أما المهام الدينية فقد اسندت إلى شخص يحمل لقب الكاهن الأكبر.

إلى جانب الوظائف السابقة ، عرفت روما فى ظل النظام الجمهورى بعض المجالس والهيئات ، كان أبرزها مجلس الشيوخ (السناتو) ، وهو مجلس أشرنا من قبل إلى أنه كان يوجد فى العصر الملكى ، إلا أن الأهمية هذا المجلس ازدادت فى عصر الجمهورية ، فقد كان معقل الارستقراطية (١)، والمهيمن الحقيقى على الشئون السياسية ، لأنه كان هيئة دائمة تضم الكثيرين من ذوى الكفاءات ، الذين تمرسوا فى العمل السياسى ، وكانت عضوية هذا المجلس لمدى الحياة ، وإلى جانب مجلس الشيوخ ، وجدت الجمعيات الشعبية التى كانت تنتخب القناصل .

وفى مجال الديانة كانت توجد جماعات الكهنة ، وكانت لكل واحدة منها مهام محددة ، وكانوا جميعًا يمارسون واجباتهم تحت إشراف الكاهن الأعظم ، ولا عجب أن النبلاء احتكروا وظائف الكهنة أيضًا ، وسخروها لخدمة أهدافهم ومصالحهم .

أدت هيمنة النبلاء على الحكم فى روما إلى سخط العامة ، فأخذوا فى المطالبة بالمشاركة فى الحكم(٢) . وكانوا قد تأثروا إلى حد كبير بالأفكار السياسية الإغريقية ، التى كانت قد تسربت إلى روما عن طريق التجار الإغريق ، واتخذت مطالب العامة شكلاً سلميًا ، أقرب إلى الاضراب العام (٣)، وكانت المرحلة الأولى للصراع بين الأشراف والعامة فى عام ٤٩٤ ق.م. حين قرر العامة الانسحاب من مدينة روما ، واختاروا من بينهم اثنين لكى يكونوا بمثابة ممثلين لهم ، وأطلقوا عليهم نقباء العامة Tribuni Plebis ، وشكلوا مجلسًا أطلقوا عليه مجلس العامة .

أدرك العامة مدى فعالية سلاح الانسحاب ، فأخذوا يلجأوون إليه بين الفينة والفينة ، من أجل تحقيق مطالبهم ، وفى كل جولة كانوا يحصلون على المزيد من الامتيازات ، وأصبح ممثلوهم جزءاً من النسيج الدستورى للدولة ، وازداد عدد النقباء ، واضطرت الدولة إلى

---

(1) Cary., op. cit. p. 63 .

(2) Crawford., op. cit. p. 25 .

(3) Cary., op. cit. p. 66 .

الرضوخ لطلبات العامة ، حين طالبوا بتدوين القوانين ، حتى يصبح الاطلاع عليها أمراً متيسراً للجميع ، مما يمكن المواطنين من معرفة حقوقهم . وكانت المرحلة الأخيرة للصراع هى التى انتهت فى عام ٢٨٧ ق.م. عقب مشاكل أخذت بخناق الدولة ، فتم تعيين واحد من رجال العامة ويدعى هورتنسيوس Hortensius فى وظيفة الدكتاتور ، وقام بوضع مجموعة من القوانين وضعت حداً لحالة الاضطراب ، وحققت للعامة كافة مطالبهم ، وفتحت الباب أمام مرحلة جديدة فى حياة الرومان .

كيف تحولت روما من مدينة إلى دولة ؟ :

إن قصة التوسع الرومانى فى شبه الجزيرة الإيطالية ، قصة تثير الإعجاب ، فى كثير من جوانبها ، فبعد التخلص من الحكم الإتروسكى ، دعمت روما مكانتها فى إقليم لاتيوم ، عن طريق إقامة حلف مع المدن اللاتينية[١]. وقامت بمشاركة حلفائها بخوض العديد من الحروب ، ضد القبائل المجاورة ، ونجحت فى إلحاق الهزيمة بهذه القبائل وكسر شوكتها [٢].

وبعد ذلك بدأت المشاحنات بين الرومان وأعدائهم القدامى ، أى الإتروسكيون ، وفى عام ٤٠٥ ق.م. خاضوا حرباً شرسة ضد كبرى مدن إتروريا ، وهى مدينة ڤيى Veii [٣]، واستطاعوا التغلب عليها بعد مقاومة عنيفة من أهل هذه المدينة ، وكان انتصار الرومان على هذه المدينة نقطة تحول فى تاريخهم العسكرى ، وأرادوا أن يجعلوا من مصير هذه المدينة أمثولة ، حتى يتعظ الآخرون ، إذا ما فكروا فى الوقوف أمام الرومان ، فنكلوا بأهلها ، وصادروا أراضيها .

بعد أن نفض الرومان أيديهم من مشكلة الإتروسكيين ، وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم ، جاءهم من الشمال ، يتمثل فى قبائل الغال [٤]، الذين سلفت الإشارة إليهم ، وكان انتشار هؤلاء فى البداية سلمياً [٥]. إلا أن حالهم قد تبدل حينما قويت شوكتهم ، فراحوا ينشرون الفوضى حولهم ، وحاصروا إحدى المدن الإتروسكية ، وهى مدينة كلوزيوم Closium ، التى غُلبت على أمرها ، مما اضطرها إلى طلب العون من الرومان .

---

(1) Cary., op. cit. p. 70 .
(2) C.A.H. VII. pp. 500 - 4 .
(3) C.A.H. VII. p. 516 .
(4) Livy. V, 43 .
(5) Cary., op. cit. p. 72 .
(6) C.A.H. VII. p. 561 .

استجاب الرومان لطلب مدينة كلوزيوم ، فأرسلوا تحذيراً إلى الغال ، وطالبوهم بفك الحصار من حول المدينة ، إلا أن الغال ضربوا عرض الحائط بهذا التحذير ، وأمعنوا فى التحدى بإعلان الحرب على الرومان ، ولم يكن أمام روما بُد سوى قبول هذا التحدى ، فأرسلوا قوة لمحاربتهم، إلا أن الغال استطاعوا إنزال هزيمة قاسية بهذه القوة ، عند نهر أليا Alea ، وهو أحد روافد نهر التايبر ، وعرفت هذه المعركة بنكبة أليا ، وظل الرومان يتذكرون هذا اليوم باعتباره يومًا أسودا فى تاريخهم [١].

بعد الهزيمة وانسحاب فلول القوات الرومانية ، أصبح طريق الغال إلى روما مفتوحًا ، إلا أن ترددهم فى التوجه إلى روما ، أعطى الفرصة للقوات الرومانية للعودة ، والتحصن فى تل الكابيتول ، ولم يلبث الغال أن لحقوا بهم ، وحاصروا الكابيتول ، إلا أنهم قبلوا الانسحاب من روما بعد أن حصلوا على جزية من الذهب . وقد استفاد الرومان من هذا الدرس القاسى ، فعملوا على تقوية المدينة ، وإدخال تعديلات واسعة على الجيش .

كان للهزيمة التى حلت بالرومان على يد الغال ، أثر كبير فى فقدان هيبتهم ، مما شجع أعداءهم على المجاهرة بكراهيتهم لهم ، والثورة ضدهم ، وبعد أن داوى الرومان جراحهم ، استعدوا لمواجهة أعدائهم ، ولعل أخطر ما واجهه الرومان ، هو تمرد حلفائهم اللاتين [٢]. وقد واجه الرومان هذا التمرد وتمكنوا من القضاء عليه ، وأعادوا صياغة العلاقة مع اللاتين فى شكل جديد . ولم يواف عام ٣٥٠ ق.م. حتى كان الرومان قد سيطروا على مساحات شاسعة من إيطاليا ، كما أن جيشهم أصبح على درجة عالية من التدريب ، ومستعداً لمزيد من الغزو[٣].

اضطر الرومان بعد ذلك إلى خوض غمار حرب شرسة ، ضد قبائل ذات بأس شديد ، هى القبائل السمنية ، التى كانت تسيطر على وسط إيطاليا ، بسبب صراع المصالح بين الطرفين ، وقد تعددت مراحل هذا الصراع ، الذى عرف بالحروب السمنية ، ولكن هذا الصراع الطويل انتهى بعقد صلح بين الطرفين فى عام ٢٩٠ ق.م. أصبح السمنيون بمقتضاه حلفاء للرومان[٤].

---

(1) Crawford., op. cit. p. 32 .

(2) C.A.H. VII. pp. 577 .

(3) Cary., op. cit . p. 87 .

(٤) عن الحروب السمنية انظر : Cary., op. cit. pp. 88ff .

ودانت لهم منطقة وسط إيطاليا ، بعد أن بسطوا سيطرتهم على إقليم لاتيوم والمناطق الشمالية[١] .

لم تكتمل سيادة الرومان على إيطاليا ، إلا بعد أن فرضوا سيطرتهم على جنوب شبه الجزيرة الإيطالية ، ولتفصيل ذلك ، فإننا نتذكر أن هذه المنطقة كانت تحت سيطرة الإغريق ، الذين أقاموا فيها العديد من المدن والمستعمرات منذ وقت طويل ، ولم تلبث هذه المدن أن أخذت تتعرض لعدوان بعض الجماعات الإيطالية ، وقامت مدينة تارنتم Tarentum [٢]، كبرى المدن الإغريقية بالتصدى لهذا العدوان ، وأخذت تستنجد بالإغريق لتقديم المساعدة ، وقد خف إلى نجدتها ، بعض حكام الإغريق مثل ملك أسبرطة ، وفى عام ٣٣٤ ق.م. وهو نفس العام الذى بدأ فيه الإسكندر الأكبر مسيرته إلى الشرق ، فإن زوج شقيقته الإسكندر ملك إبيروس ، بدأ مسيرته فى اتجاه الغرب لمساعدة إغريق جنوب إيطاليا ، إلا أنه لقى حتفه فى أثناء الحروب مع الإيطاليين .

بعد وفاة الإسكندر ملك إبيروس ، حل محله بيرهوس Pyrrhus على عرش إبيروس ، ولم يلبث أن توجه إلى جنوب إيطاليا على رأس جيش عظيم [٣]. ومن ناحية أخرى فقد أدى ظهور القوات الرومانية فى جنوب إيطاليا إلى إثارة مخاوف مدينة تارنتم ، وفى عام ٢٨٢ق.م. وصل النفور بين روما وتارنتم إلى ذروته ، وكان السبب فى ذلك أن مدينة ثورى Thurii الإغريقية ، أرسلت إلى الرومان تطلب حمايتهم من هجوم بعض القبائل الإيطالية ، وسارع الرومان بإرسال أسطول صغير لمساعدة هذه المدينة ، وقد نظرت تارنتم إلى هذه الخطوة باعتبارها تدخلاً رومانيًا فى منطقة نفوذها ، وعلى الفور سارعت بإغراق الأسطول الرومانى ، وطرد القوة التى أرسلت إلى ثورى ، وطلب الرومان تعويضًا عن هذه الإهانة التى لحقت بهم ، إلا أن تارنتم التى ضمنت مساعدة بيرهوس ، رفضت هذا الطلب .

وصل بيرهوس إلى جنوب إيطاليا ، على رأس جيش يعد من أفضل جيوش العصر ، وفى عام ٢٨٠ ق.م. التقى مع الرومان فى موقعة هيراكليا Heraclea ، وقد واجه الرومان لأول

(1) Crawford., op. cit. p. 43 .
(2)Cary., op. cit. p. 94 .
(3)Crawford., op. cit. p. 43 .

مرة فى حياتهم سلاحًا جديداً ، هو سلاح الفيلة ، وتمكن بيرهوس من إحراز نصر هزيل[١]، خسر فى مقابله الكثير ، ثم واصل بيرهوس بعد ذلك تقدمه فى إقليم كمبانيا ولاتيوم ، أملاً فى تحقيق المزيد من الانتصارات على الرومان ، وبعد معركة أخرى مع الرومان لم تكن أفضل من سابقتها ، أدرك عبث الاستمرار فى الحرب ، فعرض التفاوض معهم ، وكان يسعى إلى تأمين حرية المدن الإغريقية ، فى جنوب إيطاليا ، إلا أن السناتو رفض هذا العرض ، بتشجيع من قرطاجة التى كانت تخشى من قيام بيرهوس بمساعدة إغريق جزيرة صقلية ، مما يؤدى إلى تهديد مصالحها فى هذه الجزيرة .

على الرغم من الفشل الذى منى به بيرهوس فى إيطاليا ، فإنه ذهب إلى صقلية لمساعدة الإغريق فيها ، وقضى فى هذه الجزيرة ثلاث سنوات ، وحينما عاد إلى إيطاليا كان جيشه فى حالة يرثى لها ، واشتبك مع الرومان ، ولكنه أدرك مدى الخسارة التى يتعرض لها ببقائه فى إيطاليا ، فقرر العودة إلى إبيروس تاركًا حامية فى مدينة تارنتم ، ولم يلبث أن قرر سحب هذه الحامية قبل وفاته فى عام ٢٧٢ ق.م. وقد سلمت الحامية مدينة تارنتم للرومان حتى تضمن سلامة انسحابها[٢] .

بدخول الرومان إلى مدينة تارنتم ، أصبحت منطقة جنوب إيطاليا بأكملها خاضعة للرومان، حيث كان قد سبق لهم أن أخضعوا الشعوب الإيطالية ، وعقدوا محالفات مع المدن الإغريقية ، وأقاموا المستعمرات الرومانية ، فى كافة أرجاء الإقليم ، وأخذت شهرة روما كقوة دولية تزداد، ولا يتضح ذلك فقط من خلال المعاهدة التى عقدتها مع قرطاجة ، بل أيضًا من خلال سعى بطلميوس الثانى ملك مصر إلى كسب صداقة روما ، وعقد معاهدة مع الرومان [٣].

روما وعالم البحر المتوسط :

الحرب البونية الأولى

فى أثناء انهماك روما فى توحيد شبه الجزيرة الإيطالية ، لم تكن تهتم كثيراً بالعالم الخارجى ، ولكن الأمر تغير بعد أن فرضت سيادتها على إيطاليا ، وتحولت إلى قوة دولية ،

---

(1) C.A.H. VII. p. 645 .

صارت عبارة " النصر البرهوسى " Pyrric Victory تعنى النصر الذى لا يختلف كثيراً عن الهزيمة .

(2) C.A.H. VII. p. 655 .

(3) Cary., op. cit.p. 96 .

فكان عليها أن تنظر إلى خارج حدودها ، وتتابع الأحداث التى تدور فى العالم الذى يحيط بها . وفى تلك الآونة ، كانت القوى الكبرى فى شرق البحر المتوسط ، هى دولة البطالمة فى مصر ، والدولة السلوقية فى سوريا وبلاد الرافدين ، ودولة مقدونيا فى بلاد اليونان ، أما فى غرب البحر المتوسط ، فكانت توجد دولة قرطاجة ، التى فرضت نفوذها على غرب البحر المتوسط ، من جزيرة صقلية شرقًا ، وحتى مضيق جبل طارق فى الغرب .

وقرطاجة هى فى الأصل مستعمرة أسسها فينيقيون ، من مدينة صور ، وكان موقع هذه المستعمرة على الساحل الشمالى لأفريقيا ، بالقرب من تونس الحالية ، وكان ذلك فى أواخر القرن التاسع ق.م. وقد أطلق الرومان على أهل هذه المستعمرة اسم " البونيقيون " (وهو تحريف لكلمة الفينيقيين) ، ومن المعروف أن الفينيقيين ملاحون مهرة ، وتجار نشطاء ، فأخذت هذه المستعمرة فى النمو ، ولم تلبث أن بسطت سيطرتها على مناطق واسعة فى شمال أفريقيا ، وامتدت هذه السيطرة إلى جنوب أسبانيا ، التى أقام فيها القرطاجيون مستعمرات جديدة ، لعل أشهرها مدينة قرطاجة الجديدة Nova Carthaga ، وكانت قرطاجة تملك أسطولاً عظيمًا (١).

كان الهدف الأول للسياسة الخارجية لدولة قرطاجة ، هو الحفاظ على مصالحها التجارية ، وفى هذا الإطار قامت بعقد معاهدات مع بعض المدن الساحلية فى إقليم إتروريا ، كما أبرمت معاهدتين تجاريتين مع روما عند منتصف القرن الرابع ق.م. بالإضافة إلى معاهدة عسكرية فى عام ٢٧٩ ق.م. ولكن مع ازدياد قوة روما ، لم يعد هناك مفر من وقوع الصدام بين هاتين القوتين (٢).

كان مسرح الصدام هو جزيرة صقلية (٣)، وهو بداية لصراع طويل الأمد ، بين روما وقرطاجة ، عرف بالحروب البونيقية أو البونية ، وقد بدأت أولى مراحل الحرب فى عام ٢٦٣ ق.م. حين أرسل الرومان جيشًا إلى صقلية ، لمحاصرة مدينة سيراكيوز ، وتمكن هذا الجيش من إجبار هيرون Hiero ملك سيراكيوز على فض تحالفه مع قرطاجة والتحالف مع الرومان ،

---

(١) أشاد أرسطو بدستور قرطاجة ، ونظامها السياسى ، ونوه بما كانت تتمتع به من استقرار سياسى وثروة اقتصادية ، انظر : Polyb. II, 11 .

(2) Cary., op. cit.p. 117 .

(3) C.A.H. VII. pp. 673 ff .

وبادرت قرطاجة بإرسال قواتها إلى صقلية ، لمناهضة هذا التحرك الرومانى ، غير أن قوات قرطاجة لقيت هزيمة على يد الرومان ، وفى خلال تلك الأحداث أدرك الرومان مدى الحاجة إلى بناء أسطول ، واكتمل بناء الأسطول الرومانى فى عام ٢٦٠ ق.م. وقد تجرأ هذا الأسطول الوليد على مهاجمة أسطول قرطاجة والاشتباك معه ، بل أحرز عليه العديد من الانتصارات[١]، مما شجع الرومان على إحكام قبضتهم على صقلية ، والتخلص من النفوذ القرطاجى فى الجزيرة.

ذهب الرومان إلى مدى أبعد فى تحديهم لقرطاجة ، حينما قرروا مهاجمتها فى عقر دارها[٢]، وفى عام ٢٥٦ ق.م. أرسلوا أسطولاً ، نجح فى أن يشق طريقه إلى شمال أفريقيا ، وتمكنت القوات الرومانية من هزيمة القرطاجيين ، مما اضطر قرطاجة إلى طلب الصلح ، ولكن القائد الرومانى عرض شروطًا جائرة للموافقة على الصلح ، وقد وجدت قرطاجة أنه من الأكرم لها أن ترفض هذه الشروط ، وأن تواصل القتال ، وعندما استأنف القرطاجيون القتال ، تمكنوا من إلحاق الهزيمة بالرومان ، وقام الأسطول الرومانى بالتقاط فلول الجيش الرومانى المهزوم ، بعد أن وقع قائده فى الأسر ، إلا أن هذا الأسطول تعرض فى طريق عودته لعاصفة هوجاء ، دمرت غالبية سفنه [٣].

تمكنت قرطاجة من التغلب على جوانب الضعف لديها ، وأعادت بناء أسطولها ، ونجحت فى استعادة سيادتها البحرية لبعض الوقت ، وفى عام ٢٤٧ ق.م. تولى قيادة قواتها فى صقلية قائد بارع هو هاملكار بركة Hamilcar Baraca[٤] الذى تمكن من الاستيلاء على بعض المواقع فى صقلية ، ولكن قرطاجة لم تقدم له الدعم المطلوب ، بل إنها أخذت فى تقليص حجم قواتها . وفى نفس الوقت كان الرومان قد التقطوا أنفاسهم ، وأصبحوا فى مركز أقوى ، مما أجبر قرطاجة على توقيع الصلح معهم فى عام ٢٤١ ق.م. وقد وضع هذا الصلح حداً للحرب البونية الأولى ، وكان من شروطه تنازل قرطاجة عن كافة ممتلكاتها فى صقلية ، وأن تدفع تعويضًا ماليًا كبيراً للرومان .

---

(1)C.A.H. VII. p. 679 .
(2) C.A.H. VII. p. 681 .
(3) Cary., op. cit.pp. 118 - 9 .
(4) Cary., op. cit .p. 120 .

حقق هذا الصلح سيطرة الرومان على غرب البحر المتوسط ، أما قرطاجة فقد انكمشت قوتها ، وكانت تعانى من مشاكل داخلية ، وكانت أخطر هذه المشاكل هو تمرد جنودها المرتزقة[١]. وقامت روما بتحويل ممتلكاتها فى جزيرة صقلية إلى ولاية رومانية ، كما استولت على جزيرتى سردينيا وكورسيكا .

وفى الشرق تزايد نشاط القراصنة فى البحر الأدرياتى ، واتخذوا من شاطىء الليريا Illyria (سواحل يوغسلافيا الحالية تقريبًا) قاعدة لعملياتهم[٢] . وأخذوا فى الاعتداء على المدن الإغريقية فى البلقان ، بل ذهبوا إلي مدى أبعد حين هاجموا شواطىء إيطاليا ، مما أثار حفيظة الرومان ، وجعلهم يقررون وضع حد لهذا العدوان ، فقاموا بضرب قواعد القراصنة والاستيلاء عليها .

كانت دولة مقدونيا تعتبر شبه جزيرة البلقان بأكملها ، منطقة نفوذ لها ، ومن ثم فقد أثار مخاوفها تدخل الرومان ، وبخاصة أنهم عند تعاملهم مع القراصنة فى الليريا تجاهلوها تمامًا ، وراحوا يقيمون علاقات صداقة مع أعدائها فى بلاد اليونان [٣]. ولكن مقدونيا على الرغم من مخاوفها لم تتدخل فى الحرب بين الرومان والليريا ، لأنها كانت تعانى من مشاكل داخلية، ولكن فى عام ٢٢٠ ق.م. جلس على عرش مقدونيا ملك شاب ، هو فيليب الخامس ، وكان رجلاً طموحًا أخذ يعمل على تدعيم مكانة بلاده ، وأثبت كفاءة فى التعامل مع أعداء مقدونيا، وأخذ يفكر فى كيفية طرد الرومان من إلليريا [٤].

وفى تلك الآونة ، كان الرومان يعانون من بعض المتاعب فى إيطاليا ، وكان مصدر هذه المتاعب الغال ، جيرانهم فى الشمال ، فعلى الرغم من أن الهدوء قد ساد علاقتهم بالرومان لفترة طويلة ، فإنهم باتوا يخشون من أن الانتصارات التى أحرزها الرومان ، قد تغريهم بالانقضاض عليهم ، فقرروا أن يأخذوا زمام المبادرة فى أيديهم ، فبادروا بالهجوم على إقليم إتروريا فى عام ٢٢٥ ق.م[٥]. إلا أن الرومان ردوهم على أعقابهم ، وألحقوا بهم خسائر فادحة ، وقرروا الاستيلاء على بلادهم ، حتى يجعلوا من جبال الألب الحدود الشمالية لدولتهم.

(1) Polyb. II. 75 ff.

(2) C.A.H. VII. pp. 825 ff; Walbank; op. cit. p. 227 .

(3) Cary., op. cit. p. 123 .

(4) C.A.H. VII. p. 851 .

(5) Cary., op. cit. p. 122 .

الحرب البونية الثانية :

كتب على الرومان أن يكونوا فى رباط دائم ، لإن بناء الدول ليس بالأمر الهين ، فإن دولة قرطاجة بعد أن فقدت ممتلكاتها فى جزيرة صقلية ، إضافة إلى خسارتها لجزيرتى سردينيا وكورسيكا ، حاولت تعويض هذه الخسارة عن طريق إعادة بناء قوتها فى أسبانيا ، ونجح القائد القرطاجى هامليكار فى بناء إمبراطورية قرطاجية فى أسبانيا(١) . ويرى بعض المؤرخين أن هدف هامليكار من وراء بناء هذه الإمبراطورية ، هو الأعداد للانتقام من الرومان الذين كان يحمل لهم حقداً دفيناً .

وفى عام ٢٢١ ق.م. تولى قيادة قرطاجة هانيبال Hanibal ، ابن هامليكار (٢)، وكان شاباً فى الخامسة والعشرين ، وقد ورث عن أبيه كراهيته للرومان . ولم تلبث الأحداث أن عجلت بالصدام بين هانيبال والرومان ، على أثر نشوب نزاع بين إحدى القبائل ومدينة ساجنتوم Saguntum ، وتدخل هانيبال إلى جانب تلك القبيلة ، وقد استنجدت مدينة ساجنتوم بالرومان فأرسل السناتو بعثة فى عام ٢١٩ ق.م. لإقناع هانيبال بعدم مهاجمة المدينة ، إلا أن هانيبال استنكر تدخل الرومان فى هذا الأمر ، وعندما توجه الرومان بالشكوى إلى حكومة قرطاجة ، أيدت هذه الأخيرة وجهة نظر هانيبال ، وكان هذا القائد يدرك تماماً أن الرومان سوف يحاولون طرد قرطاجة من أسبانيا ، إن آجلاً أو عاجلاً ، كما فعلوا من قبل فى صقلية وسردينيا وكورسيكا ، لذلك بادر بالهجوم على مدينة ساجنتوم ، وبعد حصار طويل استولى على المدينة فى خريف عام ٢١٩ ق.م. ، فانزعج السناتو لهذا الأمر وأرسل إلى قرطاجة مطالباً بتسليم هانيبال ، ولكن هذا الطلب قوبل بالرفض ، وكانت مسألة ساجنتوم سبباً لإعلان الحرب بين روما وقرطاجة (٣). وقررت روما إرسال جيش إلى أسبانيا بقيادة القنصل بوبليوس سكيبيو P.C.Scepio ، وإرسال جيش آخر بقيادة القنصل تيبيريوس سمبرونيوس لونجوس ، إلى صقلية تمهيداً لغزو قرطاجة . إلا أن هانيبال أربك خطط الرومان ، حين قرر إعداد خطة جريئة لمهاجمة الرومان فى عقر دارهم .

---

(1) C.A.H. VII. pp. 777 ff .

(2) C.A.H. VII. pp. 789 ff .

(3) Cary., op. cit. p. 125 .

قامت خطة هانيبال على الاتجاه إلى إيطاليا مباشرة [١]، وعبور جبال الألب ، ثم الانقضاض على شمال إيطاليا ، وكان يحدوه الأمل فى الحصول على مساعدة أعداء روما فى إيطاليا ، مثل الغال ، وفى عام ٢١٨ ق.م. بدأ هانيبال مسيرته ، وتمكن من عبور جبال الألب[٢]، واستطاع أن يهزم القوات الرومانية التى كانت بقيادة القنصلين ، مما شجع الغال على الانضمام إليه ، واضطر الرومان إلى إخلاء شمال إيطاليا .

أخذ هانيبال يستعد للتوغل إلى داخل إيطاليا ، وعندما تقدم تمكن من إحراز بعض الانتصارات ، وأصبح الطريق إلى روما مفتوحًا ، إلا أن هانيبال كان يدرك أن اقتحام روما يتطلب وجود معدات الحصار كان يفتقر إليها ، لذا قرر الاتجاه إلي جنوب إيطاليا لكى يتخذ منها قاعدة لعملياته [٣].

إزاء استشعار الرومان للخطر الذى بات يتهددهم ، قاموا باختيار أحد القادة المحنكين لوظيفة الدكتاتور [٤]، ويدعى كوينتوس فابيوس ماكسيموس Q Fabius Maximus ، وقد آثر هذا الدكتاتور إطالة أمد الحرب ، وعدم الدخول فى مواجهة مباشرة مع هانيبال ، والعمل على استنزاف قواه ، من خلال طريقه أشبه بحرب العصابات ، وقد أثمرت هذه الخطة ، وتحرج موقف هانيبال ، لأن الكثير من المدن أغلقت أبوابها أمامه ورفضت أن تتعاون معه ، إلا أن الرومان ضاقوا ذرعًا ، ونفذ صبرهم ، وأطلقوا على فابيوس لقب المتباطىء Cunctator .

قرر الرومان أن يحشدوا جيشًا كبيراً فى عام ٢١٦ ق.م. واسندوا قيادته إلى القنصلين ، وطالبوهما بخوض معركة فاصلة مع هانيبال ، وقد جرت معركة فاصلة بين الطرفين عند سهل كاناى Cannae ، وعلى الرغم من أن الجيش الرومانى كان يتفوق على جيش هانيبال من حيث العدد ، إلا أن هذا القائد العبقرى استطاع أن ينزل هزيمة قاسية بالرومان [٤].

أدى هذا النصر إلى تعزيز مكانة هانيبال ، وفى المقابل تدهورت هيبة الرومان ، مما شجع بعض أعدائهم على المجاهرة بعدائهم ، فقام فيليب الخامس ملك مقدونيا بعقد محالفة مع

---

(1) Cary., op. cit. p. 127 .
(2) Crawford., p. 50 .
(3) Cary., op. cit. p. 131 .
(4) C.A.H. VIII. p. 48 .
(5) C.A.H. VIII. pp. 54 - 5 .

هانيبال فى عام ٢١٥ ق.م[(١)]، وأخذ يتحرش بالممتلكات الرومانية فى البلقان ، وازدادت تطلعاته إلى طرد الرومان من هذه المنطقة ، كما قام ملك سيراكيوز فى صقلية بعقد تحالف مع قرطاجة [(٢)].

لم يتعظ الرومان من النكبات التى حلت بهم ، على الرغم من أن هانيبال أخذ يتحداهم إلى الدخول فى مواجهة مباشرة ، فزحف باتجاه روما وأقام معسكره على مقربة من المدينة ، إلا أنه آثر الانسحاب بعد ذلك ، ونشطت الدبلوماسية الرومانية لإجهاض التحالف بين فيليب الخامس وهانيبال ، فشجعت أعداء فيليب فى بلاد اليونان على مهاجمة ممتلكاته ، مما أدى إلى قيام الحرب المقدونية الأولى (٢١٢ - ٢٠٦ ق.م) ، وفى عام ٢١٣ ق.م. أرسلت روما جيشًا إلى سيراكيوز ، تمكن من التغلب عليها بفضل الخيانة [(٣)].

بحلول عام ٢١١ ق.م. تمكن الرومان من السيطرة على جنوب إيطاليا ، وقطعوا الاتصال بين هانيبال وحلفائه فى الشمال ، وأصبح أمل هانيبال ينحصر فى وصول نجدة إليه من أسبانيا ، وعندما خف شقيقه على رأس جيش لنجدته ، استطاع الرومان هزيمة هذا الجيش وقتل شقيق هانيبال ، وكانت الطريقة التى أبلغ بها هانيبال بنبأ الهزيمة شديدة الوحشية ، إذ أنه فوجىء بمن يلقى برأس شقيقه داخل معسكره ، أخذها هانيبال بعد ذلك يفكر جديًا فى الانسحاب من إيطاليا ، وبخاصة بعد أن صدرت إليه الأوامر بالعودة إلى قرطاجة فى عام ٢٠٣ق.م.

كان السناتو الرومانى قد اتخذ قرارًا بإرسال جيش إلى أسبانيا ، واختار لقيادته بوبليوس كورنليوس سكبيو ، وهو شاب فى الخامسة والعشرين ، كان أبوه قنصلاً لقى حتفه فى الحرب مع القرطاجيين ، ولم يلبث هذا الشاب أن أثبت كفاءة نادرة ، وتمكن من الاستيلاء على كافة ممتلكات قرطاجة فى أسبانيا [(٤)]، وأخذ فى إقناع السناتو بضرورة غزو قرطاجة ، وقد وافق الرومان على اقتراح سكبيو ، وفى عام ٢٠٤ ق.م. نزل هذا القائد على رأس قواته على

---

(1) Cary., op. cit. p. 132; Walbank, op. cit. p. 231 .

(2) C.A.H. VIII. p. 64 .

(3) Crawford., op. cit. p. 52 .

(4) C.A.H. VIII. p. 91 .

الشاطىء الإفريقى بالقرب من قرطاجة (١)، وبعد عدة مناوشات ، خاض سكبيو حربًا مباشرة مع القرطاجيين ، الذين وجدوا أنفسهم فى موقف حرج ، فقاموا باستدعاء هانيبال (٢).

على الرغم من توقيع معاهدة صلح بين الرومان وقرطاجة ، إلا أن القرطاجيين بعد عودة بطلهم وفارسهم الذى لا يشق له غبار ، هانيبال ، عادت إليهم الثقة فى أنفسهم ، مما شجعهم على نقض المعاهدة ، واستئناف القتال . وفى عام ٢٠٢ق.م. التقى الجيش الرومانى تحت قيادة سكبيو ، مع جيش قرطاجة الذى كان يتولى قيادته هانيبال عند زاما Zama ، وقد أحرز سكبيو نصراً باهراً على خصمه ، إثر معركة لقى فيها القرطاجيون هزيمة منكرة ، وأفلت هانبيال من الموت بصعوبة (٣).

على أثر الهزيمة قبلت قرطاجة صاغرة ، توقيع صلح مهين مع الرومان ، تنازلت فيه عن كافة ممتلكاتها الخارجية ، وتعهدت بدفع غرامة مالية للرومان وتسليمهم جميع سفنها الحربية، مع الاحتفاظ بعشر سفن فقط ، واحتفل الرومان بهذا النصر المبين ، وكرموا سكبيو بأن أطلقوا عليه لقب الإفريقى Africanus ، وأصبح للرومان اليد العليا فى غرب البحر المتوسط(٤).

الأحوال فى منطقة شرق البحر المتوسط :

شهدت منطقة شرق البحر المتوسط نزاعًا مريراً بين دولة البطالمة فى مصر والدولة السلوقية فى سوريا ، وقد كان سبب النزاع الخلاف حول إقليم جوف سوريا ، ومن ناحية أخرى تنافست هاتان الدولتان مع مملكة مقدونيا ، على بسط النفوذ على بحر إيجة ، الذى كان يمثل مركز الثقل السياسى فى العالم الهللينيستى .

بعد وفاة بطلميوس الرابع ورث العرش طفل صغير ، مما شجع كل من أنطيوخس الثالث الملك السلوقى ، وفيليب الخامس ملك مقدونيا على تحقيق أطماعهما ، فقاما بتوقيع اتفاقية لاقتسام ممتلكات مصر الخارجية ، واستولى أنطيوخس على جوف سوريا ، أما فيليب الخامس فقد انقض على ممتلكات مصر فى بلاد اليونان .

---

(1) C.A.H. VIII. p. 96 .
(2) Cary., op. cit. p. 136 .
(3) C.A.H. VIII.p. 106 .
(4) C.A.H. VIII. p. 108 .

لم يكن بمقدور روما أن تقف موقف المتفرج أمام تعاظم قوة هذين الملكين ، كما أنها لم تنس لفيليب موقفه العدائى ، حينما قام بالتحالف مع عدوها اللدود هانيبال ، وسعيه الدؤوب إلى إبعادها عن بلاد اليونان ، فأخذت تراقب الموقف عن كثب ، وتلقفت بمزيد من الترحيب طلب كل من دولة برجامة وجزيرة رودس لمساعدتها ضد فيليب [١]، فأخذت تدس أنفها فى شئون شرق البحر المتوسط .

على الرغم من أن روما خرجت منهوكة القوى من الحرب البونية الثانية ، إلا أن الخوف من فيليب كان يقلق الرومان ، فراحوا يشجعون أعداءه فى بلاد اليونان ، ويعملون على استفزازه بكافة الوسائل ، ووجهوا إليه إنذاراً بعدم التدخل فى شئون المدن الإغريقية [٢]. وعندما رفض فيليب هذا الإنذار ، كان هذا مبرراً كافيًا لدى الرومان لإعلان الحرب عليه ، وهى التى عرفت بالحرب المقدونية الثانية ، والتى انتهت بموقعة " رؤوس الكلاب " Kynoskephalae فى عام ١٩٧ ق.م. وهى الموقعة التى لقى فيها فيليب هزيمة نكراء على يد الرومان .

وبعد وفاة فيليب آل عرش مقدونيا إلى ابنه برسيوس Perseus ، الذى استأنف سياسة العداء للرومان ، مما اضطرهم إلى محاربته ، وهزيمته فى موقعة بودنا Pydna فى عام ١٦٨ ق.م. وسيق أسيراً إلى روما ، وبقى فيها حتى فارق الحياة . وقام الرومان بتقسيم مقدونيا إلى أربع جمهوريات مستقلة ، وتلى ذلك ظهور أحد الأشخاص ، الذى ادعى أنه ابن الملك برسيوس ، وأن له الحق فى إعادة توحيد مقدونيا ، وكان ذلك سببًا فى قيام الحرب المقدونية الرابعة ، حيث اضطرت روما إلى محاربة هذا المدعى ، وهزيمته ، ثم قامت بعد ذلك فى عام ١٤٨ ق.م. بتحويل مقدونيا إلى ولاية رومانية ، وهكذا سقطت مملكة مقدونيا ، أما فيما يتعلق بالمملكتين الأخريتين ، أى مملكتا البطالمة والسلوقيين ، فإننا سنعود إلى الحديث عن أمرهما مع الرومان فى موضع لاحق ، ولكن قبل ذلك نود أن نعود إلى الغرب مرة أخرى ، لكى نرى كيف تمكنت روما من إحكام سيطرتها على غرب البحر المتوسط ، ونلقى نظرة على المراحل الأخيرة لعلاقتها مع قرطاجة .

---

(1) C.A.H. VIII. pp. 96155-161.

(2) Crawford., op. cit. p. 62 .

الحرب البونية الثالثة :

كان من بين شروط الصلح الذى أبرمه الرومان مع قرطاجة ، عقب الحرب البونية الثانية فى عام ٢٠١ ق.م. شرطان كان أولهما ألا تقوم قرطاجة بشن أى حرب ، إلا بعد موافقة الرومان ، أما الشرط الآخر فكان يفرض على قرطاجة أن تعيد إلى ماسينيسا Massinsa ملك نوميديا (الجزائر الحالية) كل ممتلكات أسلافه [١]. وقد حرصت قرطاجة منذ إنتهاء الحرب البونية الثانية ، على عدم استثارة الرومان ، بل أخذت تعمل على استرضائهم فى كثير من الأحيان ، وقد استطاعت أن تنعم بفترة من السلام والاستقرار ، مما ساعدها على تحقيق قدر ملحوظ من الرخاء الاقتصادى ، فشعر الرومان بحالة من القلق نتيجة لهذا الرخاء ، وباتوا يخشون من استعادة قرطاجة لقوتها مرة أخرى ، وأخذوا يختلقون الذرائع من أجل القضاء عليها ، وأخذ أعداء هانيبال يتآمرون عليه ، فاتهموه أمام السناتو بأنه يشارك أعداء روما فى التآمر عليها ، فأرسل السناتو بعثة إلى قرطاجة ، لتقديم شكوى أمام سلطات قرطاجة ضد هانيبال . وعندئذ أدرك هانيبال أن من الأفضل له أن ينجو بحياته ، فبادر بالفرار من قرطاجة [٢].

كان ماسينيسا ملك نوميديا يحمل حقداً دفيناً على قرطاجة ، ويحلم ببناء إمبراطورية فى شمال أفريقيا ، وكانت قرطاجة تمثل العقبة الكؤود أمام تحقيق طموحاته ، وقد أحس بخوف الرومان من قرطاجة ، ورغبتهم فى تدميرها ، فراح يغذى شكوكهم تجاه القرطاجيين ، ويحرضهم ضدهم ، وأخذ يتحرش بممتلكات قرطاجة ، التى لم تجد أمامها غير الشكوى للرومان ، وفى عام ١٥٥ ق.م. قام السناتو بإرسال بعثة للتحقيق فى تلك الشكوى ، وكانت البعثة بقيادة أحد السياسيين البارزين ، وهو كاتو الأكبر Cato ، وعندما وصلت البعثة إلى قرطاجة ، أثار انبهار أعضاء البعثة حالة الثراء التى وجدوا عليها قرطاجة ، على الرغم من تعرضها للهزيمة مرتين ، كما ساورتهم الشكوك حول تفكير قرطاجة فى إعادة بناء قوتها ، وأخذ كاتو يحرض الرومان ضد قرطاجة ، ويردد عبارته الشهيرة أمام السناتو " قرطاجة يجب أن تدمر " delenda est Carthago " [٣].

---

(1) C.A.H. VIII. pp. 155-161.

(2) Cary., op. cit. p. 147 .

(3) Cary., op. cit. p. 148 .

لم يدخر ماسينيسا وسعًا لاستثارة قرطاجة ، والتدخل فى شئونها الداخلية ، وبعد أن تحمل القرطاجيون كثيراً ، نفذ صبرهم ، واضطروا لإعلان الحرب عليه (١)، ولكنه تمكن من إلحاق الهزيمة بجيش قرطاجى فى عام ١٥٠ ق.م. وعلى الرغم من ذلك بادر الرومان بحشد قواتهم لمحاربة قرطاجة ، بحجة أنها خرقت شروط الصلح ، التى تقضى بعدم قيامها بشن الحرب إلا بعد استئذان روما .

أدركت قرطاجة أبعاد المؤامرة التى تحاك ضدها ، وأن النية مبيتة على تدميرها ، والقضاء عليها قضاء مبرمًا ، فسارعت بإعلان استعدادها التام للاستسلام ، ولكن الرومان إمعانًا فى إذلال قرطاجة ، طلبوا منها تسليم ٣٠٠ من قادتها ، وتسليم كافة الأسلحة ، وأن يقوم القرطاجيون بإخلاء المدينة ، والإقامة بعيداً عن البحر ، مما يعنى الحكم على هذه الدولة بالإعدام ، نظراً لأنها تعتمد على التجارة البحرية .

رفضت قرطاجة هذه المطالب الجائرة ، وأخذت تستعد بشكل يائس للدخول فى مواجهة كانت نتائجها معروفة سلفًا ، وعلى الرغم من حالة الوهن التى كانت عليها قرطاجة ، فقد أثبتت أنها ليست فريسة سهلة ، يستطيع الرومان ابتلاعها بسهولة ، فقد قاومت ببسالة لمدة أربعة أعوام . وفى عام ١٤٨ ق.م. عهد الرومان بالقيادة العسكرية فى حرب قرطاجة ، إلى شاب بارع هو سكبيو أيميليانوس Scepio Aemelianus، الذى أظهر نبوغًا فى القيادة العسكرية ، فهزم القرطاجيين ، واقتحم مدينتهم فى عام ١٤٦ ق.م. وخاض جنوده حربًا فى شوارع المدينة ومنازلها ، إلى أن سقطت المدينة بعد مقاومة باسلة ، وانتقم الرومان من أهل قرطاجة انتقامًا بشعًا ، فقاموا ببيع خمسين ألفًا من مواطنيها فى أسواق النخاسة ، وتم تسوية مبانى المدينة بالأرض ، وهكذا انتهت أسطورة قرطاجة إلى الأبد ، وأصبح الرومان قادرين على النوم فى سلام ، بعد أن زال هذا الكابوس ، الذى كان يقض مضاجعهم ، وتم تحويل قرطاجة إلى ولاية رومانية ، هى ولاية أفريقيا Provencia Africa(٢).

---

(1) C.A.H. VIII. p. 476.

(2) C.A.H.VIII. p. 484 .

الفصل الخامس
مصر ولاية رومانية

تحدثنا فى الصفحات الماضية عن قيام الدولة الرومانية ، ورأينا كيف تحولت روما من مدينة صغيرة قامت على ضفاف نهر التايبر ، إلى دولة شملت كافة شبه الجزيرة الإيطالية ، وفى سبيل تحقيق ذلك ، اضطر الرومان إلى خوض غمار حروب مريرة ، من أجل الحفاظ على مصالحهم ، والذود عن دولتهم ، مثل الحروب البونية ، التى انتهت بانتصار الرومان على قرطاجة ، والقضاء على هذه الدولة قضاءً مبرمًا ، وتحويلها إلى ولاية رومانية . وقد كانت الحروب البونية سببًا مباشرًا فى جذب اهتمام الرومان لمنطقة شرق البحر المتوسط ، ومتابعة ما يدور فيها ، وقد دفعهم إلي هذا الأمر تورط فيليب الخامس ملك مقدونيا ، فى التحالف مع هانيبال ، عدوهم اللدود ، واضطر الرومان إلى خوض سلسلة من الحروب عرفت باسم الحروب المقدونية ، انتهت بتدمير مملكة مقدونيا ، وتحويلها إلى ولاية رومانية .

لم يعد أمام الرومان بعد أن تفتحت شهيتهم لمزيد من التوسع ، سوى دولة البطالمة فى مصر ، والدولة السلوقية [1]، فوضعوا سياسة قوامها العمل على إضعاف هاتين الدولتين ، والتدخل فى شئونهما ، وكان يصيبهم الهلع فى بعض الأحيان ، إذا ما اعتلى العرش فى إحدى هاتين الدولتين ملك قوى . وقد تحققت مآرب الرومان عندما نجحوا فى إسقاط الدولة السلوقية فى عام ٦٤ ق.م. وأخذوا بعد ذلك يتربصون بدولة البطالمة ، ويتحينون الفرصة

---

(١) لما كان هدفنا هو دراسة أحوال الشرق الأدنى فى ظل الحكم الرومانى فإننا نركز فقط على علاقة الرومان بدولة البطالمة فى مصر ، والدولة السلوقية فى سوريا وبلاد الرافدين ، وليس من شأننا أن ندخل فى تفاصيل أخرى حول التوسع الرومانى فى مناطق أخرى مثل البلقان أو آسيا الصغرى .

للانقضاض عليها ، إلى أن تمكنوا فى النهاية من إسقاط دولة البطالمة ، وتحويل مصر إلى ولاية رومانية . ولما كان الهدف الذى نرمى إليه فى الصفحات التالية ، هو دراسة تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، فإننا نجد أنه من الضرورى أن نجيب على سؤال مفاده كيف أصبحت مصر ولاية رومانية ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضى منا أن نعود إلى الوراء ، لكى نتتبع تطور العلاقة بين روما ودولة البطالمة [(١)]، وقد يضطرنا هذا الأمر إلى ذكر وقائع سبق لنا أن عالجناها فى معرض حديثنا عن تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، إلا أننا نذكرها الآن فى إطار محدد ، يقتصر على العلاقات الرومانية المصرية . ويمكن القول بأن هذه العلاقات مرت بثلاث مراحل ، ففى المرحلة الأولى ، قامت علاقات متوازنة بين الطرفين ، حيث كانت مصر دولة قوية لها مكانتها الدولية ، بينما كانت روما دولة ناهضة ، أما المرحلة الثانية فقد شهدت بداية التدخل الرومانى فى شئون مصر الداخلية ، بعد أن أخذت عوامل الضعف تدب فى أوصال دولة البطالمة ، لأسباب فصلناها من قبل ، أما المرحلة الثالثة والأخيرة ، فهى مرحلة الهيمنة الرومانية على مصر ، وفى هذه المرحلة تحولت مصر إلى دولة ضعيفة مهيضة الجناح ، بينما تحولت روما إلى قوة عالمية ، وهى المرحلة التى انتهت بتحويل مصر إلى ولاية رومانية ، والآن نعود إلى الحديث عن هذه المراحل تفصيلاً .

المرحلة الأولى :

ترجع بداية العلاقات بين مصر وروما إلى عهد بطليموس فيلادلفوس ، فقد أدرك هذا الملك أهمية هذه الدولة الوليدة ، فبادر بإرسال بعثة إلى روما فى عام ٢٧٣ ق.م. وكانت روما آنذاك قد فرغت لتوها من إحكام قبضتها على شبه الجزيرة الإيطالية ، ودخلت قواتها آخر معاقل المقاومة ، وهى مدينة تارنتم ، فى جنوب إيطاليا ، وردت روما على المبادرة المصرية بإرسال بعثة إلى مصر فى العام ذاته .، وقد ثار جدل بين الباحثين حول الغرض من تبادل هذه

---

(١) أفضل معالجة لهذا الموضوع هى التى قدمها الدكتور عبد اللطيف أحمد على . انظر : عبد اللطيف أحمد على ، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، ص : ١ - ٣٠ .

البعثات بين الطرفين ، ولكن مما لاشك فيه أن هناك اعتبارات سياسية واقتصادية ، أملت على الطرفين السعى نحو إقامة علاقات بينهما (١).

ويذكر المؤرخ بوليبيوس أنه فى فترة تقع مابين عامى ٢١٥ ، ٢١٠ ق.م. تهددت روما بالمجاعة ، بسبب قيام هانيبال بتدمير حقول القمح فى إيطاليا ، مما دفع الرومان إلى إرسال طلب إلى بطلميوس الرابع ملك مصر ، لتزويدها بشحنات من القمح (٢). ومع بدايات القرن الثانى ق.م. ازدادت العلاقات التجارية بين مصر وروما توثقًا ، وكان يوجد فى الإسكندرية الكثيرون من التجار الرومان والإيطاليين (٣).

وقد أورد الدكتور عبد اللطيف أحمد على نصًا للمؤرخ يوتروبيوس Eutropius ، يقول أن الرومان بعد أن خرجوا من الحرب البونية الأولى منتصرين ، أرسلوا سفراء إلى بطليموس يورجيتيس الأول ملك مصر ، وعرضوا عليه مساعدتهم فى حربه ضد أنطيوخس ملك سوريا ، الذى عليه الحرب ، إلا أن ملك مصر شكرهم على هذا العرض ، لأن القتال كان قد انتهى(٤). ولكن هذه الرواية لا تلقى قبولاً لدى غالبية المؤرخين .

كما أورد المؤرخ ليڤيوس Livius رواية أخرى ، جاء فيها أن الرومان فى أعقاب انتصارهم على هانيبال فى موقعة زاما Zama فى عام ٢٠٢ ق.م. أرسلوا بعثة إلى بطلميوس الخامس ، لكى يعلنوا له نبأ هذا الانتصار ، ولكى يتقدموا له بالشكر على موقفه الطيب خلال الحرب البونية الثانية ، وقد عبروا عن أملهم فى أن يظل على موقفه تجاههم ، خلال الحرب المتوقعة بينهم وبين فيليب الخامس ملك مقدونيا(٥) . وفى محاولة منه للإعراب عن

---

(١) عن العلاقات الرومانية المصرية فى القرن الثالث ق.م. انظر : Neatby.L.H., Romano-Egyptian Relations during the third Century B.C., T.A.P.A.81, 1950 .

(2) Polyb. IX. 11.a .

(3) Fraser, op. cit. p. 155 .

(٤) عبد اللطيف أحمد على . المرجع السابق ، ص ٤ ؛ لسنا ندرى من هو المقصود بأنطيوخس ملك سوريا ، rex Syriac Antiochus الذى ورد ذكره فى هذا النص ، فإن الحرب السورية الثالثة التى خاضها بطلميوس يورجتيس ، نشبت بعد وفاة أنطيوخس الثانى ، وقد اضطر الملك البطلمى إلى العودة إلى مصر ، بعد أن وقع اتفاقًا مع الملك الجديد سلوقس الثانى فى عام ١٤١ ق.م.

(5) Livius. XXXI, 2, 3-4 .

حسن نواياه ، قام بطلميوس الخامس بإرسال بعثة إلى روما ، لكى يخبر السناتو بأن أهل مدينة أثينا طلبوا معونته ضد تهديدات فيليب الخامس ملك مقدونيا ، وأنه على استعداد لتلبية هذا الطلب ، إذا ما وافق الرومان على ذلك ، وقد شكره الرومان على هذا الموقف ، وأخبروه أن بإمكانهم تقديم العون إلى أصدقائهم الأثينيين ، إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

ومما هو جدير بالذكر أن الملك السلوقى أنطيوخس الثالث ، كان قد استغل فرصة انشغال الرومان فى الحرب مع فيليب الخامس ، وقام بانتزاع إقليم جوف سوريا من مصر فى عام ٢٠٠ ق.م، ولم يكن من المتوقع أن يقف الرومان مكتوفى الأيدى أمام هذه الخطوة ، وكان لابد لهم أن يحاسبوا أنطيوخس الثالث على هذا الموقف ، بعد أن يفرغوا من حربهم مع فيليب الخامس.

وعلى الرغم من رباط المصاهرة بين أنطيوخس الثالث وبطلميوس الخامس ، فإن هذا الأخير إدراكًا منه للخطر الذى يمثله أنطيوخس ، بادر بإرسال بعثة إلى روما ، لكى يعرب للرومان عن مخاوفه من الملك السلوقى ، وعزز هذا الموقف بإرسال هدية من القمح والمال للرومان ، وعرض عليهم أن يضع موارد مصر تحت تصرفهم ، إذا ما نشبت الحرب بينهم وبين أنطيوخس الثالث ، وقد اعتذر الرومان عن عدم قبول عرض الملك البطلمى (١).

لم تكن السياسة التى اتبعتها روما إزاء كل من فيليب الخامس وأنطيوخس الثالث ، مردها الحرص على مصالح مصر ، بل الحفاظ على مبدأ توازن القوى فى شرق البحر المتوسط، ومما لا شك فيه أن قيام أنطيوخس الثالث بانتزاع إقليم جوف سوريا من مصر ، يعد إخلالاً بهذا المبدأ ، ومن ناحية أخرى فإن تحركات الملك السلوقى فى اسيا الصغرى وبلاد اليونان ، أثارت مخاوف الرومان ، فبدأوا فى استدراجه ، وأخذوا فى التحرش به ، حتى تمكنوا من إيقاع هزيمة قاصمة به فى موقعة ماجنيسيا فى عام ١٨٩ ق.م. وأجبروه على توقيع صلح مهين، وهو صلح أباميا Apamia الذى جرى توقيعه فى عام ١٨٨ ق.م، وهو الصلح الذى جعل لروما الكلمة العليا فى شئون العالم الهللينيستى .

وعلى الرغم من الضربة التى وجهتها روما إلى الدولة السلوقية ، فإن أطماع الملوك السلوقيين فى مصر لم تتوقف ، ففى عام ١٧٠ ق.م. قام أنطيوخس الرابع بغزو مصر ، وإذا كانت الاضطرابات التى أثارها اليهود فى فلسطين قد اضطرته إلى الانسحاب من مصر لبعض

---

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

الوقت ، فإنه لم يلبث أن عاود غزوها مرة أخرى فى عام ١٦٨ ق.م. وكانت الحجة التى تذرع بها أنطيوخس لغزو مصر ، هى المحافظة على حقوق الملك البطلمى فيلوميتور ، ابن شقيقته الملكة كليوباترة الأولى ، ولكن ما يفضح نواياه الحقيقية ، قيامه بتنصيب نفسه فى منف على نهج الفراعنة ، سائراً على درب الإسكندر الأكبر ، وقد واصل بعد ذلك سيره وحاصر مدينة الإسكندرية .

لم يكن الرومان بمنأى عما يحدث فى مصر ، على الرغم من انشغالهم بالحرب المقدونية الثالثة ، وبعد أن تأكد انتصارهم فى هذه الحرب ، فإنهم تلقوا بمزيد من الترحيب الطلب الذى تقدم به ملك مصر وأشقاؤه للمساعدة فى إخراج أنطيوخس الرابع من مصر ، فأجبروا الملك السلوقى على الخروج من مصر بطريقة مهينة ، من خلال الأسلوب الذى أطلق عليه الأستاذ روستوفتزف ، أسلوب الدبلوماسية الوقحة [١].

المرحلة الثانية :

إذا كانت دائرة بوبليوس قد أنقذت مصر من الاحتلال السلوقى ، فإنها أوقعتها فى خطر أشد ، وهو التسلط الرومانى ، فقد انتقلت العلاقة بين مصر وروما إلى طور جديد ، ونصب الرومان من أنفسهم أوصياء على مصر[٢] ، وأعطوا لأنفسهم الحق فى التدخل فى شئونها الداخلية ، وقد ساعدهم على ذلك الظروف الداخلية فى مصر ، وعلى رأسها الصراعات بين أبناء البيت المالك ، التى فتحت الباب على مصراعيه أمام التدخل الخارجى ، فقد صارت روما هى الملاذ الذى يحتمى به أبناء البيت المالك كلما واجهتهم مشكلة . ولم يلبث الخلاف أن ثار بين بطلميوس السادس فيلوميتور وشقيقه الأصغر ، الذى كان شريكه فى الحكم من الناحية الرسمية ، فقد انتهز الشقيق الأصغر فرصة إنشغال الملك فى قمع ثورة قامت فى جنوب مصر ، وأخذ فى إثارة السكندريين ضده ، وعندما عاد الملك إلى الإسكندرية ، وجد

---

(1) Rostovtzeff., op. cit.p. 737 .

يقول الأستاذ بل Bell فى تعليقه على هذا الموقف " لقد كانت أساليب روما الدبلوماسية تفتقر إلى الذوق والكياسة فى بعض الأحيان ، إن لم توصف بالشراسة ، ولكن قوتها كانت أخطر من أن يتحداها إنسان" انظر : بل : المرجع السابق ص٨٤٠ .

(2) Bowman., op. cit. p. 32 .

نفسه مخلوعًا من العرش ، فتوجه على الفور إلى روما ، لكى يشكو شقيقه إلى الرومان ، ويطلب منهم مساعدته فى استرداد عرشه (١).

وجد الرومان فى هذا الموقف فرصة مواتية لإضعاف دولة البطالمة ، وبدلاً من العمل على رأب الصدع ، فإنهم قضوا بتقسيم المملكة بين الأخوين ، ونصحوا فيلوميتور بأن يتوجه إلى جزيرة قبرص ، وأن يبقى فيها انتظاراً لما ستسفر عنه جهود البعثة التى قرروا إرسالها إلى الإسكندرية ، إلا أن فيلوميتور لم يمكث طويلاً فى قبرص ، فسرعان ماثار السكندريون على شقيقه الأصغر ، وكادوا أن يفتكوا به ، بسبب طغيانه وتجبره ، وأرسلوا إلى فيلوميتور لكى يعود إلى العرش مرة أخرى .

بعودة فيلوميتور إلى العرش ، انتفى الغرض من وجود البعثة الرومانية فى الإسكندرية ، ولكن يبدو أن الرومان كانوا قد عقدوا العزم على تنفيذ مخططاتهم الرامية التى تقسيم دولة البطالمة ، فطلبوا من فيلوميتور أن يتنازل لشقيقه عن قورينائية (برقة) ، وقد استجاب الملك البطلمى لهذا الطلب ، آملاً فى أن يفوز برضاء الرومان ، وأن يؤدى ذلك إلى هدوء الأحوال ، وقام بتوقيع معاهدة مع شقيقه فى عام ١٦٣ ق.م. وقد تقرر بمقتضى هذه المعاهدة أن يحكم فيلوميتور مصر وجزيرة قبرص ، وأن تصبح قورينائية من نصيب شقيقه الأصغر .

لم يقنع بطلميوس الصغير بقورينائية ، وفى عام ١٦٢ ق.م. توجه إلى روما لكى يطالب بأن تكون جزيرة قبرص من نصيبه أيضًا ، وعلى الرغم من أن معاهدة عام ١٦٣ ق.م. كانت تحت رعاية الرومان ، إلا أنهم تنكروا لها ، وأيدوا حق بطلميوس الصغير فى المطالبة بجزيرة قبرص (٢)، وقرر السناتو ضم الجزيرة إلى قورينائية إلا أن هذا القرار لم يوضع موضع التنفيذ، لأن أهل قورنيائية ثاروا على بطلميوس الصغير ، فانشغل بهذه المشكلة ، تاركًا إلى حين المطالبة بجزيرة قبرص ، كما أن فيلوميتور تمسك ببنود اتفاقية عام ١٦٣ ق.م. ورفض أن يتنازل عن الجزيرة .

أثار هذا الموقف الأخير من فيلوميتور الرومان ، ورأوا فيه تحديًا لقرار السناتو ، وعندما أرسل فيلوميتور رسولاً إلى روما لكى يشرح وجهة نظره ، أعرضوا عنه ورفضوا مقابلته ، بل إنهم أمروه بمغادرة روما خلال خمسة أيام ، وبأن عليه أن يخبر سيده بأنه لم يعد حليفًا للرومان(٣).

---

(١) لطفى عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(2) Polyb. XXXI. 10 .

(3) Polyb. XXXI. 20 .



الإمبراطور أوغسطس

بعد أن تمكن بطلميوس الصغير من تسوية مشاكله فى قورينائية ، عاد إلى المطالبة بجزيرة قبرص فى عام ١٥٤ ق.م. فذهب إلى روما ومُثل أمام السناتو بطريقة مسرحية ، حيث كشف عن جسده ، عارضًا على أعضاء السناتو آثار طعنات على جسده ، مدعيًا أن شقيقه حاول اغتياله ، وحاول فيلوميتور أن يدفع عن نفسه هذه التهمة ، بإرسال مندوبين عنه ، ولكن السلطات الرومانية رفضت السماح لهؤلاء المندوبين بالمثول أمام السناتو ، وأصدر السناتو قراراً بتشكيل لجنة من خمسة أعضاء لمرافقة بطلميوس الصغير إلى قبرص ، وتنصيبه ملكًا على الجزيرة ، وأصدرت السلطات الرومانية أوامرها إلى حلفاء روما فى الشرق بأن يقدموا العون والتأييد إلى بطلميوس الصغير (١).

على الرغم من جهود الرومان لصالح بطلميوس الصغير ، فإن هذه الجهود لم تكلل بالنجاح، فقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، حيث أجهض أهل قبرص المخططات الرومانية، لأنهم كانوا يكرهون بطلميوس الصغير ، لما عرفوه عنه من طغيان وتجبر ، كما أن حلفاء روما أحجموا عن تقديم أى مساعدة له ، فلقى هزيمة نكراء ، ووقع أسيراً فى يد شقيقه فيلوميتور ، وقد كان هذا الأخير كريمًا معه إلى أبعد حد ، فعفا عنه ، وزوده بالمال وأعاده إلى قورينائية معززاً مكرمًا . أما الرومان فإنهم فقدوا حماسهم لتأييده ، لأنهم انشغلوا بمشاكل أخرى ، كانت تواجههم فى أسبانيا وشمال أفريقيا وبلاد اليونان .

لم تنجح المواقف النبيلة التى وقفها بطلميوس فيلوميتور تجاه شقيقه فى القضاء على نوازع الشر الكامنة فى نفس بطلميوس الصغير ، فإن هذا الشقيق ، الذى جبل على الخسة والدناءة ، قابل مواقف شقيقه بالجحود والنكران ، وأخذ يروج شائعة مفادها أن بطلميوس فيلوميتور يخطط للاستيلاء على قورينائية . وقد بلغت كراهية بطلميوس الصغير لشقيقه حداً جعله يوصى بأن تؤول مملكته للشعب الرومانى فى حالة عدم وجود وريث للعرش (٢).

لم يتم تنفيذ هذه الوصية مباشرة ، لأن بطلميوس الصغير اعتلى عرش مصر بعد وفاة فيلوميتور ، إلا أنه أورث مملكة قورنائية لابنه غير الشرعى بطلميوس أبيون Apion ، وقد كرر هذا الأخير وصية أبيه فى عام ٩٦ ق.م. وفى هذه المرة جرى تنفيذ الوصية ،

(1) Polyb. XXXIII. 11 .

(٢) عثر على نص هذه الوصية مدونًا على نقش فى منطقة شحات فى ليبيا ،انظر : S.E.G.IX, NO. 7.

ووضع الرومان أيديهم على قورينائية ، ثم حولوها بعد ذلك إلى ولاية رومانية فى عام ٧٤ق.م(١).

بعد أن جلس على عرش مصر صنيعة الرومان ، وخادمهم المطيع ، بطلميوس الصغير الذى حمل لقب يورجتيس الثانى ، ازداد اهتمامهم بمصر ، وتفتحت شهيتهم على ثرواتها ، فأخذ الساسة الرومان يتقاطرون على الإسكندرية ، فى زيارات ظاهرها توطيد أواصر الصداقة بين البلدين ، وباطنها التعرف على أحوال مصر الداخلية . فقد شهد عام ١٤٠ - ١٣٩ ق.م. وصول بعثة رومانية ، على رأسها القائد الشهير سكبيو أيميليانوس Scipio Aemilianus الذى دمر قطراجة ، وخلافًا لقواعد البروتوكول سارع الملك البطلمى باستقبال القائد الرومانى فى الميناء ، وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على المكانة العالية التى أصبحت للرومان فى مصر(٢) . وكان بطلميوس الثامن من ناحيته حريصًا أشد الحرص على استرضاء الرومان ، نظرًا لمواقفهم المساندة له فى السابق ، كما أنه كان يعول كثيراً على دعمهم له فى البقاء على العرش ، لأنه كان يعلم مدى كراهية الشعب له .

لم يكتف الضيف الرومانى بزيارة الإسكندرية ، ومقابلة المسئولين فيها ، بل حرص على الإبحار فى النيل حتى مدينة منف ، ومما لاشك فيه أنه قدم تقريراً وافيًا عن أوضاع مصر الداخلية ، لكى يساعد السناتو فى رسم سياسته تجاه مصر .

منذ ذلك الحين تواصلت زيارات الساسة الرومان لمصر ، وقد حرص رجال الإدارة فى الإسكندرية على توفير سبل الراحة لهؤلاء الزوار ، ويبدو هذا جليًا من نص حملته لنا بردية يرجع تاريخها إلى عام ١١٢ ق.م(٣). ويتضمن هذا النص رسالة بعث بها أحد كبار الموظفين فى الإسكندرية ، إلى أحد مرؤسيه فى مديرية أرسينوى (الفيوم) ، يخبره فيها بوصول أحد أعضاء السناتو الرومانى إلى الإسكندرية ، وبأن هذا الضيف يرغب فى زيارة مديرية أرسينوى، ويطلب منه إعداد استقبال يليق بمكانة هذا الزائر صاحب المكانة الرفيعة .

---

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١١ ؛ إبراهيم نصحى : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٥٧ .

(٢) لطفى عبد الوهاب يحيى : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

(3) P. Tebt. 33 .



الإمبراطور الرومانى فى مصر الفرعونية فى المعابد المصرية

ومن المرجح أن مثل هذه الزيارات أدت إلى زيادة معرفة الرومان بثروات مصر ، وأزكت رغبتهم فى الاستيلاء عليها ، فأخذوا فى اختلاق المعاذير للتدخل فى شئونها الداخلية . وقد ساعدهم على ذلك اضطراب الأحوال فى مصر . فإن بطلميوس الثامن أضاف إلى أخطائه الكثيرة خطأ فادحًا ، حينما ترك أمر الحكم فى يد زوجته المحبوبة لديه كليوباترة الثالثة ، وكانت امرأة متسلطة تعشق السلطة إلى حد كبير ، وقد انعكس ذلك فى تعاملها مع ولديها ، اللذين توليا العرش بعد ذلك وهما بطلميوس التاسع سوتير الثانى ، وبطلميوس العاشر الإسكندر الأول .

عند وفاة بطلميوس التاسع فى عام ٨٠ ق.م. لم يكن له ولد يرثه على العرش ، فأقام السكندريون ابنته برنيكى ملكة على البلاد ، ولكن الدكتاتور الرومانى سوللا Sulla بادر بإرسال أحد صنائعه ، وهو شاب ينتمى إلى الأسرة البطلمية ، وكان يعيش فى روما ، لكى يتولى العرش ، وقد اضطر السكندريون إلي قبول هذا الشاب صاغرين ، وزوجوه من برنيكى، وتولى العرش باسم الإسكندر الثانى (بطلميوس الحادى عشر) . ولكن هذا الشاب الخامل ما لبث أن غدر بزوجته وقتلها ، حتى ينفرد بالحكم ، مما أدى إلى ثورة شعب الإسكندرية ، وقام الأهالى بقتل الملك بعد حكم دام بضعة أيام فقط (١).

لما كان رجال البلاط فى الإسكندرية على يقين من أن الرومان لن يتركوا هذه الفرصة ، وسوف يحاولون بشتى الطرق التدخل فى مسألة شغل العرش البطلمى ، فقد أخذوا على عاتقهم أن يعملوا على تفويت هذه الفرصة عليهم ، فأخذوا فى البحث عن وريث من نسل البطالمة ، ووجدوا ضالتهم المنشودة فى ولدين غير شرعيين لبطلميوس التاسع ، كانا يعيشان فى آسيا الصغرى ، فبادروا باحضارهما إلى الإسكندرية ، حيث تقرر أن يتولى أكبرهما عرش مصر فى عام ٨٠ ق.م. وأن يصبح الشقيق الأصغر ملكًا على قبرص .

المرحلة الثالثة :

وهى المرحلة الأخيرة فى العلاقات بين مصر وروما ، والتى انتهت بسقوط دولة البطالمة ، واستيلاء الرومان على مصر . والتى مارس فيها الرومان هيمنة كاملة على شئون مصر . ولتفصيل ذلك نقول أن بطلميوس الثانى عشر اعتلى العرش فى عام ٨٠ ق.م. وحمل لقب

---

(١) إبراهيم نصحى : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٦٢ .

نيوس ديونيسيوس Neos Dionysos ، غير أن الناس أطلقوا عليه لقب الزمار " أوليتيس " Auletes ، لبراعته في العزف على المزمار . ولكن الرومان رفضوا الاعتراف به ، وادعوا أن بطلميوس الحادى عشر أوصى بأن تؤول مملكته للشعب الرومانى ، وهى وصية مختلقة ، وليس لها أساس من الواقع (١) ، ولما كان بطلميوس الزمار أضعف من أن يواجه الرومان ، فإنه أخذ يعمل على كسب رضاهم ، والحصول على اعترافهم بأن شكل ، ولجأ فى سبيل ذلك إلى وسائل مهينة ، وقد امتلأ قلبه رعبًا حينما قام الرومان بضم قورينائية ، وتحويلها إلى ولاية رومانية فى عام ٧٤ ق.م. وخاف من إقدامهم على نفس الخطوة تجاه مصر.

ومن ناحية أخرى فإن محاولات الرومان الرامية إلى الاستيلاء على مصر لم تتوقف ، وأصبحت هذه المسألة تحتل جانبًا هامًا من الصراع الجزبى فى روما ، ففى عام ٦٥ ق.م. تقدم كراسوس Crassus الرقيب بمشروع يقضى بفرض جزية سنوية على مصر ، بحجة أن ملكها الحالى خالف وصية الملك السابق ، الذى أوصى بالمملكة للرومان ، ولكن هذا المشروع لم يقدر له النجاح ، بسبب معارضة الخطيب شيشيرون ، الذى كانت تربطه علاقة حميمة بالقائد بومبى، ورأى أن نجاح كراسوس فى تمرير هذا القانون يعد انتصاراً للحزب الديمقراطى المناوىء لبومبى . وفى العام التالى أوعز كراسوس إلى أحد نقباء العامة بتقديم مشروع يقضى بضم مصر إلى الممتلكات الرومانية ، وكان مصير هذا المشروع مثل سابقه ، بعد أن تصدى له شيشرون مرة أخرى ، وتمكن من إفشاله . وإذا كان بطلميوس الزمار قد أفلت فى هذه المرة ، فإن مصير العرش البطلمى ظل معلقًا بما يدور فى أروقة السياسة الرومانية (٢).

وفى ذلك الحين أرسل الرومان بومبى إلى الشرق ، وأثناء تواجده فى سوريا أرسل إليه بطلميوس الزمار الهدايا ، ووجه له دعوة لزيارة مصر ، ولكن بومبى قبل الهدايا واعتذر عن تلبية الدعوة ، لأن مثل هذه الزيارة من الممكن أن تؤدى إلى إثارة المتاعب أمامه فى روما ، وبعد أن عاد بومبى إلى روما فى عام ٦١ ق.م. قامت جفوة بينه وبين السناتو بسبب معارضة هذا المجلس لتنظيمات بومبى فى الشرق ، وقد أدى هذا الموقف إلى تقارب بين بومبى وأعدائه السياسيين ، وقام نتيجة لذلك ما عرف بالتحالف الثلاثى الأول ، والذى ضم بومبى

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٣ .

(2) Cary, op. cit. p. 245 .

وقيصر وكراسوس ، وكان من نتائج هذا التحالف فوز يوليوس قيصر بمنصب القنصلية عن عام ٥٩ ق.م[١].

كان بطلميوس الزمار يراقب ما يحدث في روما بكثير من القلق والترقب ، وكان يتوقع أن تكون الخطوة الأولى التي يقدم عليها قيصر هي ضم مصر ، وذلك نظراً لحماسه الشديد لهذا المشروع في الفترة السابقة ، ولكن قيصر كان في أمس الحاجة إلى المال ، لذا عقد صفقة مع ملك مصر ، حصل بمقتضاها على مبلغ كبير من المال في مقابل تسوية المسألة المصرية ، والاعتراف ببطلميوس الزمار ملكًا شرعيًا ، وفي شهر فبراير من عام ٥٩ ق.م. حصل الزمار على الاعتراف الذي كان ينشده ، وتضمن القرار الروماني اعتبار بطلميوس الزمار " صديق الشعب الروماني وحليفه " [٢].

لم تفلح الرشاوى التي راح بطلميوس الزمار يوزعها على الساسة الرومان في وقف أطماعهم تجاه مصر ، فلم يكد يمر عام على صدور قرار الاعتراف بالزمار ملكًا على مصر ، حتى تقدم كلوديوس نقيب العامة في عام ٥٨ ق.م. بمشروع بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، التي كانت من أملاك البطالمة ، ويحكمها شقيق بطلميوس الزمار ، وقد وافق السناتو على هذا المشروع ، وتم تكليف أحد الساسة الرومان وهو كاتو الأصغر Cato Minor بالذهاب إلى قبرص ، لكي يقنع ملكها بالتنازل عن العرش ، ولكن هذا الملك البائس فضل الانتحار ، حينما تأكد من نية الرومان على الاستيلاء على بلاده ، وتمكن كاتو من إنجاز مهمته ، واستولى على الكنوز الملكية في قبرص . وكانت جزيرة قبرص هي آخر ما تبقى لمصر من ممتلكاتها الخارجية ، ولكن بطلميوس الزمار لم يحرك ساكنًا ، ولم ينبس ببنت شفه ، ويعتقد بعض الباحثين أنه نزل طواعية عن هذه الجزيرة ، في الاتفاق الذي عقده مع الرومان مقابل الاعتراف به ملكًا على مصر[٣].

أثار موقف بطلميوس الزمار المتخاذل جماهير الإسكندرية ، وكانوا قد سأموا إرهاقه لهم ، واستنزافه لأموالهم ، لإرضاء جشع الرومان ، فثاروا ثورة عارمة ، اضطر على أثرها بطلميوس

---

(1) Cary, op. cit. pp. 248-9 .

(٢) إبراهيم نصحي : تاريخ الرومان ، جـ ٢ ، ص ٥٠٣ .

(٣) سيد الناصري : المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

الزمار إلى الهرب من الإسكندرية ، حيث يمم وجهه شطر روما ، لكى يطلب من الرومان أن يعيدوه إلى العرش ، فقام السكندريون بتعيين ابنته برنيكى الرابعة ملكة على البلاد . وهكذا عادت المسألة المصرية لكى تفرض نفسها على مسرح السياسة الرومانية من جديد ، واحتدم الصراع الحزبى حول قضية إعادة بطلميوس الزمار ، وكان بومبى الذى نزل الزمار فى ضيافته يتطلع إلى القيام بهذه المهمة .

بادر السكندريون من ناحيتهم بإرسال وفد إلى روما ، لتقديم شكوى ضد ملكهم المخلوع ، وناشدوا الرومان ألا يعيدوه إلى الحكم مرة أخرى ، ولكن فى عام ٥٧ ق.م. أسند السناتو إلى قنصل ذلك العام مهمة إعادة بطلميوس الزمار إلى العرش ، ولكن أنصار بومبى تمكنوا من أفشال هذا القرار ، واستغلوا حدوث ظاهرة كانت تعتبر نذير شؤم لدى الرومان ، وهى نزول صاعقة على تمثال الإله جوبيتر ، كبير الآلهة عند الرومان ، وحينما طلب السناتو من جماعة العرافين أن يفسروا هذه الظاهرة ، فإنهم حذروا من استخدام القوة لإعادة الزمار إلى الإسكندرية ، وحينئذ تقدم أنصار بومبى باقتراح يقضى بإرسال بعثة دبلوماسية إلى الإسكندرية ، يتولى رئاستها بومبى لإقناع السكندريين بإعادة الزمار إلى العرش ، ولكن خصوم بومبى كانوا يقفون له بالمرصاد ، فأخذوا يرددون بأن كراسوس هو الأحق برئاسة مثل هذه البعثة (١).

ضاق بطلميوس الزمار ذرعًا بتلك الخلافات ، وأدركه السأم ، فقرر أن يقوم بحل هذه المشكلة بطريقته الخاصة ، فاتصل بجابينيوس Gobinius والى سوريا الرومانى ، وعرض عليه رشوة كبيرة إذا تمكن من إعادته إلى العرش مرة أخرى ، فقبل جابينيوس هذا العرض ، ويبدو أنه حصل على الضوء الأخضر من بومبى للقيام بهذه المهمة . وفى ربيع عام ٥٥ ق.م. اقتحم جابينيوس الحدود المصرية ، مصطحبًا معه بطلميوس الزمار ، وقد أقدم على هذا العمل دون الحصول على إذن من السناتو ، وتزرع بحجة واهية ، وهى أن القوات البطلمية كانت تتحرش بالقوات الرومانية على الحدود ، وأنها تتأهب لغزو سوريا (٢).

عندما وصلت القوات الرومانية إلى مدينة بيلوزيون (بوابة مصر الشرقية) سارعت الحامية اليهودية التى كانت تتولى حراسة بيلوزيون بتسليم المدينة للرومان ، وشقت القوات

---

(١) إبراهيم نصحى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٨٤ .

(٢) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٥ .

الرومانية طريقها إلى الإسكندرية دون عناء ، وأعادت الزمار إلى العرش مرة أخرى ، وبعد أن ترك جابينيوس بضعة كتائب فى الإسكندرية لكى تشد أزر بطلميوس الزمار قفل عائداً إلى سوريا .

كان من الممكن أن تصبح مصر ولاية رومانية منذ ذلك الحين ، بعد أن دخلت القوات الرومانية عاصمة البلاد وسيطرت عليها ، ولكن الصراع بين الأحزاب الرومانية هو الذى أدى إلى تأخير هذه الخطوة .

كانت الفترة ما بين عام ٥٥ وعام ٥١ ق.م. وهو العام الذى مات فيه بطلميوس الزمار ، من أحلك فترات تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، فقد مارس هذا الملك انتقامًا بشعًا ضد خصومة ، وأعدم الكثيرين ممن وقفوا ضده ، وعلى رأسهم ابنته برنيكى الرابعة . وصار الرومان يتدخلون فى كل كبيرة وصغيرة من شئون مصر ، الدولة الضعيفة المغلوبة على أمرها ، والتى نكبت بهؤلاء الحكام من أمثال بطلميوس الزمار ، الذين كانوا مجرد دمى تحركها الأصابع فى روما كيفما تشاء ، وليس هناك ما هو أدل على هذا التسلط من قيام بطلميوس الزمار بتعيين أحد دائنيه من الرومان ويدعى رابيريوس Rabirius فى منصب وزير المالية ، وإطلاق يده فى شئون البلاد .

أثارت السياسة المالية الجشعة التى مارسها هذا الوزير ثائرة السكندريين ، فهبوا ثائرين وكادوا أن يفتكو برابيريوس ، مما اضطره إلى الفرار من الإسكندرية تحت جنح الظلام . وفى عام ٥١ ق.م. توفى بطلميوس الزمار تاركًا وصية بأن تخلفه على العرش كبرى بناته ، وهى كليوباترة السابعة وكانت تبلغ من العمر ١٨ عامًا ، على أن تتزوج من شقيقها بطلميوس الثالث عشر ، الذى كان صبيًا صغيراً ، وناشد الزمار فى هذه الوصية الرومان أن يكونوا أمناء على تنفيذها ، وأن يضعوا أبناءه تحت وصايتهم ، وقد تم وضع هذه الوصية فى الخزانة العامة للدولة الرومانية (١).

كانت كليوباترة فتاة ذكية وطموحة ، فلم ترضخ لرغبات رجال القصر ، الذين أرادوا أن يستأثروا بالسلطة من دونها ، وعندما تبين لهم أنها ليست سهلة القياد ، أخذوا فى الدس لها ، واتهموها بأنها تتآمر على حياة شقيقها لكى تنفرد بالحكم ، ونجحوا فى إثارة شعب

---

(1) Bowman, op. cit. p. 33 .

الإسكندرية ضدها ، وقد دفعها الخوف على حياتها إلي الفرار من الإسكندرية ، واتجهت إلى الحدود الشرقية لكى تجمع جيشًا يمكنها من استعادة مكانتها ، ومن ناحية أخري قرر الأوصياء على شقيقها إجهاض مخططاتها ، فتوجهوا على رأس القوات إلى حيث ترابط كليوباترة ، مصطحبين معهم الملك الصغير ، ورابط جيشا كليوباترة وشقيقها بالقرب من بيلوزيون استعداداً للدخول فى معركة فاصلة .

كان الرومان يراقبون الموقف عن كثب ، وبعد فرار كليوباترة من الإسكندرية أصدر السناتو قراراً بتعيين بومبى وصيًا على الملك الصغير بطلميوس الثالث عشر ، وفى روما انهار التحالف الثلاثى بعد وفاة كراسوس فى معركة كرهاى مع البارثيين ، وبعد أن فرغ يوليوس قيصر من فتوحاته فى بلاد الغال ، أخذ يستعد للعودة إلى روما ، وكان السناتو يخشى من طموحات قيصر ، ورغبته الجامحة فى السيطرة على الحياة السياسية ، مما دفعه إلى رفض كافة الطلبات التى تقدم بها هذا القائد ، وأخذ رجال السناتو يدفعون بومبى إلى الدخول فى مواجهة مع قيصر ، وبدأ العالم الرومانى يستعد للدخول فى حرب أهلية ، كان طرفاها قيصر وبومبى (١).

كانت بلاد اليونان هى المسرح الذى شهد المعركة الفاصلة بين الطرفين ، وهى معركة فارسالوس Pharsalus ، التى جرت أحداثها فى عام ٤٨ ق.م(٢). وانعقد لواء النصر فيها ليوليوس قيصر ، أما بومبى المهزوم فقد فر إلى مصر ، وكان يأمل فى أن يجد الملاذ لدى أبناء بطلميوس الزمار صديقه القديم ، ولكنه لقى حتفه قبل أن تطأ أقدامه أرض مصر ، لأن الأوصياء على الملك الصغير قرروا أن يتخلصوا من هذا الضيف المحرج ، حتى لا يقدموا ذريعة لقيصر لغزو مصر ، وعندما وصل قيصر بعد ذلك إلى الإسكندرية ، وعلم بوفاة بومبى، كان من المتوقع أن يعود إدراجه إلى روما ، ولكنه بقى فى الإسكندرية ، وأخذ يسير فيشوارع المدينة تحف به شارات السلطة الرومانية ، بوصفه دكتاتوراً وممثلاً للشعب الرومانى(٢).

أثار تصرف قيصر جمهور الإسكندرية ، فقد أحسوا بأنه يتصرف كما لو كان فاتحًا للمدينة، وليس مجرد زائر لها ، وساورتهم الشكوك فى أن يكون سبب حضوره إلى

---

(1) Syme, Roman Revolution. pp. 48 - 9 .

(2) Syme, op. cit.p. 50.

الإسكندرية ، هو المطالبة بالديون التى كانت على بطلميوس الزمار ، مما يعنى فرض المزيد من الأعباء عليهم ، ولكن قيصر أراد أن يبدد مخاوف السكندريين ، فأعلن أنه سيبقى فى الإسكندرية لكى ينفذ وصية بطلميوس الزمار ، الذى تضمنت وصيته أن يكون الرومان أوصياء على أبنائه .

أرسل قيصر إلى كل من كليوباترة وشقيقها للحضور إلى الإسكندرية ، لكى يعمل على حل الخلاف بينهما ، وقد استجابت كليوباترة ، وحضرت إلى الإسكندرية متخفية ، والتقت بالقائد الرومانى ، وشرحت له وجهة نظرها ، واستطاعت أن تستميله إلى جانبها ، ثم جاء بعد ذلك الملك الصغير بطلميوس الثالث عشر ، وأحس بميل يوليوس قيصر إلى جانب كليوباترة ، مما أثار غضبه ، أما رجال القصر فقد كانوا يخشون من نجاح قيصر فى التوفيق بين الشقيقين، مما يؤدى إلى ضياع نفوذهم ، لذا فإنهم استغلوا مشاعر النفور الى سادت السكندريين ضد الرومان ، وأخذوا فى تأليبهم ضد يوليوس قيصر ، كما أصدروا أوامرهم إلى الجيش المرابط عند بيلوزيون بالزحف على الإسكندرية (١).

وجد يوليوس قيصر نفسه فى موقف حرج ، فقد كانت قواته ضئيلة الحجم ، وحوصر فى الحى الملكى ، مما اضطره إلى طلب النجدة من أصدقائه خارج مصر ، وبدأت تلك الحرب المعروفة بحرب الإسكندرية ، والتى كاد قيصر خلالها أن يلقى حتفه ، ولكنها انتهت بانتصار قيصر وحليفته كليوباترة السابعة فى عام ٤٧ ق.م. ، أما بطلميوس الثالث عشر فقد مات غريقًا ، ووقعت شقيقته المشاكسة أرسينوى فى الأسر ، وعقب ذلك قام يوليوس قيصر بتنصيب كليوباترة ملكة على مصر ، وتم تزويجها من شقيقها الأصغر بطلميوس الرابع عشر، الذى كان صبيًا صغيراً ، وقد قامت علاقة فى نفس الوقت بين كليوباترة ويوليوس قيصر ، لم تلبث أن أثمرت عن طفل أطلقت عليه كليوباترة اسم بطلميوس يوليوس قيصر ، بينما أطلق عليه السكندريون اسم قيصرون ، أى قيصر الصغير(٢) . وبعد ذلك عاد قيصر إلى روما فى عام ٤٦ ق.م. ، واحتفل بنصره وعرض فى موكب النصر أرسينوى ، التى ألقى بها فى السجن

---

(١) إبراهيم نصحى : المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٣٠٦ .

(2) Plut, Caesar, p. 49 .

بعد ذلك ، عقابًا لها على مشاركتها فى الحرب ضد يوليوس قيصر ، إلى جانب شقيقها بطلميوس الثالث عشر [١].

لم يلبث قيصر أن استدعى كليوباترة ، فلحقت به روما فى أواخر عام ٤٦ ق.م. ونزلت فى أحد قصوره على ضفة نهر التايبر ، وكانت قد اصطحبت معها شقيقها بطلميوس الرابع عشر، وابنها قيصرون ، الذى لم يكن قيصر قد رآه بعد ، لأن كليوباترة انجبته بعد رحيله ، وعلى الرغم من اعتراف قيصر بهذا الابن ، وبأن كليوباترة زوجة له ، إلا أن الرومان رفضوا الاعتراف بها زوجة لقيصر ، واعتبروها مجرد خليله ، لأن زوجة قيصر الشرعية ، كانت ماتزال على قيد الحياة ، وقد أثارت استياء الرومان ، وذلك لحرصها على التمسك بمظاهر الأبهة الشرقية ، بالإضافة إلى ما اتسم به سلوكها من غطرسة واستعلاء .

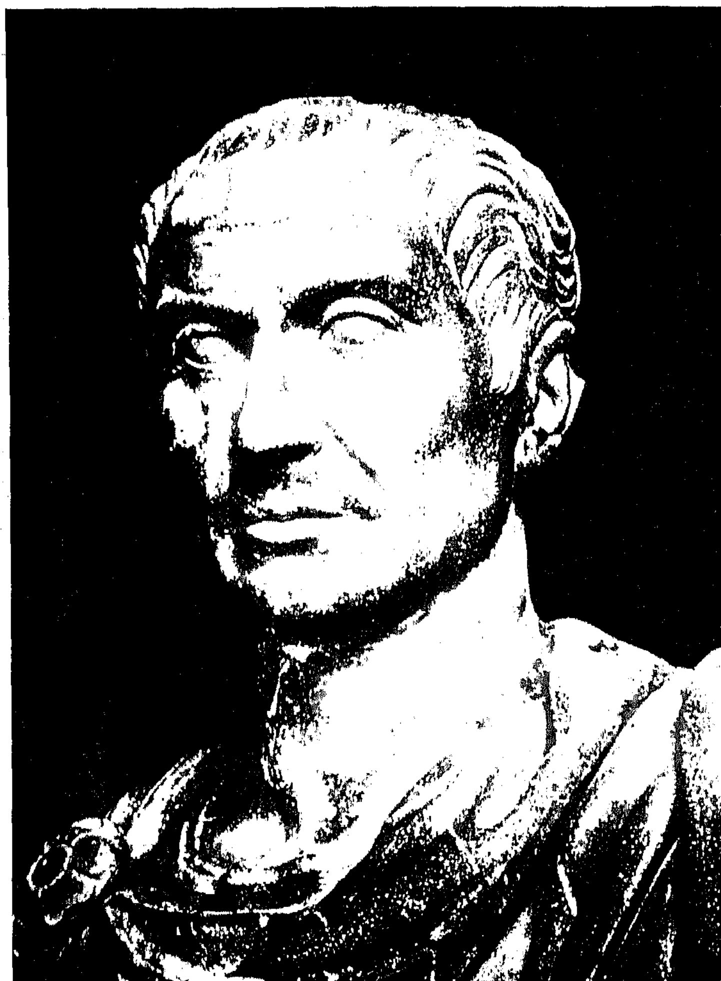
وفى روما حرص قيصر على الاستئثار بكافة السلطات فى الدولة ، وبدا كما لو كان فى طريقه إلى إلغاء النظام الجمهورى ، وفى يناير من عام ٤٤ ق.م. حصل على السلطة الدكتاتورية لمدى الحياة ، وسرت الشائعات فى روما بأن حضور كليوباترة كان من أجل إعلان الملكية ، وكانت كليوباترة من ناحيتها تعقد آمالاً كبيرة على قيصر ، وتحلم بأن تكون إلى جواره ملكة على العالم بأسره . فى تلك الآونة ظهرت نبوءة تقول بأن الرومان لن يهزموا البارثيين إلا إذا كانوا تحت قيادة ملك [٢]. ولما كان الرومان يرفضون عودة الملكية إلى روما مرة أخرى ، فإن أنصار قيصر حاولوا الالتفاف على هذا الأمر ، بأن تقدموا باقتراح يقضى بمنح قيصر لقب ملك على الولايات . وقد عزز هذا الاقتراح الشكوك التى كانت تساور أعداء قيصر فى أنه يرغب فى إقامة نفسه ملكًا ، فقرروا الحيلولة دون وقوع هذا الأمر بأى شكل ، فأقدموا على قتل يوليوس قيصر فى عام ٤٤ ق.م[٣]. وهكذا تبخرت آمال كليوباترة ، وعادت إلى مصر ، يسيطر عليها الحزن وخيبة الأمل ، ولم تلبث بعد ذلك أن تخلصت من

---

(١) نقلت أرسينوى بعد ذلك إلى معبد فى مدينة إفيسوس فى آسيا الصغرى ، حيث لقيت حتفها بعد ذلك بتدبير من أنطونيوس وتحريض من كليوباترة انظر : لطفى عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٢) ربما كانت هذه النبوءة من اختلاق أنصار قيصر .

(3)Cary, op. cit. p. 281 .



يوليوس قيصر

شقيقها بطلميوس الرابع عشر ، وأشركت معها فى الحكم ابنها قيصرون (بطلميوس الخامس عشر) فى عام ٣٧ ق.م[١].

أصبح مصير مصر معلقًا بما يحدث على الساحة السياسية فى روما ، التى شهدت حربًا أهلية جديدة ، بين أنصار يوليوس قيصر من ناحية ، وبين أنصار النظام الجمهورى ، الذين اغتالوا قيصر من ناحية أخرى ، وقد تولى ماركوس أنطونيوس أبرز ضباط يوليوس قيصر زعامة رجال قيصر ، ولم يلبث أن شاركه فى القيادة أوكتافيانوس ، ابن يوليوس قيصر بالتبنى ، ثم انضم إليهما بعد ذلك لبيدوس Lepidus ، وكونوا معًا ما يعرف بالتحالف الثلاثى الثانى ، وأخذوا فى ملاحقة قتلة قيصر من أمثال بروتوس وكاسيوس ، ونجحوا فى القضاء عليهم ، وكانت معركة فيليبى Philipi فى عام ٤٢ ق.م. هى نهاية الحرب بين الطرفين[٢] .

بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، اتفق أنطونيوس وأوكتافيانوس على تقسيم العالم الرومانى فيما بينهما ، بحيث يتولى أوكتافيانوس إدارة القسم الغربى ، أى القسم الذى يقع غرب إيطاليا ، أما القسم الشرقى فقد كان من نصيب أنطونيوس ، على أن تظل إيطاليا ذاتها مشاعًا بين القائدين .

توجه أنطونيوس بعد ذلك إلى الشرق ، وأرسل فى استدعاء حلفاء قيصر ، وكان من بينهم كليوباترة التى وقفت موقفًا سلبيًا إبان الحرب التى دارت بين أنصار قيصر وقتلته ، وذلك على الرغم من العلاقة التى كانت تربطها بقيصر ، والتى كانت تستوجب عليها المبادرة بتقديم الدعم لأنصاره ، ولكن يبدو أن كليوباترة لم تشأ أن تتورط فى حرب لا تعلم من سيكون الرابح فيها ، ومن ثم فقد آثرت أن تتريث حتى ترى نتيجة الحرب .

لبت كليوباترة دعوة أنطونيوس ، وذهبت لمقابلته فى طرسوس فى عام ٤١ ق.م. فى موكب فخم ، حيث اتخذت هيئة ڤينوس ربة الجمال عند الرومان ، وقد أحاط بها مجموعة من الغلمان فى شكل كيوبيد إله الحب ، وأحاط بالجميع العازفون الذين راحوا يعزفون أعذب

---

(1) Bowman, op. cit. p. 35 .

(2) Syme, op. cit. pp. 202 ff .

الألحـــان [١]، واستطاعت كليوباترة بما لها من فصاحة وقوة تأثير أن تبرر موقفها أمام أنطونيوس ، وعادت إلى الإسكندرية بعد أن وجهت دعوة إلى القائد الروماني لزيارة مصر ، وقبل أنطونيوس الدعوة ، وذهب إلى مصر ، حيث قضى مع كليوباترة شتاء ٤١ - ٤٠ ق.م. ومنذ ذلك الحين أصبح أنطونيوس شديد الارتباط بكليوباترة [٢].

توترت العلاقة بين أنطونيوس وأوكتافيانوس بعد ذلك، إلا أن أصدقاء هذين القائدين تمكنوا من التوفيق بينهما ، وتم توقيع صلح برنديزى Brundisium بين أنطونيوس وأوكتافيانوس فى عام ٤٠ ق.م. ومن أجل توطيد العلاقة بينهما ، تزوج أنطونيوس من أوكتافيا شقيقة أوكتافيانوس [٣].

وفى الوقت الذى تمكن فيه أوكتافيانوس من الانتصار على أعدائه ، وتدعيم مكانته فى الغرب ، أخذت أسهم أنطونيوس فى الهبوط وأصبح أسيراً لعلاقته بكليوباترة ، التى رأت فيه أملاً جديداً يعوضها عن فقدان قيصر ، وانتعشت آمالها مرة أخرى ، فى أن تسيطر على العالم عن طريق رجلها الجديد ، ولم يكن يعكر صفو تلك الآمال ، سوى وجود أوكتافيانوس على الساحة السياسية .

أخذت كليوباترة تعمل على إزكاء روح الغيرة فى قلب أنطونيوس تجاه أوكتافيانوس ، وفى عام ٣٧ق.م. استطاعت أن تقنع أنطونيوس بإعلان زواجه منها ، على الرغم من أنه كان متزوجًا من أوكتافيا شقيقة أوكتافيانوس ، ومنذ ذلك الحين أخذ أنطونيوس فى ارتكاب سلسلة من الحماقات المتوالية ، ففى عام ٣٤ ق.م. حينما عاد ظافراً من حملته على أرمينيا ، أقام احتفال النصر فى الإسكندرية ، مخالفًا بذلك العرف الرومانى ، الذى يقضى بإقامة مثل هذه الاحتفالات فى روما ، وأهدى انتصاراته إلى كليوباترة ، التى وُصفت فى هذا الاحتفال بالملكة أم الملوك ، والمقصود هنا بالملوك هم أبناء كليوباترة منه ، بالإضافة إلى قيصرون . وأراد أنطونيوس أن يحرج أوكتافيانوس وأن يسحب البساط من تحت أقدامه ، فأصدر قراراً يقضى بالاعتراف بقيصرون ابنًا شرعيًا ليوليوس قيصر .

---

(1) Plut. Antonius. 26 .

(2)Syme, op. cit. p. 214 .

(3) Cary, op. cit. pp. 291 - 2 .



كليوباترة السابعة

أخذ القائدان ينزلقان إلى المزيد من المجاهرة بالعداء بينهما ، فأعلن أنطونيوس طلاقه لأوكتافيا (١). وقد أدت الأخطاء التى ارتكبها أنطونيوس إلى تأليب الرأى العام فى روما ضده ، فقد حرص على أن يظهر على الملأ فى هيئة شرقية ، وأن يتخذ هو وكليوباترة هيئة الإله ديونيسوس Dionysus إله الخمر عند الإغريق ، العاشق للربة إيزيس المصرية ، التى كانت تتشبه بها كليوباترة (٢).

لم يدخر أوكتافيانوس وسعًا فى استثمار مثل هذه المواقف ، وأخذ فى التشهير بأنطونيوس، فأذاع نص وصية يقال أن أنطونيوس قد أودعها فى معبد الربة فستا Vesta فى روما ، يوصى فيها بأن يدفن فى الإسكندرية ، إلى جوار كليوباترة ، بعد وفاته ، وهى وصية يرى البعض أنها مزورة ، وأنها من بنات أفكار أوكتافيانوس (٣).

أخذ أوكتافيانوس يلهب مشاعر الرومان ضد أنطونيوس ، وأمعن فى تصويره على أنه مجرد ألعوبه فى يد كليوباترة عدوة روما ، وكان من الأسباب التى أدت إلى إزكاء الكراهية لدى الرومان لشخصية كليوباترة ، ظهور نبوءة بأن روما سوف تسقط على يد ملكة (٤). وتمكن أوكتافيانوس من استصدار قرار يقضى بتجريد أنطونيوس من كافة سلطاته ، ولما كان أوكتافيانوس يعلم بأن أنطونيوس كان مايزال يتمتع بالتأييد لدى قطاع لايستهان به من الرومان ، فإنه لم يعلن الحرب عليه بل أعلن الحرب على كليوباترة ، بوصفها عدوة للرومان .

أصبح الصدام بين أوكتافيانوس وأنطونيوس أمراً مؤكداً ، ويبدو أنه قدر لبلاد اليونان أن تكون المسرح الذى تقع عليه المعارك الفاصلة فى التاريخ الرومانى ، فقد شهدت من قبل معركة فارسالوس ، التى حسمت النزاع بين قيصر وبومبى ، وفى هذه المرة توجه أنطونيوس بقواته إلى بلاد اليونان ، مدعمًا بأسطول مصر ، وكانت كليوباترة حريصة على التدخل فى الاستعدادات التى تجرى للمعركة النهائية ، وأدى ظهورها الدائم فى ميدان المعركة إلى تأييد الدعاية التى كانت تبثها أجهزة أوكتافيانوس . وزاد ذلك من حماس جنود أوكتافيانوس،

---

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(2) Bowman, op. cit. p. 36 .

(٣) عبد اللطيب أحمد على : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٤) بل : المرجع السابق ، ص ٨٥ .

بينما أدى إلى شعور رجال أنطونيوس بالإحباط ، فأخذ الكثيرون منهم يهجرونه ، وينضمون إلى معسكر خصمه .

وقعت المجابهة النهائية بين الطرفين فى خليج أكتيوم Actium على السواحل الغربية لبلاد اليونان ، وفى اللحظات الأولى للقتال فوجىء الجميع بانسحاب كليوباترة ومعها أسطولها ، ويبدو أنها اتخذت هذا الموقف بعد أن تبين لها رجحان كفة العدو ، ولم يلبث أنطونيوس أن لحق بها ، تاركًا قواته فى ميدان القتال ، ولكن هذه القوات سرعان ما استسلمت لأوكتافيانوس ، الذى تمكن من إحراز نصر باهر فى هذه الموقعة التى عرفت بموقعة أكتيوم فى عام ٣١ ق.م(١).

عندما عادت كليوباترة إلى الإسكندرية ، أرادت أن تضلل الناس ، وتوهمهم بانتصارها ، فزينت السفن بعلامات النصر ، وعندما لحق بها أنطونيوس أخذا يتدارسان الموقف ، أما أوكتافيانوس فقد نزل بقواته فى سوريا ، تمهيداً للزحف على مصر ، وعند استكمل استعداداته بدأ مسيرته تجاه مصر ، وحاولت كليوباترة أن تتفاهم معه ، وعرضت عليه أن تتنازل عن العرش لأبنائها ، كما عرض أنطونيوس أن يعتزل السياسة وأن يصبح مواطنًا عاديًا(٢). وفى نفس الوقت نجح أحد قادة أوكتافيانوس وهو كورنيليوس جاللوس Cornilius Gallus فى اقتحام حدود مصر الغربية ، والسيطرة على مدينة برايتونيون (مرسى مطروح الحالية) .

تقدم أوكتافيانوس واستولى على بيلوزيون ، بوابة مصر الشرقية ، وأخذ فى التقدم صوب الإسكندرية ، وبعد أن خاض أنطونيوس معركة يائسة ، أدركه القنوط فقرر الانتحار ، وحاولت كليوباترة أن تتفاوض مع أوكتافيانوس ، الذى تظاهر بقبول طلباتها ، وحين أدركت أنه يماطلها حتى يأخذها معه أسيره ، لكى يزين بها موكب نصره فى روما ، قررت الانتحار ، وماتت فى يوم ١٠ أغسطس من عام ٣٠ ق.م. وبموت كليوباترة آخر حكام البطالمة ، سقطت هذه الدولة إلى الأبد ، وتحولت مصر إلى ولاية رومانية ، وهكذا نكون قد أجبنا على السؤال الذى طرحناه فى البداية ، وهو كيف أصبحت مصر ولاية رومانية ؟ .

---

(١) حول هذه المعركة والآراء التى ذكرت حول مسئولية كليوباترة . عن هذه الهزيمة انظر : إبراهيم نصحى: المرجع السابق جـ ١ ، ص ٣٦١ - ٣٦٩ .

(٢) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

مصر ولاية رومانية متميزة :

بانتصار أوكتافيانوس ، واندحار أنطونيوس ، وانتحاره بعد ذلك طويت صفحة دامية من تاريخ الرومان ، وانتهت الحرب الأهلية ، وعمت الفرحة الرومان ، وعبر أحد الشعراء الرومان عن مشاعر الفرح قائلاً " لقد أسكن قيصر(١) عاصفة الحرب ، وأسكت قعقعة الدروع ، وجاء مبتهجًا إلى أرض النيل ، حاملاً القانون والنظام والخير العميم ، مثل زيوس إله الحرية "(٢).

فى اليوم الأول من شهر أغسطس(٣) من عام ٣٠ ق.م. دخل أوكتافيانوس مدينة الإسكندرية، وأصدر السناتو قراراً باعتبار هذا اليوم عيداً وطنيًا ، وتم سك عملة بهذه المناسبة كتب عليها عبارة " فتح مصر " Aegypto Capta (٤). وعلى خلاف ماكان سائداً فى العالم القديم ، فإن أوكتافيانوس منع جنوده من نهب المدينة ، احترامًا لذكرى مؤسسها الإسكندر الأكبر(٥) ، وألقى على السكندريين خطابًا باللغة اليونانية ، إظهاراً لتقديره للحضارة الإغريقية ، وأعلن فى خطبته العفو عن السكندريين ، وطلب أن يرى جثمان الإسكندر ، وعندما أحضروا له الجثمان ، أغدق عليه مظاهر التكريم ، ووضع على رأسه تاجًا من الذهب(٦)، وعندما سألوه إن كان يرغب فى رؤية ضريح البطالمة ، أجاب بأنه يحب أن يرى ملوكًا حقيقيين ، لا مجرد أموات ، وهو رد يعكس كراهيته الشديدة للبيت البطلمى ، بسبب الكراهية الشديدة التى كان يحملها لآخر حكام هذا البيت ، كليوباترة السابعة ، وقد سأل أيضًا إن كان يرغب فى رؤية المعبود المعبود المصرى العجل أبيس ، فرد قائلاً أنه اعتاد أن يعبد آلهة حقيقين ، لا مجرد حيوانات .

---

(١) المقصود بقيصر هنا هو أوكتافيانوس ابن يوليوس قيصر بالتبنى ، الذى أصبح يشار إليه باسم قيصر.

(٢) عثر على هذه القصيدة مدونة على إحدى البرديات انظر : Select Papyri III. 113 .

(٣) لم يكن شهر أغسطس قد سمى بهذا الاسم بعد ، بل كان يعرف بالشهر السادس Sextilis ، وفقًا للتقويم الرومانى الذى كانت السنة فيه تبدأ بشهر مارس ، وقد أطلق عليه فيما بعد اسم أغسطس تكريمًا لأوكتافيانوس ، الذى منح لقب أوغسطس Augustus أى الجليل فى عام ٢٧ ق.م.

(٤) مصطفى العبادى : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . ص ١٥٢ .

(5) Dio Cassius. L.I, 16, 3-5 .

(٦) يقال أن أوكتافيانوس عندما لمس الجثمان بيده ، هشم جانبًا من الأنف بغير قصد انظر : Bowman, op. cit.p. 37.

أراد أوكتافيانوس من خلال هذه العبارات ، أن يدرك السكندريون بأن ملكهم قد زال ، وأنهم لم يعودوا مواطنين فى عاصمة دولة مستقلة ، بل مجرد سكان فى إحدى مدن ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وذلك لعلمه بأن السكندريين شعب ميال للشغب ، وبأنهم اعتادوا التدخل فى السياسة ، وكثيراً ما قاموا بطرد ملوكهم (١). وقد أراد أوكتافيانوس أن يرهبهم فوضع فرقة رومانية كاملة Legio ، فى ضاحية النصر Nicopolis ، بالقرب من الإسكندرية(٢).

ومن ناحية أخرى أراد أوكتافيانوس أن يحرم السكندريين من ممارسة أى نشاط سياسى ، فعندما تقدموا له بطلب التمسوا فيه أن يكون للمدينة مجلسًا للشورى Boulé ، رفض الاستجابة إلى طلبهم ، وقال لهم إنكم لم يكن لكم مثل هذا المجلس على عهد ملوككم السابقين . ولابد أن أوكتافيانوس كان يقصد الملوك الأواخر ، فمن المعروف أن الإسكندرية أقيمت كمدينة إغريقية ، تتمتع بكافة المؤسسات التى تميز المدينة الإغريقية ، وعلى رأسها مجلس الشورى ، ومن المرجح أن هذا المجلس قد ألغى فى فترة غير معروفة (٣). ولكن أوكتافيانوس لم يشأ أن يجرد السكندريين من كافة الامتيازات ، فأصدر قراراً بإعفائهم من دفع ضريبة الرأس ، التى فرضت على كافة الفئات الأخري .

وفى إطار سياسة فرق تسد التى اتبعها الرومان ، فإن أوكتافيانوس أقر لليهود الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها ، فسمح لهم بتطبيق قوانينهم الخاصة ، وبتشكيل مجلس الشيوخ Gerousia (٤). ويذكر الكاتب اليهودى فيلون Philo أن أوغسطس أصدر قراراً جاء فيه ، أن يهود الإمبراطورية قد أثبتوا ولاءهم للشعب الرومانى ، فى الماضى والحاضر ، لذلك

---

(١) كانت هذه هى الفكرة السائدة عن السكندريين ، والتى رددتها الكثير من المصادر ، وحسبنا أن نذكر الكلمات التى وردت على لسان الخطيب الشهير ديون " فم الذهب " ، الذى هاجم السكندريين وعاب عليهم ميلهم إلى الفوضى والشغب ، وثورتهم لأتفه الأسباب انظر : Dio Chrysostomos. Or.XXXII, 69 ff .

(٢) يبلغ عدد أفراد الفرقة الرومانية ٦٠٠٠ فرد .

(٣) تثير قضية وجود هذا المجلس جدلاً بين الباحثين ، ويرى الأستاذ بل Bell أنه ألغى فى عهد بطلميوس الثامن انظر : H.I.Bell, The Acts of the Alexandrians. J.J.P.IV. 1950. p. 1 .

(٤) مصطفى كمال عبد العليم : اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان . ص ١٤٤ .

فإنه قرر السماح لهم بممارسة عاداتهم طبقًا لشريعة آبائهم (١). ولكن أوكتافيانوس فى إطار رغبته فى إيجاد نوع من التوازن بين اليهود والسكندريين و قرر أن يفرض على اليهود دفع ضريبة الرأس ، التى كان قد أعفا السكندريين منها وحرص أوكتافيانوس على تأمين مصر ، وبالإضافة إلى الفرقة التى سبق ذكرها والتى وضعها بالقرب من الإسكندرية ، فإنه وضع فرقة ثانية فى موقع متوسط من البلاد ، بالقرب من مدينة منف ، فى الموقع الذى أقيم عليه حصن بابليون فيما بعد ، كما أنه لم ينس أن مدينة طيبة فى جنوب مصر ، كانت مركزاً لثورات المصريين ضد البطالمة ، لذا بادر بوضع فرقة ثالثة بالقرب منها (٢).

وبالإضافة إلى هذه الفرق الثلاث ، وضع أوكتافيانوس كتائب رابطت عند المواقع الهامة ، مثل سوينى Syne (أسوان الحالية) على حدود مصر الجنوبية ، وبعض المراكز التجارية مثل كوبتوس Coptos (قفط الحالية) ، ومديرية أرسينوى (الفيوم الحالية) ، وكذلك فى موانىء البحر الأحمر ، ولابد أن المراكز الحدودية المهمة مثل بيلوزيون فى الشرق ، وبرايتونيون (مرسى مطروح) فى الغرب ، كان يوجد بها قوات لتأمينها (٣).

لم تكن مهمة تأمين مصر هى المشكلة الوحيدة التى واجهت أوكتافيانوس ، ولكن المهمة الأصعب كانت إصلاح مرافق البلاد ، التى لحقها الدمار فى ظل حالة الفوضى ، التى شهدتها مصر فى أواخر عصر البطالمة ، لذا فإنه قام بوضع نظام إدارى محكم لتسيير دفة البلاد .

بعد أن فرغ أوكتافيانوس من تنظيم ولاية مصر ، قفل عائداً إلي روما ، حيث أدخل تعديلات جذرية على نظام الحكم ، فقد رأى بثاقب بصره أن النظام الجمهورى قد أثبت فشله ، وأنه قد آن الأوان لوضع نظام جديد ، ولما كان أوكتافيانوس على يقين من أن الرومان كانوا

---

(1) Philo. In Flacc. 50 .

(2) Bowman, op. cit. p. 40 .

(٣) بلغ عدد القوات الرومانية فى مصر فى عصر أوكتافيانوس ٨٠٠, ٢٢ وهذا يعكس مدى خوف الإمبراطور على مصر ، ومدى إحساسه بأهمية هذه الولاية ، ولم يكن الأمر فى الواقع يستدعى وجود هذا العدد الكبير من القوات ، لذلك فإن خليفة أوكتافيانوس أى الإمبراطور تيبيريوس ، سارع بسحب واحدة من هذه الفرق ، انظر : بل : المرجع السابق ، ص ٩٢ .

مايزالون على تمسكهم بالنظام الجمهورى ، فإنه آثر الإبقاء على هذا النظام من حيث الشكل، ولكنه أقام نظامًا جديداً كان ملكيًا فى جوهره [١].

فى الجلسة التى عقدها السناتو فى يوم ١٣ يناير من عام ٢٧ ق.م. ألقى أوكتافيانوس خطبة مؤثرة ، أعلن فيها تنازله عن كافة السلطات الاستثنائية ، وغير الاستثنائية ، التى منحها له السناتو فى خلال الحرب ضد كليوباترة ، وأنه يضع نفسه فى خدمة الشعب الرومانى، ولم يكن هذا الموقف يعنى رغبته فى إعادة النظام الجمهورى بشكله القديم ، فقد كان قد وطد العزم على القضاء على هذا النظام ، وكان واثقًا من قدرته على الإمساك بخيوط السلطة ، والتحكم فى مجريات الأمور . وقد بادر السناتو بمنح أوكتافيانوس سلطة الإمبريوم العسكرى Imperium ، وهى سلطة تتيح له الحق فى قيادة القوات العسكرية . وفى ١٦ يناير من العام ذاته ، أنعم السناتو على أوكتافيانوس بلقب أوغسطس Augustus ، وهو لقب يعنى الجليل[٢] . كما منح لقب الإمبراطور Imperator ، ويعنى القائد المنتصر[٣] ، ومنذ ذلك الحين حرص أوكتافيانوس على أن يذكر اسمه مشفوعًا بهذا اللقب . وأخذ يوعز إلى السناتو بمنحه المزيد من السلطات ، حتى يحكم سيطرته على الحكم فى روما .

عندما تجمعت كافة السلطات فى أيدى أوكتافيانوس (أوغسطس) ، لم يعد هناك منصب يتسع لكافة هذه السلطات . فقاده دهاؤه السياسى إلي ابتكار منصب جديد ، فأطلق على نفسه لقب المواطن الأول Princeps [٤].

بمقتضى الاتفاق الذى تم بين أوغسطس والسناتو ، تم تقسيم ولايات الإمبراطورية بين الطرفين ، فأعطى للسناتو الحق فى إدارة الولايات التى استقرت تحت الحكم الرومانى من مدة، وهى الولايات التى عرفت باسم الولايات السناتورية ، أما الولايات التى كانت تتطلب حزمًا

---

(١) على الرغم من ذلك فإن المصادر الرسمية كانت حريصة على أن تصف ما قام به أوكتافيانوس بأنه إعادة بناء الجمهورية : .res Publica rerstituta انظر : Syme, op. cit. p. 323 .

(٢) سيد الناصرى : التاريخ السياسى والحضارى للإمبراطورية الرومانية ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) كان من عادة الجنود منذ أيام الجمهورية أن ينادوا قائدهم بهذا اللقب ، إذا أحرز النصر . انظر : سيد الناصرى . المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٤) عن وظيفة المواطن الأول والسلطات التى تمتع بها انظر : Syme, op. cit. pp. 313 - 330 .

فى إدارتها ، أو تلك التى تتمتع بأهمية خاصة ، فقد كانت خاضعة لإدارة الإمبراطور، إلا أنه كان يعطى لنفسه الحق فى التدخل فى الولايات السناتورية ، إذا ما تطلب الأمر ذلك [١].

والسؤال الذى نطرحه الآن هو ما هو موضع مصر فى تلك التنظيمات ؟ ثار جدل بين الباحثين حول هذا الأمر ، فقد رأى البعض منهم ، أن مصر لم تكن ولاية بالمعنى المألوف ، بل كانت ملكية خاصة للإمبراطور ، ويدللون على صدق هذه المقولة بما ورد فى الوثيقة المشهورة، التى تحتوى على ما قام به الإمبراطور أوغسطس من إنجازات ، والمعروفة باسم " أعمال المؤله أوغسطس " Res Gestae divi Augusti[٢] . فقد ذكر أوغسطس مصر فى هذا النص ، دون أن يقرنها بكلمة Provencia [٣]. بينما جاء ذكر أورمينيا مقرونة بكلمة ولاية ، كما أن النصوص الرسمية فى عصر أوغسطس لم تصف مصر بكلمة ولاية [٤]. ولكننا نلاحظ أن المؤرخ ديون كاسيوس ذكر مصر من بين الولايات التى عهد السناتو إلى أوغسطس بإدارتها فى عام ٢٧ ق.م[٥].

ويرى فريق آخر من الباحثين ، أن مصر كانت ولاية عادية ، ويستندون إلى النص ذاته ، الذى يحتوى على إنجازات الإمبراطور أوغسطس ، ويرون أن النص واضح لا غموض فيه ، إذ

---

(١) كان من حق أوغسطس أن يتدخل فى الولايات السناتورية ، وذلك بموجب سلطة الإمبريوم الأعلى Imperium maius ، التى كان يتمتع بها ، وهى سلطة تعلو على سلطة حكام الولايات ، مثلما حدث عندما تدخل فى ولايتى كريت وقورينائية فى عام ٧ ق.م. على الرغم من كونهما ولايات سناتورية . انظر : بل : المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢) عثر على هذا النص مدونًا فى نقش فى موقع مدينة أنقرة (فى تركيا الحالية) ، لذلك يطلق عليه أثر أنقره ، وكان قد سبق للسناتو أن وافق على رفع يوليوس قيصر إلى مصاف الآلهة ، ومن هنا فإن أوغسطس كان يوصف بابن الإله Divi filius . عن ترجمة هذا النص والتعليق عليه انظر : P.A. Brunt & J.M. Moore, Res Gestae Divi Augustus. The Achivements of the Divine Augustus. Oxford. 1983 .

(٣) قال أوغسطس " لقد أضفت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى " Aegyptum imperio populi Romani adieci .

(٤) لمعرفة نماذج من هذه النصوص راجع : عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(5) Dio Cassius. L III, 12 . 7.

يقول أوغسطس " لقد ضممت مصر إلى سلطان الشعب الروماني " ، ولم يقل أنه ضمها إلى ممتلكاته الخاصة ، والدليل على أن مصر كانت ولاية رومانية عادية ، أنها كانت تستغل لصالح الشعب الروماني ، وأن دخلها لم يكن يدخل إلى الخزانة الشخصية للإمبراطور ، بل كان يدخل إلى خزانة الدولة الرومانية ، ويدعم أصحاب هذا الرأي وجهة نظرهم بذكر الكثير من النصوص القديمة التي وردت فيها مصر مقرونة بكلمة ولاية (١).

ولعل من الأسباب التي أدت إلى إشعال الجدل حول وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية، تلك النظم التي اختص بها أوغسطس ولاية مصر ، من بين سائر الولايات الأخرى ، ومن المعروف أن الولايات التي كانت تتبع السناتو ، كان يتولى إدراتها حكام يتم اختيارهم في الغالب من بين القناصل السابقين ، ويحمل حاكم الولاية لقب " قنصل سابق " Pro Consul ، أما الولايات التي تتبع الإمبراطور ، فقد كان حاكمها يعتبر مندوبًا Legatus عن الإمبراطور في هذه الولايات ، وكان يطلق عليه في بعض الأحيان " مندوب أوغسطس " Lagatus Augusti (٢).

وفيما يتعلق بمصر فقد اختلف الأمر اختلافًا بينًا ، فإن أوغسطس لم يول عليها واحداً من طبقة السناتو ، لأنه لم يكن يثق في أفراد هذه الطبقة (٣)، الذين غدروا بيوليوس قيصر واغتالوه ، على الرغم من أنه كان كريمًا معهم ، وعفا عنهم ، بعد انتصاره في فارسالوس ، وكان ينوي وضع البعض منهم في مراكز قيادته في الدولة . لذا فإن أوغسطس عين على مصر واليًا من طبقة الفرسان equites (٤)، وهي الطبقة التي كان أفرادها يدينون بالولاء للإمبراطور أوغسطس ، ونظراً لوجود عدد كبير من القوات في مصر ، التي ينبغي أن تكون خاضعة لسلطة الوالي ، فقد قرر أوغسطس القيام بإجراء استثنائي ، وهو منح سلطة الإمبريوم لوالي مصر ، ومن المعروف أن هذه السلطة لم تكن تمنح إلا لرجال طبقة السناتو .

---

(١) أورد الدكتور عبد اللطيف أحمد على نماذج لنصوص قديمة وصفت فيها مصر بكلمة ولاية . انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

(٢) عن إدارة الولايات في عصر أوغسطس انظر : سيد الناصري : المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٣) بل : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(4)Reinmuth .O.W, The Prefect of Egypt from Augutus To Diocletian. P. 1 .

يرجع الاهتمام الشديد الذى أولاه أوغسطس لمصر ، إلى عدة أسباب ، وأولها السبب الاقتصادى (١)، فقد كانت مصر تمد روما بثلث احتياجاتها السنوية من الغلال (٢)، وكان أوغسطس يخشى من أن يتولى إدارة مصر أحد القادة الطموحين ، فيحاول الاستقلال بهذه الولاية ، وهى بلد يسهل الدفاع عنه ، ومن الممكن لهذا القائد المتمرد أن يمنع القمح عن روما ، فيعتصرها بالمجاعة .

لذلك حرص أوغسطس على تأمين ولاية مصر ، فوضع فيها قوات كبيرة العدد ، كما وضع على رأس هذه الولاية واحداً ممن يدينون له بالولاء ، من طبقة الفرسان ، وأعطاه لقبًا من ألقاب هذه الطبقة وهو لقب Praefectus ، فكان اللقب الرسمى لوالى مصر هو Praefectus Aegypti ، وفى بعض الأحيان كان يطلق عليه " والى الإسكندرية المتاخمة لمصر " Praefectus Alexandriae ad Aegyptum ، حيث كان ينظر إلى الإسكندرية باعتبارها كيانًا منفصلاً عن مصر (٣).

وإمعانًا فى الحرص على مصر ، أصدر أوغسطس قراراً يحرم بمقتضاه على رجال السناتو والبارزين من الرومان ، دخول مصر إلا بعد الحصول على إذن من الإمبراطور(٤). ويرى بعض الباحثين أن ما دفع أوغسطس إلى اتخاذ هذا القرار ، سبب آخر إضافة إلى خوفه من رجال طبقة السناتو ، وهو أن الزيارات الكثيرة التى قد يقوم بها ذوى المكانة الرفيعة من الرومان لمصر ، التى يعد واليها فى مرتبة أدنى منهم ، قد يؤدى إلى إحراج الوالى ، وإضعاف مكانته بين مرؤسيه ، لذا أراد أوغسطس أن يمنع هذا الحرج (٥).

وحسمًا للجدل الذى ثار حول وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية ، وما إذا كانت ولاية عادية ، أم أنها من الأملاك الخاصة للإمبراطور ، فإننا نقول أن مصر كانت ولاية رومانية ،

---

(١) يقول الدكتور بومان أن مصر ظلت لمدة ٣٥٠ عامًا ، وحتى إنشاء مدينة القسطنطينية ، تقوم بدور المصدر الرئيسى للغلال لروما ، وأنها كانت فى عصر أوغسطس تمد روما بعشرين مليون موديوس من الغلال : Bowman, op. cit. 38 .

(2) Lewis. N, Life in Egypt under Roman Rule. p. 15 .

(٣) ورد ذكر الوالى فى الوثائق مشفوعًا بألقاب أخرى انظر : Reinmuth, op. cit. 9.

(4) Tacitus. II 59 .

(5) Lewis, op. cit. p. 16 .

شأنها فى ذلك شأن سائر الولايات الأخرى ، وكان دخلها يذهب إلى خزانة الدولة العامة ، وليس إلي خزانة الإمبراطور الشخصية ، ولكن نظراً لأهميتها الشديدة ، فإن الشعب الرومانى عهد إلى الإمبراطور بأن يقوم بادارتها نيابة عنه ، باعتباره المواطن الأول فى الدولة ، ولأن أوغسطس بدوره كان يدرك مدى أهمية هذه الولاية ، لذا فقد ميزها بنظم خاصة [١]. وذلك نظراً لأنه يعرف أكثر من غيره مصلحة الشعب الرومانى ، وما دام أوغسطس قد أراد ذلك ، فعلى الدولة أن تمتثل ، وكما قال الشعر أوڤيد Ovidius فإن " قيصر هو الدولة " res est puplica caesar [٢]. وهكذا يمكننا القول فى النهاية بأن مصر كانت ولاية رومانية متميزة .

مصر فى عصر أوغسطس :

كان كورنيليوس جاللوس Cornelius Gallus أول الولاة الرومان على مصر [٣]، وهو أحد القادة الذين أبلوا بلاءً حسنًا فى فتح مصر ، وكان يتولى قيادة القوات التى اقتحمت حدود مصر الغربية ، واستولت على برايتونيون (مرسى مطروح) ، وكان من الرجال المقربين إلى أوغسطس . وربما كان واحداً من الرسل الذين بعث بهم أوغسطس ، للتفاوض مع كليوباترة قبل انتحارها .

---

(١) راجع العرض الطيب الذى قدمه الدكتور محمد السيد عبد الغنى عن وضع مصر فى عصر الإمبراطور أوغسطس انظر : محمد السيد عبد الغنى : لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الرومانى . ص ٦٥ - ٨٠ .

(2) Ovid. Tristia. 4.4.15 .

إوڤيد من شعراء العصر الأوغسطس ، وعاش ما بين عامى ٤٢ ق.م. وحتى عام ١٧ ميلادية . وكان شاعراً غزير الإنتاج . ولكنه كان مستهتراً ، وقد اتهم بإقامة علاقة مع يوليا ابنة الإمبراطور أوغسطس التى عرفت بالخلاعة ، فأصدر الإمبراطور أمراً بنفيه إلى منطقة فى البحر الأسود ، فأخذ يبعث بالرسائل إلى الإمبراطور لكى يستعطفه حتى يعود إلى روما مرة أخرى ، ومنها مجموعة رسائل تسمى " الأحزان " Tris-tia، وربما كانت هذه العبارة تدخل فى مجال النفاق السياسى ، وثمة أمر جدير بالملاحظة ، وهو أن أوڤيد يصف الدولة بكلمة res Publica (الجمهورية) ، ويبدو أن الشاعر مثل كافة معاصريه ، لم يكن يدرك مدى التحول الذى طرأ على النظام السياسى فى الدولة . عن أوڤيد وحياته وأعماله انظر : أحمد عتمان : الأدب اللاتينى ودوره الحضارى . عالم المعرفة العدد ١٤١ ص ٢٦٣ - ٢٧٨ .

(3) Reinmuth, op. cit. p. 1 .

لم يكد يمر وقت طويل على الحكم الرومانى فى مصر ، حتى هبت ثورة عارمة فى مدينة طيبة ، بسبب التنظيمات المالية الجديدة التى طبقها الرومان ، وقد انفجر غضب الأهالى عند ظهور جباة الضرائب الرومان[١]. وكانت المشاعر الوطنية لدى المصريين ، والتى كثيراً ما أسفرت عن العديد من الثورات فى عصر البطالمة ، ماتزال كامنة تحت الرماد . وقد بلغت ثورة طيبة حداً من العنف جعل الوالى الرومانى يتوجه بنفسه على رأس قواته لإخمادها [٢]. وعندما نجح فى تحقيق هذه المهمة ، انتشى بما حققه من انتصار ، وخلد ذكرى انتصاره على ثورة طيبة ، فى نقش عثر عليه فى جزيرة فيلة (جنوب مصر) [٣]. وبعد إخماد ثورة طيبة واصل كورنيليوس جاللوس سيره ، حتى بلغ منطقة تقع وراء الشلال الأول لنهر النيل ، وقال مفاخراً إن هذا الموقع لم تبلغه قوات رومانية من قبل ، كما أن قوات البطالمة لم تصل إليه ، واستطرد جاللوس قائلاً إنه أدخل ملك الأثيوبيين تحت الحماية الرومانية [٤].

والواقع أن كورنيليوس جاللوس جاوز الحقيقة ، حينما قال أن قوات البطالمة لم تصل إلى المنطقة التى وصلت إليها قواته ، أما ادعاؤه بأنه قام بتأمين الحدود الجنوبية لمصر ، فهو أمر تكذبه الأحداث ، فسرعان ما تعرضت حدود مصر الجنوبية للهجوم ، كما سنعرف فيما بعد . ويبدو أن هذا الوالى قد أسكرته نشوة النصر ، ونسى حساسية منصبه ، فقام بتسجيل انتصاره على الأهرام ، وأقام لنفسه تماثيل فى أماكن متفرقة من مصر ، ولما كان أوغسطس شديد الحساسية تجاه ولاية مصر ، فإنه عندما تناهى إلى سمعه ، ما قام به واليه فى مصر ،

---

(1) Reinmuth, op. cit. 1 .

(2) Strabo. XVII, 53 .

(٣) أورد الدكتور عبد اللطيف أحمد على هذا النص ، وقدم له تحليلاً وافياً ، وفند ادعاءات جاللوس . انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٥٩ - ٦٢ .

(٤) كلمة إثيوبوس Ethiopos باليونانية تعنى ذوى الوجوه السمراء ، وقد اعتاد الكتاب الإغريق والرومان أن يطلقوا اسم إثيوبيا Ethiopia على البلاد التى يقطنها أصحاب البشرة السمراء ، ومن ثم فقد أطلقوا هذا الاسم على المنطقة التى تقع جنوب الحدود المصرية (السودان الحالية) ، ويقول المؤرخ هيرودوت على سبيل المثال فى الكتاب الثانى " يسكن الأثيوبيون المنطقة التى تلى إليفانتينا مباشرة " انظر :
Herod. II.29 .

توجس خيفة من طموح هذا الوالى ، فأمر بعزله ، وتقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى، ولما علم كورنيليوس بهذا القرار أقدم على الانتحار فى عام ٢٦ ق.م[١].

كان ثانى الولاة الرومان فى مصر فى عهد أوغسطس هو إيليوس جاللوس Aelius Gallus ، الذى شغل هذا المنصب فيما بين عامى ٢٦ - ٢٤ ق.م. وكانت أهم الأحداث فى عهده هى حملته على بلاد العرب[٢] .

حملة إيليوس جاللوس على بلاد العرب :

ورث الرومان عن البطالمة الاهتمام بالجزيرة العربية ، والحرص على تأمين طرق التجارة الشرقية ، وقد أشرنا من قبل إلى الجهود التى بذلها البطالمة فى هذا المجال ، وعلى رأسهم بطلميوس الثانى فيلادلفوس ، حيث أقاموا العديد من الموانىء على شاطىء البحر الأحمر لهذا الغرض ، وقد ازداد اهتمام البطالمة بالبحر الأحمر ، باعتباره شريانًا حيويًا للتجارة الشرقية ، وبخاصة بعد أن فقدوا إقليم جوف سوريا ، بعد استيلاء أنطيوخس الثالث عليه فى عام ٢٠٠ ق.م. وكان هذا الإقليم يمثل أحد الطرق التجارية الحيوية فى المنطقة [٣].

بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية فى عام ٣٠ ق.م. حرص الإمبراطور أوغسطس على بذل أقصى الجهد لتأمين طرق التجارة الشرقية ، التى كان يسيطر عليها العرب . فأصدر أوامره إلى الوالى الرومانى فى مصر بتجريد حملة على بلاد العرب السعيدة (اليمن) . ويذكر استرابون أنه كانت هناك عدة أهداف من وراء إرسال هذه الحملة [٤]، أولها إخضاع مداخل البحر الأحمر للسيطرة الرومانية ، وكذلك ما سمعه أوغسطس عن الثروة التى تتمتع بها بلاد العرب ، ويمكن أن نضيف سببًا آخر ، لا يقل أهمية عن سابقيه ، وهو الرغبة فى تأمين طرق التجارة مع الهند [٥].

---

(1) Dio Cassius. 53 , 23 . 5; Rienmuth, op. cit. pp. 6, 120 .

(٢) راجع ما كتبه الدكتور لطفى عبد الوهاب عن هذه الحملة انظر: لطفى عبد الوهاب يحيى . تاريخ العرب فى العصور القديمة ص ٤٢٤ - ٤٢٩ .

(٣) نورة النعيم ، الوضع الاقتصادى فى الجزيرة العربية من القرن الثالث ق.م. حتى القرن الثالث الميلادى . ص ٢٤٩ ، ٢٧٦ .

(4) Strabo. XVI, 4. 22 .

(5) Rostovtzef, M., Social and Economic History of The Roman Empire. pp. 66, 94 .

يذكر استرابون أن هدف هذه الحملة لم يكن استشكاف موانىء بلاد العرب فقط بل إثيوبيا أيضًا :Strabo XVI, 4. 22 .

حشد الوالى الرومانى جيشًا كبيراً قوامه عشرة آلاف جندى ، وأرسل ملك الأنباط عبادة الثالث ألفًا من جنوده للمشاركة فى الحملة ، وعلى رأسهم وزيره سيلايوس Sylaius (صالح)، لكى يقوم بمهمة إرشاد القوات الرومانية داخل بلاد العرب [١]، كما أرسل هيرود Herod ملك اليهود خمسمائة من جنوده للمشاركة فى الحملة ، وأعد الوالى الرومانى أسطولاً كبيراً فى ميناء أرسينوى ، الذى يقع عند الطرف الشمالى لخليج السويس [٢]، لنقل الجيش إلى الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر .

نزل الأسطول الرومانى فى أرض الجزيرة العربية ، فى ميناء اليوكى كومى Leuke Kome (القرية البيضاء) ، وهو ميناء تابع للأنباط ، وكان على الحملة أن تواصل سيرها إلى اليمن عن طريق البر ، وهى مسافة طويلة ، واجه خلالها الجيش الرومانى مصاعب جمة ، لأن الرومان كانوا يجهلون حروب الصحراء ، وعانوا من نقص المياه ، كما فتكت الأمراض المتوطنة بأعداد كبيرة من الجنود . ولما كانت القوات النظامية تحتاج إلى طرق صالحة لسير تشكيلات كبيرة من الجنود ، وهو ما تفتقر إليه بلاد العرب ، فقد استغرقت الحملة ستة شهور ، حتى وصلت إلى أراضى دولة سبأ فى اليمن ، وحين وصلت الحملة إلى غايتها ، كان الجنود قد أصابهم الإنهاك ، وأدركهم اليأس [٣].

تمكنت القوات الرومانى بعد لأى ، من الوصول إلى مأرب Mariba عاصمة السبأيين ، وبعد حصار دام ستة أيام فقط ، أدرك إيليوس جاللوس عدم جدوى الحصار ، لعدم توافر إمدادات المياه والغذاء ، لذلك قرر فك الحصار والعودة مرة أخرى من حيث أتى ، وعادت القوات الرومانية فى هذه المرة عن طريق البحر مباشرة ، فابحرت من شواطىء اليمن إلى مصر [٤] .

والحقيقة أن الحملة فشلت من الناحية العسكرية ، ولكنها حققت نجاحًا من الـ السياسية والتجارية ، يرى استرابون الذى كان معاصراً للحملة ، وكانت تربطه صداقة -

---

(1) Strabo. XVI, 4. 23 .

(٢) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(3) Strabo. XVI, 4. 24 .

(٤) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

مع إيليوس جاللوس ، أن مسئولية فشل الحملة تقع على رأس الوزير النبطى سيلايوس ، الذى تعمد تضليل الحملة ، وكان حريصًا على ألا تحقق أهدافها ، ويستطرد إسترابون قائلاً أن الرومان حين تكشف لهم خداع الوزير النبطى ، وخيانته لهم حكموا عليه بالإعدام (١).

وشهد عصر أوغسطس حملة رومانية أخرى على بلاد اليمن ، ويذكر الكاتب الرومانى بلينيوس Plenius ، أن الرومان أرسلوا حملة بقيادة جايوس قيصر ، حفيد أوغسطس ، وأن هذه الحملة لم تستغرق وقتًا طويلاً ، لأن الهدف منها كان إلقاء نظرة على بلاد العرب (٢). كما جاء فى كتاب الطواف Periplos ، الذى وضعه كاتب مجهول ، أن قيصر أخضع ميناء عـدن Eudaimon ، وسواء أكان قيصر المذكور هنا هو جايوس قيصر ، أم أوغسطس الذى عادة ما كان يذكر فى الوثائق باسم قيصر ، فإن النتيجة واحدة ، وهى أن النفوذ الرومانى فى جنوب الجزيرة العربية أصبح قويًا ، ومنذ ذلك الحين أخذت تتوافد على روما للمرة الأولى ، بعثات عديدة من دول جنوب بلاد العرب ، بل من الهند أيضًا . وعلى الرغم من أن المصادر لم تذكر أهداف هذه البعثات على وجه التحديد ، فلا مناص من الاعتقاد بأن التجارة كانت على رأس هذه الأهداف (٣). وخير دليل على ذلك ، ما شهدته التجارة بين روما والهند من ازدهار فى عصر كل من أوغسطس وخليفته تيبيريوس ، فقد عثر فى أحد المواقع الآثارية فى الهند على عملات يرجع تاريخها إلى عصر هذين الإمبراطورين (٤).

أما فيما يتعلق بالجزيرة العربية ، فإن بعض الباحثين يرون أنه قام تحالف بين الإمبراطورية الرومانية والدولة الحميرية ، فى فترة مبكرة من عصر أوغسطس(٥). وقد ظلت بلاد العرب بشكل عام ترتبط بعلاقة تحالف وصداقة مع الإمبراطورية الرومانية ، حتى تم ضم بلاد العرب رسميًا إلى الإمبراطورية الرومانية ، فى عهد الإمبراطور تراجان Trajan فى عـام ١٠٦ م ، بغرض إكمال سيطرة الرومان على المنطقة (٦). لذلك فقد قرر الإمبراطور تراجان ، فتح القناة

(1) Strabo. XVI, 4. 24 .

(2) Pliny. N.H. VI. 141 .

(3) Vimal Begley and Richard Daniel De Puma, Rome and India. The Ancient sea Trade. p. 27 .

(4) Vimal Begley and Richard Daniel , op. cit. 40 .

(5) Rostovtzeff, op. cit. p. 576. n. 18 .

(6) Bowman, op. cit. p. 40 .

التى تربط بين النيل والبحر الأحمر ، من أجل تسهيل الاتصال بين الممتلكات الرومانية فى المنطقة [١].

وإذا ما عدنا إلى مصر لكى نواصل استعراضنا لتاريخ هذه الولاية فى عصر الإمبراطور أوغسطس ، فإننا نلاحظ أن غياب القوات الرومانية عن مصر ، فى حملة بلاد العرب ، قد أغرى الأثيوبيين ، أى سكان المناطق التى تقع جنوب مصر ، بأن ينقضوا الاتفاق الذى سبق لهم أن أبرموه مع أول الولاة الرومان على مصر ، فأغاروا عى المناطق الجنوبية فى مصر ، بقيادة ملكتهم كنداكى Kandake ، ونهبوا جزيرتى فيلة والفنتين ، وكذلك أسوان[٢] . وأسروا بعض الأهالى ، واستولوا على تماثيل أوغسطس [٣].

وهكذا وجد ثالث الولاة الرومان فى عصر أوغسطس ، وهو جايوس بترونيوس Gaius Petronius (٢٤ - ٢١ ق.م) ، نفسه مضطراً إلى قيادة قواته صوب الجنوب ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بالأثيوبيين ، وطارد قواتهم حتى حصن بريميس Primis (قصر إبريم) ، وتوغل فى الجنوب حتى مدينة نباتا Nabata (جبل برقل) ، فاستولى على المدينة ، التى كان الأثيوبيون يتخذونها عاصمة لهم ، وأجبر الملكة كنداكى على توقيع معاهدة صلح ، اكتفى بترونيوس من خلالها باسترداد ما استولى عليه الأثيوبيون ، وعلى رأسها تماثيل الإمبراطور .

بعد الحملة الأثيوبية عاد بترونيوس أدراجه ، بعد أن ترك حاميات على الحدود ، لكن الأثيوبيون عاودوا الهجوم مرة أخرى ، فأعاد الوالى الكرة ، وهاجمهم مرة ثانية ، وعندما وصل إليه وفد منهم طالبًا الصفح ، أرسلهم إلى الإمبراطور لكى يتفاوضوا معه . وكان أوغسطس آنذاك يقضى شتاء عام ٢١ - ٢٠ ق.م. فى جزيرة ساموس Samos ببحر إيجة ، وقد وافق الإمبراطور على إبرام الصلح معهم ، وأعفاهم من دفع الجزية . وفى هذه المرة أقام الرومان استحكامات قوية على الحدود ، ووضعوا قوات كافية ، وكان هذا كفيلاً بتحقيق السلام ، فلم تشهد المنطقة اضطرابات لفترة طويلة [٤]. وأقام أوغسطس فى كلابشة معبداً

---

(١) أبو اليسر فرح : النيل فى المصادر الإغريقية ، ص ١٦٦ .

(2) Reinmuth, op. cit. p. 120 .

(٣) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٤) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

لأحد الآلهة المحلية ، مما يدل على استتباب الأمن في المنطقة (١)، ويعد بترونيوس آخر الولاة الرومان في مصر ، الذين قاموا بحملات عسكرية (٢).

التاريخ السياسي لمصر تحت الحكم الروماني :

عصر العائلة اليوليوكلودية :

بعد وفاة الإمبراطور أوغسطس في عام ١٤ ميلادية ، تولى العرش ابنه بالتبني تيبيريوس Tiberius (٣)، وكان تيبيريوس قد تمرس في الأعمال الإدارية قبل أن يتولى العرش ، وقد عرف بالشدة والحزم (٤)، وتذكر المصادر أنه وقف موقفًا حازمًا من واليه في مصر (٥). وكان هذا الوالي قد أراد أن يسترضي الإمبراطور ، فأرسل إلى روما مقداراً أكبر من الجزية ، التي كانت مفروضة على مصر ، فغضب تيبيريوس وعنفه على هذا المسلك قائلاً له " إنني أرسلتك لكي تجز غنمي ، لا لكي تسلخها " ، وقد شهدت مصر في عهد تيبيريوس حالة من الرخاء والاستقرار ، مثل سائر ولايات الإمبراطورية الرومانية ، التي نعمت جميعها بالسلام الأوغسطي Pax Augusta ، لذلك فقد تقرر سحب واحدة من الفرق الرومانية ، التي كانت ترابط في مصر منذ عهد الإمبراطور أوغسطس ، وظهرت بشائر الرخاء الاقتصادي متمثلة في إصدار عملة جديدة في مصر (٦).

---

(1) Bowman, op. cit. pp. 40 - 41 .

(2) Reinmuth, op. cit. p. 121 .

(٣) مما هو جدير بالذكر أن أوغسطس لم ينجب غير إبنة واحدة هي يوليا Julia ، وكان مهمومًا بمشكلة وراثة العرش ، وعندما تزوج ليفيا في عام ٣٨ ق.م. كان لها من زوجها السابق ابن يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، وهو تيبيريوس ، ولم تلبث أن وضعت إبنها الثاني بعد أيام قليلة من زواجها بأوغسطس ، أطلقت عليه اسم دروسوس ، ولم يقع اختيار أوغسطس على واحد من أبناء زوجته لكي يكون خليفة له ، ولكن بعد النكبات التي حلت به ، إثر وفاة من وقع عليهم اختياره واحداً تلو الآخر ، اضطر صاغراً إلى تبني الابن الأكبر لزوجته ، وقام بتزويجه من ابنته التي سبق لها الزواج أكثر من مرة ، لذا فإن تيبيريوس ينتمي في الأصل إلى عائلة والده الحقيقي ، وهي العائلة الكلودية ، كما ينتمي في نفس الوقت إلى عائلة أبيه بالتبني ، أي العائلة اليولية . للحصول على المزيد من المعلومات حول هذا الأمر انظر : سيد الناصري : المرجع السابق ، ص ٩٠ – ٩٦ .

(٤) آمال الروبي : مصر في عصر الرومان ، ص ٧٣ .

(5) Dio Cassius. 57. 10.5.

(٦) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

ولعل أهم الأحداث الى شهدتها مصر فى عهد الإمبراطور تيبيريوس ، هى زيارة جرمانيكوس Germanicus للإسكندرية (١)، وهو ابن شقيق الإمبراطور تيبيريوس ، وكان الإمبراطور قد تبناه ، بعد وفاة والده ، وكان ينظر إليه باعتباره وليًا للعهد ، وقد تمتع بحب الرومان نظراً لكفاءته العسكرية ، وقد أسند إليه الإمبراطور مهمة تنظيم شئون بعض الولايات الشرقية (٢)، ومر فى طريقه ببلاد اليونان ، حيث استقبل بحفاوة بالغة ، وأحبه الناس لبساطته وتواضعه ، وأقيمت تماثيله ، وسكت عملة تحمل اسمه ، وخلعت عليه الألقاب . ولاشك أن هذه الأمور جميعًا أثارت حساسية الإمبراطور تيبيريوس وغيرته .

بعد أن أنجز جرمانيكوس مهمته ، تراءى له أن يزور مصر لمشاهدة معالمها ، فوصلها فى أوائل عام ١٩م ، وقد برر قيامه بتلك الزيارة برغبته فى معالجة أزمة اقتصادية كانت تمر بها مصر ، بسبب انخفاض فيضان النيل فى ذلك العام . ويذكر المؤرخ تاكيتوس أن جرمانيكوس أقدم على زيارة مصر دون أن يستأذن الإمبراطور ، مخالفًا بذلك القاعدة التى وضعها أوغسطس (٣). ولم يراع جرما نيكوس أثناء وجوده فى مصر التقاليد التى تكفل الحفاظ على هيبة البيت الحاكم ، فسار بين الناس مرتديًا الزى الإغريقى ، وكان ينتعل صندلاً إغريقيًا . كما أمر بفتح صوامع الغلال ، وتوزيع القمح على الناس ، حتى يخفف من وطأة المجاعة ، مما جعل الناس يحبونه ، ويبالغون فى إظهار تقديرهم له . وقد أثارت هذه المظاهر انزعاج الأمير الشاب ، فأصدر عدة منشورات لكى ينهى الناس عن المبالغة فى إسباغ مظاهر التكريم عليه ، ومناداته بالألقاب التى " لا تليق إلا بأبى المنقذ الحقيقى للجنس البشرى " ، والمقصودبأبيه هو الإمبراطور تيبيريوس (٤).

---

(١) كان أبوه قد أحرز انتصارات فى بلاد الجرمان ، لذلك خلع عليه السناتو لقب جرمانيكوس ، أى قاهر الجرمان فى عام ٩ ق.م. ، وحملت ذريته اللقب من بعده .

(٢) محمد السيد عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(3) Tacitus. Ann.II. 59 - 61 .

(٤) يرجع الدكتور عبد اللطيف أحمد على حماس السكندريين وترحيبهم بجرما نيكوس إلى سبب آخر ، بالإضافة إلى بساطة هذا الأمير وتواضعه ، وإنقاذه لهم من المجاعة ، وهو أن السكندريين كانوا يحملون فى أعماقهم كراهية للإمبراطور ، وكانوا يعلمون بوجود جفوة بينه وبين ابن شقيقه ، لذلك بالغوا فى الترحيب بجرما نيكوس نكاية فى عمه . انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

قام جرما نيكوس برحلة نيلية ، بدأها من كانوب (جنوب أبى قير الحالية) حتى مدينة طيبة ، ولفت نظره تمثالا ممنون [١]، ومما هو جدير بالذكر أن زيارة جرما نيكوس لمصر وما جرى خلالها ، أدت إلى غضب الإمبراطور تيبيريوس ، مما دفعه إلى الشكوى إلى السناتو .

بعد انتهاء زيارته لمصر ، قرر جرمانيكوس العودة عن طريق سوريا ، وكان على خلاف مع واليها ، وفى أثناء وجوده فى مدينة أنطاكية توفى فجأة ، واتهم هذا الوالى بدس السم للأمير فى طعامه ، فصدر الحكم عليه بالإعدام ، ولكن الشائعات رددت بأن الإمبراطور نفسه كان ضالعًا فى المؤامرة التى أودت بحياة ابن شقيقه [٢].

الإمبراطور جايوس (كاليجولا) ٣٧ - ٤١ م :

هو ابن الأمير جرما نيكوس الذى سلفت الإشارة إليه ، وقد تولى العرش ولم يتعد الخامسة والعشرين . وكانت أهم الأحداث التى وقعت فى مصر فى عهد هذا الإمبراطور هى فتنة اليهود فى عام ٣٨ م . والحقيقة أن السكندريين كانوا يكرهون اليهود بسبب مواقفهم المؤيدة للرومان ، إضافة إلى إحساسهم بأن أوغسطس قد ميز اليهود ، حين سمح لهم بتطبيق قوانينهم ، وبأن يكون لهم مجلس للشيوخ ، بينما حرم السكندريين من أن يكون لهم مجلس للشورى ، ولما كان السكندريون عاجزين عن المجاهرة بكراهيتهم للرومان ، فإنهم راحوا ينفسون عن هذه المشاعر تجاه اليهود ، باعتبارهم عملاء للرومان . ومما هو جدير بالذكر أن الوالى الرومانى فى مصر فى عهد الإمبراطور تيبيريوس كان قد أصدر منشوراً يحرم على الأهالى حمل السلاح [٣]، ويعلن توقيع عقوبات صارمة على كل من يضبط لديه سلاح . فهل يمكننا أن نستشف من هذا المنشور أن الصدام بين اليهود والسكندريين كان أمراً متوقعًا ، وأن كلا الطرفين كان يكدس السلاح استعداداً للصراع ؟ .

---

(١) ممنون فى الأساطير الإغريقية هو ملك إثيوبيا ، وهو ابن إيوس Eos ربة الفجر ، وقد ذهب إلى طروادة لمساعدة الملك برياموس بعد مقتل ابنه هكتور ، ولكنه قتل ، فحزنت عليه أمه حزنًا شديداً واحتجبت وراء السحب ، ويقال أن رذاذ الندى هو دموع إيوس ، وقد أطلق الإغريق اسمه على تمثالى أمنحوتب الثالث وزوجته فى مدينة حابو . وهو تمثال ضخم عندما تسقط عليه أشعة الشمس وقت الشرق يخرج صوتًا يحاكى صوت الأوتار ، وتقول الأسطورة أن إيوس كانت تنادى على ابنها كل صباح . انظر : أمين سلامة : معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية . القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) آمال الروبى : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(3) Philo. in Flaccc. 86 .

كانت الشرارة التى أطلقت الصراع بين اليهود والسكندريين ، هى وصول أمير يهودى إلى الإسكندرية ، وكان هذا الأمير يدعى أجريبا Agrippa وهو حفيد هيرود Herod الملك اليهودى المعروف ، وكان أجريبا قد قضى شطراً من حياته فى روما ، وعاش فى القصر الإمبراطورى مع أبناء الأسرة الحاكمة ، وخلال هذا الوقت توثقت علاقته بالإمبراطور كاليجولا منذ الصغر ، وأراد الإمبراطور أن يكافأه ، فأمر بإقامته ملكًا على إيتوريا ، وهى إمارة صغيرة تقع على حدود بلاد اليهودية Iudaea (١). وكان السكندريون يعرفون هذا الأمير الذى عاش فى مدينتهم لبعض الوقت ، وكان مسرفًا متلافًا ، ويعانى فى أغلب الأحيان من مطاردة دائنيه ، لكنهم فوجئوا به يأتى إلى الإسكندرية فى عام ٣٨ م ، وهو فى طريقه لكى يصبح ملكًا (٢).

أما اليهود فقد هللوا لوصول أجريبا إلى الإسكندرية ، واستقبلوه استقبالاً ملكيًا ، مما أثار غيظ السكندريين ، وجعلهم يقررون إفساد احتفال اليهود ، فأحضروا معتوهًا من سكان المدينة، كان معروفًا باسم كراباس Karabas (الكرنب) ، ووضعوا على رأسه تاجًا ، وألبسوه خرقة بالية ، وأحاطوه بحرس ، وساروا به فى شوارع المدينة ، وأخذوا يرددون كلمة «الملك » سخرية من أجريبا (٣). ويبدو أن السكندريين فى غمرة مشاعرهم ضد اليهود ، تناسوا أن أجريبا كان مقربًا من الإمبراطور ، فأرادوا أن يتجنبوا غضب الإمبراطور كاليجولا ، فبرروا تصرفهم هذا بأن تلك المظاهرة موجهة ضد اليهود ، الذين يرفضون وضع تماثيل الإمبراطور فى معابدهم(٤) ، وحتى يثبتوا صدق هذه المقوله ، فإنهم اقتحموا معابد اليهود ، ووضعوا فيها تماثيل الإمبراطور ، وهو أمر يسىء إلى الديانة اليهودية ، التى ترفض مظاهر الوثنية .

شكل هذا الموقف إحراجًا للوالى الرومانى فى مصر ، ووجد أنه من الأفضل له أن ينحاز إلى السكندريين ، فأصدر منشوراً ذكر فيه أن اليهود دخلاء على الإسكندرية ، وأمر بسحب الامتيازات الممنوحة لهم ، وقام بمحاكمة زعمائهم (٥). وقد شجع موقف الوالى السكندريين على التمادى فى عدائهم لليهود ، فهاجموهم ، وأجبروهم على الانزواء داخل حيهم ، وهو

(١) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .
(٢) محمد السيد عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٨٥ .
(٣) مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .
(٤) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(5) Philo . in Flacc. 54 .

الحى الرابع المعروف بحى " دلتا " ، وقاموا بنهب حوانيتهم ، وأضرموا النار فى معابدهم ، ويذكر الكاتب اليهودى فيلون ، أن شوارع الإسكندرية شهدت مذابح رهيبة ضد اليهود (١).

والواقع أن الوالى الرومانى أساء التصرف ، فالقى القبض على عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ اليهودى ، وأمر بجلدهم (٢)، وتم تنفيذ هذه العقوبة فى يوم ٣١ أغسطس ، الذى يوافق عيد ميلاد الإمبراطور ، كما أجبر السكندريون بعض اليهود على أكل لحم الخنزير علانية . مما دفع اليهود إلى تقديم شكوى للإمبراطور كاليجولا من الهوان الذى حاق بهم ، وانحياز الوالى ضدهم ، وقد اقتنع الإمبراطور بأن الوالى قد أساء التصرف ، فأرسل قوة نزلت فى الإسكندرية تحت جنح الظلام ، والقت القبض عليه (٣)، وتم اقتياده إلى روما ، حيث قدم للمحاكمة ، وصدر الحكم بنفيه ومصادره ممتلكاته ، ثم أعدم بعد ذلك (٤).

سارع كلا من اليهود والسكندريين بإرسال سفارة إلى روما ، لشرح وجهة نظر كل منهما للإمبراطور ، وكانت البعثة اليهودية بقيادة الكاتب اليهودى فيلون ، أما بعثة السكندريين فقد كان يرأسها أبيون Apion أحد زعماء المدينة ، وقد شاء حظ اليهود التعس أن يتلقى الإمبراطور فى ذلك الوقت ، أنباء تفيد بقيام اليهود بتدمير معبد أقامه الإغريق لعبادته فى فلسطين (٥)، فثار ثورة عارمة ، وأمر الوالى الرومانى فى سوريا بعمل تمثال ضخم له ، وإقامة هذا التمثال فى قلب معبد اليهود فى أورشليم .

عندما التقى الوفدان بالإمبراطور ، بادر بتوجيه اللوم لليهود ، ونعتهم بأنهم كفرة ، لأنهم لا يؤمنون بألوهيته ، ومن الواضح أن كاليجولا كان شديد الغضب على اليهود ، وأنه ينوى التنكيل بهم ، ولم ينقذهم من غضبه سوى اغتياله فى عام ٤١م (٦).

---

(1) Philo. in Flacc. 62 - 72 .

ينبغى أن نأخذ كلام فيلون بكثير من الحذر ، لأنه يميل فى الغالب إلى محاباة قومه من اليهود .

(٢) توفى بعض هؤلاء الزعماء أثناء تنفيذ العقوبة . انظر ك مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق، ص ١٥٢ .

(3) Reinmuth, op. cit. p. 6 .

(4) Philo. in Flacc. 147.ff .

(٥) كان الإمبراطور كاليجولا قد أصابته حالة من الجنون ، مما جعله يعتقد بأنه إله ، وأن على رعاياه أن يعبدوه ويقيموا من أجله المعابد .

(٦) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٠١ .

الإمبراطور كلوديوس Claudius ٤١ - ٥٤ م :

عندما تولى الإمبراطور كلوديوس العرش ، كانت آثار فتنة ٣٨م ما تزال بادية للعيان ، وكان على الإمبراطور الجديد أن يعمل على وضع نهاية للصراع بين اليهود والسكندريين ، وأراد كلوديوس أن يهدىء من روع اليهود ، بعد الخوف الذى سيطر عليهم ، بسبب غضب الإمبراطور السابق عليهم ، فأكد الامتيازات التى كانت لليهود قبل فتنة عام ٣٨م ، بعد أن قبل وساطة أجريبا الذى كانت تربطه علاقة حميمة بالإمبراطور كلوديوس أيضًا [١]، ولكن الإمبراطور من ناحية أخرى حرص على تحذير اليهود والسكندريين من إثارة الاضطرابات مرة أخرى . ولكن يبدو أن يهود الإسكندرية كانوا مايزالوا عى خوفهم من المستقبل ، فأعدوا للأمر عدته ، وأخذوا فى تخزين الأسلحة ، واستجلاب اليهود من فلسطين ، وكانوا هم الذين بدأوا فى العدوان على السكندريين فى عام ٤١ م ، ولكن الوالى الرومانى فى هذه المرة كان حازمًا ، فقضى على الفتنة فى المهد .

بعد أن هدأت الأحوال ، سارع كل من اليهود والسكندريين بإرسال بعثة إلى روما ، وكان الهدف الظاهر لهاتين البعثتين ، هو تهنئة الإمبراطور بتولى العرش ، أما الهدف الحقيقى فهو رغبة كل طرف فى الدفاع عن نفسه ، والقاء اللوم على الطرف الآخر .

حاول الإمبراطور أن يضع حدا لهذه الخلافات ، فبعث برسالة إلى الإسكندرية ، قام الوالى بتلاوتها على الملأ ، وقد وصل إلينا نص هذه الرسالة مدونًا على بردية عثر عليها فى إحدى قرى الفيوم [٢]. وتنقسم رسالة الإمبراطور إلى قسمين ، يتعلق الأول بمطالب السكندريين ، أما القسم الثانى فإنه يختص باليهود [٣].

فى القسم الأول من الرسالة قبل الإمبراطور تكريم السكندريين له ، ورحب بإعلان ولائهم له ، ووافق على أن يقام له تمثال من الذهب فى روما ، يعبر عن السلام الذى حققه أوغسطس وكلوديوس Pax Augusta Claudiana .

---

(1) Goodman. M, Roman World, p. 268 .

(2) P. Lond. 1912 .

(٣) حظيت هذه الرسالة باهتمام الكثيرين من الباحثين ، لمعرفة المزيد عن الدراسات التى أجريت حول هذه الرسالة . انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

ولكن الإمبراطور كلوديوس رفض مطلب السكندريين بأن يقيموا المعابد من أجل عبادته ، قائلاً أن إقامة المعابد يجب أن يكون للآلهة فقط ، وربما أراد بذلك ألا يكرر الخطأ الذى وقع فيه الإمبراطور كاليجولا . ومن ناحية أخرى فإن الإمبراطور كلوديوس أقر للسكندريين الامتيازات التى سبق للإمبراطور أوغسطس أن منحهم إياها ، ولكنه لم يستجب لطلبهم بإنشاء مجلس للشورى ، وقال لهم أنه سوف يحيل هذا الأمر إلى الوالى لكى يقوم ببحثه ، وفى النهاية ناشد السكندريين أن يكفوا عن التحرش باليهود ، وألا ينتهكوا شعائر عبادتهم.

أما فيما يتعلق باليهود ، فقد حذرهم من محاولة الحصول على امتيازات أكثر من تلك يتمتعون بها ، وأن عليهم ألا يقحموا أنفسهم فى معاهد الجمنازيوم ، التى تقتصر عضويتها على الإغريق فقط ، وأن عليهم ألا ينسوا أنهم يقيمون فى مدينة ليست مدينتهم ، كما أن عليهم ألا يستجلبوا يهوداً إلى الإسكندرية .

ويبدو إن هذه الرسالة لم ترض أحداً من الطرفين ، فبالنسبة لليهود فإنها لم تحقق آمالهم فى الحصول على المزيد من الامتيازات ، أما السكندريون فقد أثارت غضبهم لأنها أقرت لليهود حقوقهم القديمة (١). كما أن الإمبراطور لم يستجب لطلبهم الدائم الذى يتمثل فى إقامة مجلس للشورى ، ولما كان السكندريون عاجزين عن التعبير عن غضبهم بشكل علنى ، بسبب التحذير الذى وجهه لهم الإمبراطور فى رسالته ، فإنهم لجأوا إلى التنفيس عن مشاعرهم المكبوتة ، وذلك من خلال نوع من الأدب الشعبى ، عرف بأعمال السكندريين Acta Alexan-drinorum ، عبروا فيه عن كراهيتهم للرومان واليهود ، وقد احتوت هذه الأعمال على الكثير من المبالغات ، فهى تصور زعماء السكندريين فى صورة الأبطال ، الذين يتحدون الأباطرة الرومان (٢).

الإمبراطور نيرون Nero ٥٤ - ٦٨ م :

خلف نيرون الإمبراطور كلوديوس على عرش الإمبراطورية ، وتوجد اختلافات كبيرة فى الشخصية بين الاثنين ، فعلى حين كان كلوديوس رجلاً حازمًا ، فإن نيرون كان شابًا أرعن ،

---

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(2) Goodman. M, Roman World. p. 268 .

قدم الدكتور عبد اللطيف أحمد على تفصيلات حول نشأة هذا الأدب وطبيعته ، تحت عنوان أعمال السكندريين وأدب الشهداء . انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١٢٩ .

تولى العرش وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وكان تلميذاً للفيلسوف سينيكا Senica، وكان نيرون محبًا للفنون والشعر والموسيقى ، مما جعله ينصرف عن شئون الحكم فى أغلب الأحيان ، تاركًا الأمر فى يد مستشاريه ، كما أن والدته كانت حريصة على التدخل فى شئون الحكم ، مما جعله يقدم على قتلها فى عام ٥٩م ، وراح يتخبط فى إدارة الدولة ، وبلغ ولعه بالحضارة الإغريقية حداً جعله يشارك بنفسه فى الأعياد الأوليمبية ، بالعزف على القيثارة والغناء [١].

ولعل من أشهر الأحداث التى وقعت فى عهد الإمبراطور نيرون ، هو الحريق الشهير الذى شب فى مدينة روما فى عام ٦٤م ، واستمر لأكثر من ستة أيام ، وأتى على شطر كبير من المدينة . ويقال أن نيرون هو الذى دبر هذا الحريق حتى يتخلص من الأحياء القذرة فى العاصمة، وتذكر الروايات أن نيرون عندما شاهد روما وهى تحترق ، أمسك قيثارته وأخذ يعزف أغنية حزينة عنوانها " طروادة تحترق " ، ولكن النيران ما لبثت أن انقضت على قصر كان نيرون قد فرغ لتوه من بنائه[٢] .

انعكست حالة الاضطراب التى كان يعانى منها الإمبراطور ، على كافة نواحى الحياة فى الإمبراطورية ، فاندلعت حركات التمرد فى الولايات ، وكان أخطرها ثورة اليهود فى فلسطين، التى كان لها تأثيرها على الأحوال فى مصر ، وفى الإمبراطورية الرومانية بأسرها .

والحقيقة أن الرومان كانوا قد نجحوا إلى حد كبير فى صهر الشعوب التى انضوت تحت لوائهم ، ولكن اليهود استعصوا عليهم ، ورفضوا الاندماج فى البوتقة الرومانية ، وكان يوليوس قيصر قد نجح فى إقامة علاقة طيبة مع اليهود فى فلسطين ، واستمرت هذه السياسة فى عصر أوغسطس ، واستطاع ملك اليهود هيرود الكبير أن يمسك بزمام الأمور ، وظلت الأحوال هادئة ، ولكن بعد وفاته فى عام ٦م . أصبحت الدولة اليهودية أشبه بولاية لها حاكم خاص ، يخضع للوالى الرومانى فى سوريا .

وقد فجرت محاولات الإمبراطور كاليجولا لفرض عبادته على اليهود ، عقدة الخوف المتأصلة لديهم ، ولم يلبث الصراع أن انفجر بين اليهود وباقى سكان فلسطين من الشعوب الأخرى ، من ذوى الأصول الكنعانية ، وكذلك الفلسطينيين والسوريين .

---

(١) سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٢) سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

ومن ناحية أخرى ثار خلاف داخل اليهود أنفسهم ، بين معسكر المتشددين الذين يتمسكون بتعاليم التوراة بحذافيرها ، واليهود المتحررين الذين أقبلوا على الثقافة الإغريقية ، وكان لدى هؤلاء الأخيرين الرغبة والاستعداد للتقارب مع الرومان . بينما نظر اليهود المتشددون إلى الرومان نظرة اشمئزاز ، لأنهم وثنيون .

وفى عام ٦٦م اندلعت أعمال الشغب فى مدن فلسطين ، وأخذ اليهود يطالبون بالمساواة فى الحقوق السياسية ، مع باقى المواطنين ، وفى أورشليم انفجر الموقف ، حين قام الحاكم الرومانى بمصادرة مبالغ كبيرة من أموال هيكل أورشليم ، وفاء لضرائب متأخرة على اليهود ، ولم تلبث أحداث الشغب أن تحولت إلى ثورة عارمة ، تولى قيادتها أحبار اليهود . وفى فبراير عام ٦٧م قام الإمبراطور نيرون بإرسال أحد القادة وهو فلافيوس فسباسيانوس Flavius Vespasianus ، للقضاء على هذه الثورة .

كان لثورة اليهود فى فلسطين أصداء فى مصر ، وكما هو معروف فإن العلاقة بين اليهود والسكندريين كانت متوترة على الدوام ، وبينما كان حشد من السكندريين يجتمعون فى ملعب المدينة ، للتباحث حول إرسال بعثة إلى الإمبراطور ، لكى يعلنوا تأييدهم له ، بعد ثورة اليهود فى فلسطين ، اكتشفوا وجود بعض اليهود المندسين بينهم ، فقاموا بالاعتداء عليهم ، مما أثار غضب باقى اليهود [١]. ويلقى المؤرخ جوزيفوس اللوم على السكندريين ، ويرى أنهم البادئين بالعدوان على اليهود[٢] . وكان الإمبراطور نيرون قد عين تيبيريوس يوليوس الإسكندر Tiberius Julius Alexander واليًا على مصر ، وهو يهودى سكندرى فى الأصل ، ولكنه ارتد عن دينه ، واكتسب المواطنة الرومانية ، وتدرج فى سلك الوظائف الرومانية ، حتى وصل إلى هذه المرتبة . وقد حاول هذا الوالى أن يسدى النصح لزعماء الجالية اليهودية ، مطالبًا إياهم بالتروى ، إلا أنهم أعرضوا عن نصائحه ، مما اضطره إلى استخدام القوة ضدهم ، واستعان بالقوات الرومانية ، ويقال أن خمسين ألفًا من اليهود لقوا حتفهم فى هذه الأحداث [٣].

---

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(2) Josephus. Bell. Iude. 2. 487 - 98 .

(3) Josephus. Bell. Iude. 2. 492 - 4 .

وبينما كان فسباسيان يحاصر اليهود فى أورشليم ، توالت الأنباء بوقوع اضطرابات فى روما ، وانتحار الإمبراطور. وعلى الفور سارع السناتو بتعيين أحد القادة ويدعى جالباGalba، فى منصب الإمبراطور ، ولكن قوات الحرس البريتورى[١] فتكت بهذا الإمبراطور ، وأعلنت مناداتها بقائد آخر ، وهو أوتو Otto إمبراطوراً ، وفى نفس الوقت رفضت القوات الرومانية المرابطة فى الراين الاعتراف بأوتو ، ونادت بقائدها إمبراطوراً ، وكان هذا القائد يدعى ڤيتيللوس Vettelus ، وزحفت فى اتجاه العاصمة ، فأقدم أوتو على الانتحار بعد أن استسلم لليأس .

دخل ڤيتيللوس روما ، وأعلن نفسه إمبراطوراً فى أبريل من عام ٦٩م . ولكن ذلك لم يضع حداً للصراع على العرش . فإن القوات العسكرية أصبحت هى التى تتدخل فى تحديد من يشغل العرش . وفى اليوم الأول من شهر يوليه عام ٦٩م . نادت القوات الرومانية والوالى الرومانى فى مصر بفسباسيان إمبراطوراً[٢] ، ولم تلبث القوات الرومانية فى فلسطين أن حذت حذوها ، فى يوم ٣ يوليه [٣].

أعلن فسباسيان قبوله لمبايعة القوات الرومانية ، وترك ابنه تيتوس Titus لكى يواصل حصار أورشليم ، وذهب إلى مصر لكى يضع يده على صوامع الغلال ، ويضمن سلاحًا فعالاً فى معركته المقبلة ، وفى أثناء وجوده فى الإسكندرية حرص فسباسيان على زيارة معبد الإله سيرابيس ، وبينما كان يقدم القرابين ، خيل إليه أن أحد عبيده يدخل عليه حاملاً غصونًا وأرغفة مقدسة ، مما جعله يتفائل بقرب ارتقائه للعرش [٤].

أخذت القوات الرومانية فى مناطق أخرى تعلن تأييدها لفسباسيان ، وزحف بعضها على العاصمة ، ودارت بينها وبين قوات ڤيتللوس معارك شرسة ، انتهت بهزيمة ڤيتللوس والقبض

---

(١) هى القوات التى تتولى حراسة الإمبراطور . لمعرفة المزيد عن هذه القوات ، انظر : سيد الناصرى : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(2) Reimmuth, op. cit. p. 2 .

(3) C.A.H.XI. p. 2 .

(٤) آمال الروبى : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

عليه ، وجرى بعد ذلك تنفيذ حكم الإعدام فيه فى ديسمبر من عام ٦٩م ، وفى يوم ٢٢ ديسمبر ، أى بعد إعدام ڤيتللوس بيوم واحد ، أصدر السناتو قراراً بتنصيب فسباسيان إمبراطوراً [١].

وفى فلسطين نجح تيتوس فى القضاء على ثورة اليهود ، وتدمير معبد أورشليم فى عام ٧٠م . وذلك بعد حصار طويل للمدينة ، وأصبحت بلاد اليهودية ولاية رومانية ، وأمر تيتوس بحل كافة التنظيمات اليهودية ، وفرض على اليهود أن يدفعوا ضريبة الرأس[٢] .

العائلة الفلافية :

كان نيرون آخر أباطرة العائلة اليوليوكلودية ، وفى عام ٦٩م جلس على عرش الإمبراطورية الرومانية أربعة أباطرة ، لذا عرف هذا العام بعام الأباطرة الأربعة ، واستقر العرش فى النهاية لفسباسيان الذى يعد عهده بداية لأسرة حاكمة جديدة هى الأسرة الفلافية ، التى ينتمى إليها فسباسيان .

وما يهمنا فى قصة ارتقاء فسباسيان لعرش الإمبراطورية الرومانية ، هو الدور الذى لعبته مصر فى هذا الأمر . فعلى الرغم من أن السناتو أصدر قراره بتنصيب فسباسيان فى يوم ٢٢ ديسمبر من عام ٦٩م ، إلا أن فسباسيان اعتبر أن تاريخ حكمه يبدأ من اليوم الأول من شهر يوليو ، وهو اليوم الذى أعلن فيه والى مصر اعترافه به إمبراطوراً[٣]. لقيت زيارة فسباسيان للإسكندرية ترحيبًا بالغًا من شعب الإسكندرية ، فلم تشهد المدينة زيارة إمبراطور رومانى من قبل ، فيما عدا أوغسطس ، فأخذت الجماهير تهتف بحياته .

أخذت الدعاية فى الترويج للإمبراطور الجديد ، وقالت إنه مشمول برعاية الإله سيرابيس[٤]، وأنه قادر على صنع المعجزات ، وشفاء الناس ، ويقال أن نهر النيل قد ارتفع

---

(1) C.A.H. XI. p. 4 .

(٢) مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(3) Tacitus. II. 79 .

(4) Bowman, op. cit. p. 41 .

فى أثناء وجود فسباسيان بمقدار أربعة أذرع فى يوم واحد ، وقد فسرت هذه الظاهرة بأن الآلهة المصرية ترحب بالإمبراطور الجديد [(١)].

عندما أفاق السكندريون من فرحتهم بالإمبراطور الجديد ، تبين لهم أن االرجل لا تهمه المظاهر ، وأنه رجل دولة فى المقام الأول ، وأنه حريص أشد الحرص على جباية مستحقات الدولة ، بل إنه لجأ إلى فرض ضرائب جديدة ، مثل تلك الضريبة التى فرضها على السمك المملح . فانقلبوا عليه ، وأطلقوا عليه لقب تاجر السمك المملح ، مما أثار غضب فسباسيان ، وجعله يقرر فرض ضريبة الرأس على السكندريين ، وهى الضريبة التى كان أوغسطس قد أعفاهم من دفعها ، غير أنه عاد وصفح عنهم بعد توسط ابنه تيتوس .

بعد سقوط أورشليم وتدمير الهيكل فى اليوم الثانى من سبتمبر عام ٧٠م . ذهب تيتوس إلى الإسكندرية ، وأظهر مشاعر طيبة تجاه سكان المدينة [(٢)]، وشمل عطفه االمصريين أيضًا ، فحرص على حضور بعض أعيادهم الدينية . وكان قد فر إلى الإسكندرية بعض اليهود المتعصبين ، الذين عملوا على تحريض يهود الإسكندرية ضد السلطات الرومانية [(٣)]، ولكن هؤلاء الأخيرين لم يستجيبوا لهم ، بل إنهم ألقوا القبض عليهم وسلموهم للسلطات الرومانية، ولكن على الرغم من هذا الموقف المتعقل من يهود الإسكندرية ، إلا أن الرومان كانوا ينظرون إلى تحركات اليهود بكثير من التوجس ، لذا أصدرت السلطات الرومانية فى مصر قراراً بإغلاق معبد أونياس Onias فى ليونتوبوليس Leontopolis (تل اليهودية) [(٤)]. وذلك

---

(١) ربما كان الإمبراطور فسباسيان هو الذى أوحى للفنان بفكرة الستة عشر طفلاً الذين يحيطون بتمثال إله النيل Neilus ومنذ ذلك الحين أصبح هذا هو النمط السائد فى تماثيل هذا الإله . انظر : أبو اليسر فرح : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٢) راجت الروايات بأن مجيء فسباسيان وابنه كان تحقيقًا لنبوءة تقول بأنه سوف يأتى من بلاد اليهودية رجال سوف يحكمون العالم . انظر : Tacitus. Hist. IV 81, VI 13 .

(٣) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٤) يرجع تاريخ إنشاء هذا المعبد إلى عهد بطليموس السادس ، وكان هذا الملك يعطف على اليهود ، فمنح واحداً من أحبارهم ، وهو أونياس الرابع قطعه أرض على الفرع الشرقى لنهر النيل فى ليونتوبوليس ، وأقام أونياس حاكمًا على المديرية العربية ، وقد جرى تصميم هذا المعبد لكى يكون صورة طبق الأصل من معبد أورشليم . انظر : مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

خوفًا من يتحول هذا المعبد إلى بديل لهيكل أورشليم الذى تم تدميره ، ويصبح قبلة لليهود ، كما فرض الإمبراطور فسباسيان على اليهود أن يدفعوا ضريبة ، كانت تذهب إلى معبد الإله جوبيتر فى روما ، وهى ذات الضريبة التى كانوا يؤدونها لمعبد أورشليم (١).

شهد عصر العائلة الفلافية تعاطفًا مع مصر والآلهة المصرية ، بعد العداء الشديد الذى بلغ ذروته خلال الحرب بين أوكتافيانوس وكليوباترة ، وقد صورت بعض المصادر الرومانية تلك الحرب بأنها حرب بين آلهة التايبر وآلهة النيل . وعندما ارتقى تيتوس العرش بعد وفاة والده فى عام ٧٩م ، أظهر احترامًا للآلهة المصرية ، وعلى رأسها الربة إيزيس . ومما هو جدير بالذكر أن عبادة الربة إيزيس لقيت رواجًا فى روما منذ عهد بعيد ، ولكن السلطات الرسمية كانت تحاربها ، وتحول دون انتشارها بين الرومان . ولكن فى عهد فسباسيان وجدت هذه الربة تقديراً كبيراً من هذا الإمبراطور ، حتى إنه سك عملة عليها صورة الربة إيزيس(٢). وقد استمر هذا التقدير فى عهد تيتوس حتى وفاته فى عام ٨١م ، ولا يغرب عن بالنا أن تيتوس كان منذ البداية ميالاً إلى احترام العبادات المصرية ، وعندما كان فى مصر ، حرص على حضور احتفال تقديم القرابين للعجل أبيس (٣). واستمر الاهتمام بالآلهة المصرية فى عهد الإمبراطور دوميتيانوس Domitianus ، الشقيق الأصغر لتيتوس ، وكان هذا الإمبراطور يعتقد أنه مدين للربة إيزيس التى أنقذته من موت محقق(٤)، وفى عام ٩٤م أعاد بناء معبد إيزيس فى ساحة الإله مارس ، فى قلب روما ، وأقام كذلك معبداً للإله سيرابيس ، وكان معبد إيزيس قد تعرض للتدمير على أثر حريق فى عام ٨٠م .

وقد شكل موقف الإمبراطور دوميتيانوس السياسة الرسمية للدولة تجاه العبادات المصرية ، وهى سياسة قامت على الاحترام على الرغم من معارضة قطاع من الرومان لهذه السياسة ، لأنهم كانوا يستهجنون بعض مظاهر العبادات المصرية ، التى تقدس الحيوان .

---

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(٣) محمد السيد عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(4) witt. R.E, Isis in the Graeco - Roman World. London. 1971. p. 234 .

كذلك شهد عصر دوميتيانوس بناء العديد من المعابد للربة إيزيس فى مناطق متفرقة من إيطاليا مثل بينيفنتوم Beneventum .

مصر فى عصر الازدهار فى الإمبراطورية الرومانية ٩٦ - ١٨٠م :

بموت الإمبراطور دوميتياتوس ، انتهى عصر الأسرة الفلاڤية ، ولم يكن لهذا الإمبراطور ولد يرث العرش من بعده ، لذا قرر الرومان إيجاد نظام جديد لتولى العرش ، يقوم على الاختيار ، وليس الوراثة ، فوقع اختيارهم على نيرڤا Nerva (٩٦ - ٩٨م) ، وكان رجلاً حكيمًا [١] ، ولكن عهده لم يشهد أحداثًا ذات أهمية بالنسبة لولاية مصر . وقد اختار نرڤا أحد القادة من ذوى الكفاءة ، لكى يكون خليفة له ، وهو تراچان Trajanus (٩٨ - ١١٧م)[٢] . وبعد وفاة نرڤا ، تولى تراچان العرش ، وهو أول الأباطرة الرومان الذين ينحدرون من سكان الولايات .

فى عهد تراچان حدثت مجاعة فى مصر ، بسبب انخفاض فيضان النيل ، كما تجدد الصراع بين اليهود والسكندريين ، وقد وافتنا إحدى الوثائق البردية بصورة من صور الفساد الإدارى[٣] ، حيث ورد فيها إشارة إلى فساد الوالى الرومانى فى مصر ، الذى يدعى جايوس ڤيبيوس مكسيموس C.Vibius Maximus ، الذى تولى منصبه فيما بين عامى ١٠٣ ، ١٠٧م ، ووجهت إليه تهم تتعلق بالابتزاز والانحراف الخلقى ، ويبدو أن هذا الوالى قد تعرض للعزل ، وأزيل اسمه من الوثائق الرسمية [٤] .

بادر الإمبراطور تراچان بالعمل على تخفيف المجاعة ، فأرسل إلى مصر أسطولاً محملاً بالغلال [٥] . أما العلاقات بين اليهود والسكندريين فقد سادها الهدوء ، لمدة أربعين عامًا تقريبًا بعد سقوط أورشليم ، ولكن النار كانت كامنة تحت الرماد ، ففى عام ١١٣م ، اندلعت

---

(1) C.A.H. XI.p. 188 .

(2) C.A.H. XI.p. 196 .

(3) P.Oxy. 471 .

يرى بعض الدارسين أن الوقائع التى جاء ذكرها فى هذا النص ، قد لا يكون لها أساس من الواقع ، وأن هذا النص يدخل فى إطار ذلك النوع من الأدب الشعبى الذى يطلق عليه أعمال السكندريين ، والذى يهدف إلى تشويه صورة الحكم الرومانى ، انظر : عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(4) Reinmuth., op. cit. p. 3 .

(٥) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٨١ .

الفتنة من جديد ، ولا نعرف الأسباب التى أدت إلى اشتعال الموقف ، ولكنها كانت عنيفة ،مما اضطر السلطات الرومانية إلى استخدام القوات العسكرية التى أوقعت الهزيمة باليهود ، وانتهز السكندريون فرصة انكسار اليهود فأخذوا فى التحرش بهم .

فى ذلك العام كان الإمبراطور تراچان يقوم بحملة فى الشرق ، واضطر إلى سحب بعض القوات من الولايات ، وسحب إحدى الفرق من مصر ، فانتهز اليهود هذه الفرصة ، وأخذوا ينفسون عما فى صدورهم من كراهية للرومان ، وكانت البداية وقوع صراع بين اليهود والإغريق فى قورينائية ، لم يلبث أن تحول إلى حرب شاملة ضد الإمبراطورية الرومانية (١) ، امتد أوارها لكى يشمل مناطق أخرى ، مثل مصر وبرقة وقبرص وبلاد الرافدين (٢). وقد مارس اليهود أعمالاً وحشية ضد الإغريق ، وقاموا بهدم معابدهم ، وامتدت أعمال اليهود العدوانية إلى الريف المصرى ، فقد زحف يهود برقة على الأراضى المصرية فى عام ١١٦ م ، ولكنهم عجزوا عن اقتحام الإسكندرية ، فتحولوا إلى مناطق أخرى وعاثوا فيها فساداً ، واضطرت السلطات الرومانية إلى تجنيد الأهالى وتسليحهم لمقاومة اليهود (٣)، وتمكن الرومان من إخماد هذه الفتنة فى عام ١١٧م ، ولكنها تركت آثاراً مدمرة على مرافق البلاد (٤).

بعد وفاة تراچان فى عام ١١٧م ، ارتقى العرش الإمبراطور هادريان Hadrian (١١٧ – ١٣٨م) ، وشهدت مصر فى عهده ثالث زيارة يقوم بها إمبراطور رومانى لهذه الولاية ، فقد جاء هادريان إلى مصر ، وحرص على زيارة آثارها الخالدة ، التى أثارت اهتمامه إلى أبعد حد ، وبخاصة تمثالا ممنون ، اللذين كان يصدر عنهما صوت جميل ، عند شروق الشمس ، وكانت هذه الزيارة إحدى الفقرات التقليدية ، فى جولات الرومان فى مصر (٥).

---

(1) C.A.H. XI.p. 250 .

(2) Goodman, op. cit.p. 269 .

(3) Rostovtzeff, op. cit. p. 348 .

(4) C.A.H.XI. p. 353 .

لدينا خطاب طريف حملته إحدى البرديات ، كتبه أحد مديرى الأقاليم إلى الوالى يطلب أجازة لإعادة ترتيب أحواله " بسبب الهجوم الضارى ، الذى قام به اليهود الكفرة ، مما ترتب عليه فقدان كل ما أملك فى قرى إقليم هرموبوليس " . انظر : Slect papyri . II. 298 ; p. Giess. 41 .

(٥) محمد السيد عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١١٣ .

كان يرافق الإمبراطور هادريان فى أثناء الزيارة ، أحد الغلمان ، وكان هذا الغلام الذى يدعى أنتينوس Antinous أثيراً لدى الإمبراطور ، وقد ألقى بنفسه فى النيل فداء للإمبراطور ، وحزن هادريان لموته ، وأمر بإقامة مدينة فى الموقع الذى غرق فيه ، تخليداً لذكراه (١). وحملت هذه المدينة اسم أنتينوبوليس Antinopolis (الشيخ عبادة بمحافظة المنيا حاليًا) ، وأصبحت هذه المدينة هى المدينة الإغريقية الرابعة فى مصر .

كان معروفًا عن الإمبراطور هادريان حبه الشديد للحضارة الإغريقية Philhellenic ، ويعد من أعظم بناة المدن ، وكان من الطبيعى أن يلجأ إلى هذه الطريقة لتكريم أنتينوس (٢). ولعل من دلائل تقدير الإمبراطور هادريان للحضارة الإغريقية أيضًا ، حرصه على مقابلة علماء المكتبة ودار العلم (الموسيون) بالإسكندرية ، وإجراء الحوارات معهم (٣).

وقد تولى عرش الإمبراطور الرومانية بعد هادريان ، أنطونينوس بيوس (التقى) An-toninus Pius (١٣٨ - ١٦١م) ، وليست لدينا معلومات عن أحداث وقعت فى عهده ، فيما خلا الأنباء التى تواترت عن وقوع ثورة فى الإسكندرية ، راح ضحيتها الوالى الرومانى فى عام ١٥٣م (٤). وتلى ذلك حضور الإمبراطور إلى مصر ، حيث أقام فيها بعض المنشآت(٥).

ويمكننا أن نلاحظ أن الاضطرابات التى شهدتها مصر ، فى الفترة السابقة كان مصدرها اليهود والسكندريين ، ولم نسمع قط عن اضطرابات قام بها المصريون ، فيما عدا تلك التى حدثت فى الأيام الأولى للحكم الرومانى .

ولكن يبدو أن المصريين قد طفح بهم الكيل ، ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، فقد أثقلت كواهلهم الأعباء التى فرضها عليهم الرومان ، من ضرائب وخدمات إلزامية ، كما أن الفوضى التى عمت البلاد إبان حرب اليهود ، دمرت المرافق ، وزادت من شظف العيش، وقسوة الحياة،

---

(1) Bowman, op. cit. p. 44 .

(2) C.A.H. XI.p. 250 .

(٣) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(4) Reinmuth, op. cit. p. 126 .

(٥) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

فشهد عصر الإمبراطور ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius ، قيام ثورة عنيفة للمصريين في عام ١٧٢م . تحت زعامة أحد الكهنة ويدعى إيزيدور ، وهي الثورة المعروفة بثورة الرعاة [١] ، ويبدو أن الذي شجع المصريين على القيام بهذه الثورة هو سحب بعض القوات الرومانية من مصر للقتال في جبهة الدانوب ، وكان مركز الثورة في منطقة شمال الدلتا ، وعجزت القوات الرومانية في مصر عن مواجهتها ، وكاد الثوار أن يستولوا على الإسكندرية ، لولا استعانة السلطات الرومانية بالحامية الرومانية في سوريا [٢].

جاءت القوات الرومانية بقيادة أفيديوس كاسيوس Avidius Casius ، وتمكنت من القضاء على الثورة ، ولكن هذا القائد بلغة نبأ كاذب بموت الإمبراطور ماركوس أوريليوس ، فسارع بإعلان نفسه إمبراطوراً ، وحصل على تأييد جنوده في عام ١٧٥م ، وأعلن أهالي مصر والإسكندرية تأييدهم له ، لأنهم كانوا على استعداد لتأييد أي منشق ضد السلطة في روما ، ليس حبًا في هذا أو ذاك ولكن كراهية لروما [٣]. إلا أن تمرد كاسيوس سرعان ما فشل بعد أن تعرض للاغتيال على يد أحد ضباطه .

في العام التالي لتمرد كاسيوس ، أي في عام ١٧٦م . قام الإمبراطور ماركوس أوريليوس بزيارة للولايات الشرقية ، ومنها ولاية مصر ، وكان رحيمًا بالجميع ، فأصدر عفواً شاملاً عن كل من تورطوا في تأييد التمرد [٤].

ولكن سياسة التسامح التي اتبعها ماركوس أوريليوس لم تستمر في عهد ابنه وخليفته كومودوس Commodus (١٨٠ - ١٩٢م) ، فقد كان هذا الأخير ميالاً للعنف ، وقام بمحاسبة كل الذين أيدوا تمرد كاسيوس ، وأخذ في ملاحقتهم والتنكيل بهم ، ويبدو أن حالة الاضطراب التي مرت بها مصر خلال العقود الماضية ، قد أثرت على انتاجها من الغلال ، فاتجهت روما إلى الاعتماد على مصدر آخر للغلال ، وقام الإمبراطور ببناء أسطول جديد لنقل الغلال من شمال أفريقيا إلي روما ، وهو الذي عرف بالأسطول الأفريقي Clasis Africana [٥].

---

(١) آمال الروبي : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٢) محمد السيد عبد الغني : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

(٣) مصطفى العبادي : المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

(٤) رفض الإمبراطور أن يرى رأس المتمرد كاسيوس ، وأمر بدفنها انظر : آمال الروبي : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(5) Rostovtzeff, op. cit. pp. 395, 708 .

مصر فى القرن الثالث « عصر الاضطراب » :

سادت الإمبراطورية الرومانية فى هذا القرن ، حالة من الاضطراب ، وأخذ الجيش يتدخل فى المنازعات السياسية ، وفى الصراع على العرش . وكما لاحظنا فى مناسبات سابقة أن المصريين كانوا يكرهون الحكم الرومانى ، ويسارعون بتأييد كل متمرد على السلطة المركزية . وبعد مقتل الإمبراطور برتيناكس Pertinax فى عام ١٩٣م ، عادت تسيطر على الإمبراطورية أجواء أشبه بتلك التى سادتها فى أعقاب مصرع الإمبراطور نيرون ، فأخذت القوات الرومانية تعطى لنفسها الحق فى المناداة بالأباطرة (١) ، وأصبح لقوات الحرس البريتورى دور بارز ، فى تعيين الأباطرة وخلعهم ، ونادت القوات الرومانية فى بريطانيا بقائدها إمبراطوراً ، وكذلك فعلت قوات الدانوب ، وحذت القوات الرومانية فى سوريا حذوهم ، فأعلنت مصر تأييدها لحاكم سوريا ، وصدرت فى مصر عملة باسمه .

كان الرابع فى النهاية هو قائد قوات الدانوب ، الذى تمكن بفضل العدد الكبير من القوات الذى كان تحت إمرته ، من السيطرة على روما ، وأصبح سبتيميوس سيڤيروس Septimius Severus إمبراطوراً فى عام ١٩٣م ، وفى عام ١٩٩ - ٢٠٠م قام هذا الإمبراطور بزيارة لمصر، وبقى فيها عامًا كاملاً (٢). وحرص على زيارة معالمها(٣)، وأبحر فى النيل حتى الحدود الجنوبية ، وقد أدرك سيڤيروس مدى التدهور الذى آلت إليه الأحوال فى مصر ، ومدى الحاجة إلى الإطلاح ، فأمر بإدخال تعديلات إدارية ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تشهد فيها مصر تعديلات فى النظم الإدارية ، التى وضعها أوغسطس ، وقد تم بمقتضى هذه التعديلات منح الإسكندرية مجلسًا تشريعيًا ، وكذلك الحال فى باقى مدن مصر (٣)، وتعتبر هذه الخطوة التى أقدم عليها سيڤيروس ، محاولة منه لتوحيد النظم فى سائر أرجاء الإمبراطورية الرومانية (٤).

---

(1) Rostovtzeff, op. cit. pp. 399 - 400 .

(2) C.A.H. XI. p. 656 .

أمر الإمبراطور سيڤيروس بترميم الشقوق الموجودة فى تمثالى ممنون ، ونتج عن هذا الترميم توقف الصوت الذى كان يصدر عنهما عند الفجر . انظر : آمال الروبى : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(3) Rostovtzeff, op. cit. p. 410 .

(٤) عن هذه التنظيمات انظر : C.A.H. XI. pp. 650 - 7 .

عندما تولى العرش الإمبراطور كركلا Caracalla (٢١١ - ٢١٧م) أقدم على خطوة هامة ، حين قرر منح حقوق المواطنة الرومانية ، لكافة رعايا الإمبراطورية ، فيما عدا فئة واحدة ، أطلق عليها القرار وصف dediticii ، وهى كلمة تعنى المستسلمين ، وقد ثار جدل بين الباحثين حول تعريف هذه الكلمة (١)، ومن هم المستسلمون الذين بعينهم هذا القرار ، وهل كان المصريون من بينهم ، ولكن الدراسات أثبتت أن هذا المنح شمل المصريين أيضًا(٢) . وعلى أية حال فإن لويس Lewis يرى أن هذا القرار كان تأثيره نفسيًا وشكليًا ، دون أن يؤدى إلى تغير حقيقى فى حياة الناس (٣).

فى عام ٢١٥م ، قام الإمبراطور كركلا بزيارة لمصر ، وكان الناس يكرهونه ، لأنهم كانوا يعلمون أنه قتل شقيقه ، لكى يستأثر بالعرش (٤)، فأخذوا يسخرون منه ، وقد دفعه هذا إلى الانتقام منهم ، فأمر بجمع السكندريين فى إستاد المدينة ، وقتل عدداً كبيراً من الشباب ، وأمر جنوده بنهب المدينة ، وأصدر قراره الشهير ، الذى يقضى بطرد كافة المصريين الذين يقيمون فى الإسكندرية ، بشكل غير مشروع ، والذين كانوا قد هربوا من مواطنهم فى الريف، حتى يتهربوا من أداء التزاماتهم تجاه الدولة (٥).

بلغ الاضطراب ذروته فى الإمبراطورية الرومانية ، وذلك فى الفترة التى تقع ما بين عهد الإمبراطور سيفيروس الإسكندر Severus Alexander (٢٢٢ - ٢٣٥م)، وتولى دقلديانوس العرش ، فقد انتشرت الفوضى ، وكثرت محاولات استقلال الولايات نتيجة لضعف السلطة المركزية (٦)، ولم تلعب مصر دوراً يذكر فى أحداث هذه الفترة .

---

(١) عن المناقشات حول هذا الأمر انظر : Rostovtzeff, op. cit. p. 418 ؛ وكذلك . بل : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(3) Lewis, op. cit. p. 35 .

(4) Bowman, op. cit. p. 44 .

(٥) حملت إلينا إحدى البرديات نص هذا القرار : انظر : P.Giss. 40 II, 11. 16 - 29 .

عن تحليل هذا النص انظر : أبو اليسر فرح : الدولة والفرد فى مصر فى عصر الرومان : ص ١٢٠ ، ١٩٣.

(٦) يطلق الأستاذ روستوفتزف على هذه الفترة عصر الفوضى العسكرية Military Anarchy ، انظر : Rostovtzeff, op. cit. pp. 432 ff.

وفى منتصف القرن الثالث جلس على عرش الإمبراطورية ديكيوس Decius . ومن أبرز الأحداث فى عهده اضطهاد المسيحيين . ومما هو جدير بالذكر أن المسيحية كانت قد أخذت فى الانتشار ، وأصبح لها الكثيرون من الأتباع ، ورأت السلطات فى الديانة الجديدة تهديداً للدولة [١]. كما شهدت مصر محاولة للاستقلال عن الدولة الرومانية ، ولكن تم القضاء عليها [٢].

وفى عام ٢٦٩م . تعرضت مصر لغزو خارجي ، جاءها من الشرق ، وكان مصدره مملكة تدمر ، وهى دولة كان مركزها المنطقة التى تقع فى الصحراء ما بين سوريا وبابل ، واستطاعت أن تحرز مكانة هامة من خلال سيطرتها على طرق التجارة ، وقد ارتبطت تدمر بالإمبراطورية الرومانية ، وكانت تابعة لها ، ولكنها تمتعت بالاستقلال الذاتى ، واستطاع أحد حكامها ويدعى أذينه Odenathus أن يقدم خدمات للرومان ، فانعم عليه الإمبراطور جالينوس Galinus بلقب قائد dux ، وبعد وفاة هذا الحاكم تولت زوجته زنوبيا الوصاية على ابنه الطفل، وكانت امرأة طموحه .

كانت زنوبيا ترغب فى تكوين إمبراطورية ، فأرسلت جيشًا للاستيلاء على مصر فى عام ٢٦٩م ، وكانت قد اتفقت مع بعض زعماء السكندريين ، وتمكن جيش تدمر من احتلال مصر ، واضطر الإمبراطور الرومانى إلى الاعتراف بوهب اللات ، ابن زنوبيا شريكًا له فى الحكم . ولكن الرومان بعد ذلك أعلنوا الحرب على تدمر ، وقاد الإمبراطور الرومانى قواته إلى آسيا الصغرى ، وأرسل أحد قادته ويدعى بربوس Probus ، لاستعادة مصر ، وقد انتصر الإمبراطور أوريليانوس على قوات تدمر ، وأخذ زنوبيا أسيرة إلى روما ، وفى نفس الوقت تمكن قائده من استعادة مصر فى عام ٢٧١م [٣].

---

(١) كان من نتائج اضطهاد ديكيوس للمسيحيين ، وفاة عالم اللاهوت السكندرى أوريجين . انظر : Lewis, op. cit. p. 102 وقد الزمت السلطات الرومانية الأهالى بأن يقدموا شهادات تفيد قيامهم بتقديم القرابين للآلهة الوثنية . وقد وافتنا أوراق البردى بنماذج لهذه الشهادات . انظر : بل المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٢) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(3) Bowman, op. cit.p. 44 .

وتلى ذلك قيام ثورة ضد الحكم الرومانى فى مصر ، تولى قيادتها أحد تجار الإسكندرية ، ويدعى فيرموس Firmus ، وكان من بين الذين ساعدوا زنوبيا على احتلال مصر (١)، واضطر الإمبراطور أوريليانوس إلى الحضور بنفسه لقمع الثورة (٢). وبعد وفاة الإمبراطور أوريليانوس انتهزت القوات الرومانية فى مصر هذه الفرصة ، ونادت بقائدها بربوس إمبراطوراً ، واستطاع هذا القائد أن يتربع على عرش الإمبراطورية لمدة خمسة أعوام ، إلي أن قتل على يد أحد الجنود فى عام ٢٨٢م ، وعمت الفوضى أرجاء الإمبراطورية لمدة عامين ، حتى تمكن دقلديانوس من تولى العرش فى عام ٢٨٤م . ويعد عهده بداية لمرحلة جديدة ، ليس فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية فحسب ، بل فى تاريخ البشرية جمعاء (٣).

---

(١) آمال الروبى : المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٢) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(٣) أدخل دقلديانوس تغيرات جذرية على نظام الإمبراطورية الرومانية ، فقسمها إلى قسمين ، وكان ذلك بداية لانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى دولتين إحداهما هى الدولة الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) وعاصمتها القسطنطينية ، أما الأخرى فقد ظلت عاصمتها روما القديمة فى الغرب ، كما أدخل نظامًا جديداً لشغل العرش ، ويعد عهد دقلديانوس نهاية للعصور القديمة ، وبداية للعصور الوسطى ، وقد عالج الأستاذ جونز Jones هذه المرحلة الانتقالية فى كتاب له بعنوان " أفول العالم القديم " ، وقدم عرضًا طيبًا للاصلاحات التى أدخلها دقلديانوس على الدولة الرومانية ، الحق به قائمة مفصلة بالدراسات الحديثة التى أجريت حول اصلاحات دقلديانوس انظر :

Gones. A.H.M. The Decline of the Ancient World. London. 1977 . PP. 28 - 38 .

حضارة مصر فى عصر الرومان :

السلطة المركزية :

ورث الرومان عن البطالمة جهازاً بيروقراطياً كبيراً [١]، إلا أن هذا الجهاز كان قد تفشى فيه الفساد والتسيب ، وهو ما نراه ظاهراً فى المصادر التى ترجع إلى أواخر حكم البطالمة ، وقد عمل الرومان على إصلاح الجهاز الإدارى ، وإدخال تعديلات تلائم أهداف الحكم الجديد[٢].

يأتى الوالى الرومانى على قمة الإدارة العسكرية والمدنية ، ويستمد سلطاته من كونه ممثل الإمبراطور فى الولاية [٣]، وبالنسبة لسكان مصر كان الوالى فى نظرهم يحتل مركز الملك ، وهى الحقيقة التى ذكرها بعض الكتاب القدامى ، مثل استرابون وتاكيتوس ، حين قالا أن مصر فى عصر الرومان حكمها رجال لهم منزلة الملوك [٤]. وكان الوالى الرومانى فى مصر يسلك مسلك الملوك القدامى ، فلم يكن يبحر فى النيل فى زمن الفيضان[٥] ، وكان يذهب مع حاشيته إلى جنوب مصر ، حيث المكان الذى كان يعتقد أن النيل ينبع منه ، ويقوم بإلقاء هدايا من الذهب والفضة ، طلباً للبركة وتعبيراً عن العرفان للنيل [٦].

وبمقتضى سلطة الإمبريوم التى كان يتمتع بها الوالى الرومانى ، فإنه كان يتولى قيادة القوات الرومانية ، التى تعسكر فى مصر [٧]. وقد وافتنا إحدى البرديات التى ترجع إلى عهد الإمبراطور تراچان [٨]، بصورة للمكانة التى كان يتمتع بها الوالى الرومانى فى مصر ، فكانت الجماهير تصطف لتحيته كل صباح ، ويتلقى الشكاوى والالتمسات ، ومن حقه

---

(1) Goodman, M, The Roman World. P. 266 .

(2)Rostovtzeff, M, Social and Economic History of the Roman Enpire. p. 285 .

(3) Reinmuth, op. cit. p. 2 .

(4) Tacitus. Hist. I.11; Strabo. 17. 797, 818 .

(5) Pliny. N. H. 5. 57 .

(6) Reinmuth, op. cit. p. 3 .

(7) Reinmuth, op. cit. pp. 119 - 126 .

(8) P.Oxy. 471 .

إصدار الأحكام بالإعدام ومصادرة الممتلكات ، وكان يترأس أعلى محكمة فى البلاد ، وهى محكمة الوالى .

ولم يكن من عادة الولاة تسجيل إنجازاتهم فى النقوش ، مع استثناء ذلك التصرف الذى أقدم عليه كورنيليوس جاللوس ، أول الولاة فى عصر أوغسطس ، والذى استوجب تقديمه للمحاكمة . وكان اسم الوالى عادة ما يذكر مرتبطًا باسم الإمبراطور .

وعندما كان الوالى يقوم بزيارة بعض المناطق فى مصر ، كان يستقبل بحفاوة ، ويجرى تزين تماثيل الآلهة ، وتقام المهرجانات احتفالاً بقدمه ، ولا يغيب عن بالنا أن الوالى هو ممثل الإمبراطور ، وكان الإمبراطور هو الملك الشرعى ، وفرعون مصر ، وقد رسم على المعابد كما كان البطالمة يمثلون من قبل ، فى زى الفراعنة ، على رأسه التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى وأمامه اسمه محفوراً على خرطوشه بالهيروغليفية [١].

وكان الأباطرة يحرصون أشد الحرص ، ألا يتولى منصب والى مصر أحد الأشخاص لفترة طويلة ، حتى لا يتحول إلى مركز قوة ، وكانوا يرسلون من يثقون فيهم من رجالهم لتولى هذا المنصب الحساس ، وقد ذكرنا من قبل أن كورنيليوس جاللوس ، أول الولاة ، كان من الرجال المقربين لأوغسطس ، كما كان أفيليوس فلاكوس Avilius Flaccus فى الأصل صديقًا للإمبراطور تيبيريوس[٢] .

ومن الملاحظ أن أهمية منصب والى مصر ، أخذت فى الانخفاض بعد أن قلت موارد مصر الاقتصادية ، ولم يعد ينظر إلى والى مصر باعتباره متميزاً عن غيره من الولاة فى الإمبراطورية ، وتوارى الخوف من إسناد هذا المنصب إلى رجل من طبقة السناتو ، وكان الإمبراطور ماكرينوس أول من أقدم على هذه الخطوة ، حين قام بتعيين أحد رجال طبقة السناتو فى منصب والى مصر . بل إن الإمبراطور سيفيروس الإسكندر حين رغب فى معاقبة أحد قادة الحرس البريتورى ، قام بتعيينه واليًا على مصر ، وعلق المؤرخ ديون كاسيوس على هذا الأمر قائلاً " حيث أن هذا هو المكان الذى يحرم مثل هذا الرجل ، من أن يكون لديه فرصة فى أن يصبح مصدراً للإزعاج " [٣].

---

(١) بل : المرجع السابق ، ص ٩٤ .

(2) Reinmuth, op. cit. p. 6 .

(3) Dio Cassius. 80. 2 .

وعند تعيين والٍ جديد ، كان على الوالى أن يظل فى مصر حتى دخول الوالى الجديد[١]، وفى حالة خلو المنصب لأسباب طارئة ، يتم اختيار واحد من كبار الموظفين فى الولاية ، لتصريف الأمور لحين وصول الوالى الجديد من روما .

كان الوالى يترأس الجهاز الإدارى فى البلاد ، وكانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم ، هى إقليم طيبة (مصر العليا ، وإقليم المديريات السبعة وأرسينوى (مصر الوسطى) ، ثم إقليم الدلتا ، وعلى رأس كل إقليم من هذه الأقاليم موظف يدعى إبستراتيجوس Epistrategos وكان هذا الموظف يتم اختياره عن طريق الإمبراطور ، ولابد أن يكون مواطنًا رومانيا [٢].

وقد انقسمت الأقاليم إلى وحدات أصغر هى المديريات nome، وعلى رأس كل مديرية موظف حمل لقب الاستراتيجوس Strategos، وكان الوالى هو الذى يعين الاستراتيجوس[٣]. كما كان الوالى يقوم بتعيين مدير إدارة السجلات فى المديرية ، والذى ظل يحمل اللقب القديم منذ عصر البطالمة ، وهو لقب الكاتب الملكى Basilko grammateus .

وكان يوجد إلى جانب الوالى فى الإسكندرية مجموعة من المعاونين ، يختص كل واحد منهم بأحد القطاعات ، فكان من بينهم " اليوريد يكوس " Iuridicus "[٤] ، وكان يختار من الرومان المنتمين إلى طبقة الفرسان ، ولا نستطيع أن نتبين بصورة واضحة مهام هذا الموظف ، ولكن من الجائز أنها كانت تتضمن بعض اختصاصات وزير العدل ، وهناك موظف قضائى آخر يطلق عليه الأرخى ديكاستيس Archidikastes [٥]. كما كان يوجد مساعد آخر للوالى مهمته الإشراف على حفظ الوثائق والسجلات ، ويدعى كاتب الوثائق Hypomnematographos ، وكان عليه أن يعد كافة الوثائق التى يحتاج إليها الوالى ، وكان مساعد الوالى فى البداية فى الشئون المالية ، يحمل اللقب البطلمى القديم وهو الديويكتيس Dioiketes . وفى منتصف القرن الثانى آلت السلطة التى كان يمارسها الوالى فى النواحى المالية ، إلى إدارة جديدة هى إدارة الحساب الخاص - الإديوس لوجوس - Idios Logos .

---

(١) عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(2) Rostovtzeff, op. cit. p. 286 .

(3) Reinmuth, op. cit. p. 11 .

(٤) المعنى الحرفى لهذا اللقب هو : « القاضى » .

(٥) بل : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

كان الوالى يشرف إشرفًا كاملاً على الشئون الدينية ، وكانت موارد المعابد تخضع لرقابته، ومن المعروف أن أوغسطس صادر أملاك المعابد ، وحولها إلى أملاك الدولة(١)، ولكن لم يلبث الإشراف على المعابد أن انتقل إلى موظف حمل لقب الكاهن الأعلى Archiereus ، مع إنه لم يكن كاهنًا ، بل موظفًا مدنيًا رومانى الجنسية (٢). وعلى أية حال فإن الإشراف على المعابد انتقل بعد ذلك إلى سلطة مدير الحساب الخاص (الإيديوس لوجوس) (٣).

وقد امتدت سلطة الوالى على الأفراد ، لكى تشمل ضرورة الحصول على موافقته عند مغادرة البلاد ، فقد كانت مداخل مصر ومخارجها تخضع لرقابة شديدة ، وكانت مسألة السفر أمرًا مستحيلاً ، بدون الحصول على موافقة الوالى ، ومن سلطته أن يقوم بتوقيع العقوبة على من يغادرون البلاد دون إذنه (٤).

كان الوالى يقوم بتصريف شئون الولاية عن طريق المراسلات ، فكان يتلقى تقارير مفصلة عن كافة مظاهر النشاط فى أرجاء مصر ، فهناك تقارير عن الضرائب والتعداد وتسجيل الملكية ، وسجلات المواليد والوفيات ، وتقارير عن مصادر دخل الدولة ، كما كان يتلقى الالتماسات من الأهالى ويقوم بتحويلها إلى جهات الاختصاص (٥).

وكان الوالى يصدر المراسيم(٦) المختلفة ، وكانت اللغة التى تصدر بها المراسيم هى اللغة الإغريقية ، وبعض تلك المراسيم كانت تصدر بصفة روتينية ، مثل المراسيم الخاصة بإجراء

---

(1) Rostovtzeff., op. cit. 286 .

(٢) بل : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(3) Reinmuth, op. cit. pp. 27 - 28 .

(4) Reinmuth, op. cit. pp. 32 - 33 .

حملت لنا إحدى الوثائق البردية من مجموعة بردى أوكسيرينخوس طلبًا مقدمًا من أحد الأفراد ، للسماح له بالسفر عن طريق جزيرة فاروس ، ويوجد على البردية توقيع الوالى بالسماح له بالسفر . انظر :

P.Oxy. 1271 .

(5)Reinmuth, op. cit. pp. 24ff .

(٦) قدم راينموث حصراً شاملاً للمراسيم التى أصدرها الولاة الرومان فى مصر انظر : Reinmuth, op. cit. pp. 140 - 143 .

التعداد ، ومن المعرف أن الإدارة الرومانية فى مصر كانت تقوم بإجراء تعداد للسكان Census ، كل أربعة عشر عامًا(١) . كما كانت هناك مراسيم تصدر فى ظروف خاصة ، مثل المراسيم التى كان يصدرها الولاة لحض الهاربين على العودة إلى مواطنهم ، وكانت هذه المراسيم فى العادة تحتوى على قرارات تقضى بالإعفاء عن الهاربين ، وتخفيف الأعباء المفروضة عليهم ، والتى كانت تؤدى إلى هروبهم (٢).

وكانت قرارات الولاة عادة ما تتضمن عبارات مثل " طبقًا لمشيئة أوغسطس المؤله " أو " إن أوغسطس المؤله قد أمر " . وكان الأباطرة يستندون إلى تقارير الولاة ، فى كل ما يصدرونه من قرارات تتعلق بالولايات ، وكان من حق الأهالى رفع شكاواهم إلى الإمبراطور مباشرة .

ولما كان من المعروف شدة حرص الرومان على الحصول على أكبر قدر ممكن من دخل ولاية مصر ، فإن الإشراف على الشئون المالية كان من أهم واجبات الوالى ، ونظراً لأن مصر كانت تمثل أهمية قصوى كمصدر للغلال للإمبراطورية ، فإن الغلال التى كان يجرى شحنها إلى روما ، كانت فى معظمها من الضرائب المقررة على مصر ، وكان الإشراف على الضرائب من أولى المهام التى أنيطت بالوالى فى مصر .

كان الوالى هو الذى يحدد مقدار الضريبة التى يتم جبايتها ، فى ضوء التقارير التى ترد إليه ، ويذكر الكاتب فيلون أن الوالى كان ينفق معظم وقته فى مراجعة تقارير الضرائب فى المديريات(٣) . أما مقدار الضريبة الذى كان على الولاية أن تدفعه إلى روما ، فإن الإمبراطور هو الذى يحدده ، وذلك بناء على التقارير التى يتلقاها من الوالى(٤) .

وكان الوالى يتمتع بسلطة مطلقة فى تقدير الضرائب داخل مصر ، ولكن يحد من هذه السلطة تدخل الإمبراطور ، الذى كان يعد السلطة الوحيدة التى تملك الحق فى تقرير الإعفاء

---

(١) بل : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٢) من أشهر تلك المراسيم ، مرسوم الوالى ڤيبيوس ماكسيموس Vibius Maximus فى عام ١٠٤ ، وكذلك مرسوم الولى ليبراليس Libralis فى عام ١٥٤ . انظر : أبو اليسر فرح . الدولة والفرد ، ص ١٨٣ – ٢٠٣ .

(3) Philo. In. Flacc. 16 .

(4) Reinmuth, op. cit. pp. 15ff .

الضريبى . أما فيما يخص الخدمات الإلزامية ، فإن الوالى لم يكن يتدخل فى هذا المجال خلال القرنين الأول والثانى ، ولكن القرن الثالث شهد إشرافًا كاملاً للوالى على نظام الخدمات الإلزامية (١).

وكان الوالى يقوم بجولات تفقدية فى أقاليم مصر ، بشكل دورى ، يعقد خلالها جلسات المحكمة التى كانت تعد أعلى سلطة قضائية ، وهى محكمة الوالى Conventus . وكانت تنعقد ثلاث مرات فى العام ، مرة فى بيلوزيوم للنظر فى قضايا شرق الدلتا ، ومرة فى الإسكندرية للنظر فى قضايا غرب الدلتا ، أما المرة الثالثة فكانت تنعقد فى منف ، للنظر فى قضايا باقى الأقاليم (٢). ولكن ليس هناك ما يمنع من قيامه بعقد هذه المحكمة بشكل استثنائى فى أماكن أخرى (٣).

النظم المالية والاقتصادية :

كانت الغنائم التى استولى عليها أوكتافيانوس (أوغسطس) من مصر ، بعد أن هزم أنطونيوس وكليوباترة ،كبيرة لدرجة جعلته قادراً على تلبية مطالب جنوده ، وأدت كذلك إلى زيادة ثروته الشخصية هو وأتباعه ، وقد أدى تدفق ثروات مصر على روما إلى ارتفاع الأسعار(٤).

قامت سياسة الرومان المالية والاقتصادية فى مصر على مبدأ أساسى ، وهو الحصول على أكبر قدر ممكن من دخل هذه الولاية ، وقد تطلب تحقيق هذا المبدأ القيام بجهود شاقة ، من أجل إصلاح مرافق البلاد التى لحقها التدهور فى السنوات الأخيرة من حكم البطالمة، فقامت الإدارة الرومانية بإجراء إصلاحات شاملة لشبكة الرى ، وعملت على تطهير القنوات والترع والمصارف ، وإعادة بناء الجسور التى تهدمت . وقد أدت هذه الجهود إلى إنعاش الاقتصاد المصرى ، وكان من شأن ذلك مساعدة الإدارة الرومانية فى الحصول على مستحقاتها لدى الأفراد ، وهو أمر لا يتحقق إلا من خلال نظام دقيق لجباية الضرائب .

---

(1) Reinmuth, op. cit. p. 59 .

(٢) بل : المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٣)عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق . ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(4) Johnson, Allan Chester; Roman Egypt to the Reign of Diocletian. Baltimore. 1936. p. 481 .

الضرائب :

قام نظام الضرائب فى مصر فى عصر الرومان على قواعد محكمة[١]، تستطيع الدولة بمقتضاها أن تحصل على مستحقاتها لدى الأفراد ، وكانت هذه المستحقات تشتمل على ضرائب ورسوم مختلفة ، عن الممتلكات والأفراد ، والنشاط المالى والتجارى ، وإلى جانب الضرائب الثابتة كانت هناك ضرائب استثنائية ، ترتبط بظروف خاصة [٢].

كانت هناك بعض الضرائب التى تجبى نقداً ، البعض الآخر يجبى عينًا . وفيما يتعلق بالتزامات مصر العينية تجاه الإمبراطورية ، فمن المعروف أن مصر كانت تمد روما بثلث احتياجاتها السنوية من الغلال [٣]، كما كان يتحتم عليها إطعام جيش الاحتلال الرومانى المرابط على أراضيها . وللوفاء بذلك كان على المزارع أن يدفع أردبًا عن كل أروة [٤]، كضريبة نوعية عن الأرض التى تزرع حبوبًا ، ولكن فى بعض الأحيان كان المزارع يدفع أكثر من هذا القدر ، فى حالة الأراضى العالية الخصوبة ، والتى كانت تغل مقداراً أكبر من المحصول .

كانت الإدارة تحرص على عدم بقاء أى قطعة أرض دون زراعة ، لأن بقاءها على هذا النحو يعنى عدم جباية ضرائب عنها ، لذلك فإن الأراضى التى لم يكن يتقدم أحد لاستئجارها ، أو أن يهرب مزارعوها ، كانت الدولة تلزم سكان القرية بزراعتها ، على أن يسددوا الضرائب المستحقة عليها إجباريًا ، بشكل تضامنى .

كان على المزارع بعد حصاد المحصول ، أن يقوم بتسليم ما عليه من مستحقات للدولة إلى أمناء مخازن الغلال Sitologoi ، الذين كانوا يكلفون بالقيام بهذا العمل بصورة

---

(١) يعد كتاب ولاس Wallace هو المرجع الرئيس عن الضرائب فى مصر فى عصر الرومان ، انظر :
Wallace, S.L; Taxation in Egypt from Augutus to Diocletian. Princeton. 1938 .

راجع كذلك الفصل الذى كتبه جونسون Johnson, op. cit. pp. 481 - 552 ، ولكن الفصل الذى كتبه لويس هو الأحدث فى هذا المجال ، انظر : . Lewis, op. cit. pp. 159 - 176

(2)Rostovtzeff, op. cit.p. 483 .

(3) Johnson, op. cit. p. 481 .

(٤) الأروة أربعة أخماس الفدان .

الزامية[١]، ولم يكونوا يتقاضون أجراً مقابل قيامهم بهذا العمل ، وكان على أمناء مخازن الغلال ومساعديهم ، أن يشرفوا على تسليم الغلال إلى معسكرات الجيش ، أو إلى المخزن العام بالقرب من الإسكندرية . وكانت هناك ضرائب مقررة على المحاصيل الأخرى مثل الكروم والفاكهة والنخيل والزيتون[٢] . وفيما عدا الكميات التى كان يتم تسليمها إلى معسكرات الجيش ، كان يتم تحصيل مقدار هذه الضرائب نقداً .

ولم تكن الحيوانات التى يملكها المزارع تسلم من تحصيل ضرائب عنها ، لذلك كان ينبغى على المزارع أن يقدم تقريراً سنويًا عن عدد الحيوانات التى بحوزته ، حتى يتأكد جباة الضرائب من عدد الحيوانات التى تولد فى كل عام ، ويتمكنوا من تحصيل الضرائب المستحقة عليها .

وإلى جانب الضرائب التى تجبى فى مجال الزراعة والثروة الحيوانية ، كانت هناك ضرائب تجبى على الأفراد ، لعل أشهرها ضريبة الرأس Laographia [٣]. وكان يجب على جميع سكان مصر من الذكور الذين تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والستين أن يؤدوها . إلا أن بعض الفئات كانت تتمتع بحق الإعفاء من أداء هذه الضريبة ، مثل الذين يتمتعون بالمواطنة الرومانية ، ومواطنو مدينة الإسكندرية ، وأعضاء المعهد العلمى بالإسكندرية ، وخريجى معاهد الجمنازيوم ، وعدد من الكهنة من ذوى المكانة الخاصة ، وبعض أصحاب المهن. أما سكان عواصم المديريات Metropolitai ، فإنهم كانوا يؤدونها بقيمة مخفضة [٤].

وقد وجدت ضريبة أخرى يدفعها الأفراد ، وهى ضريبة الجسور Chomatikon ، وكان مقدارها واحداً فى جميع أرجاء البلاد ، وكان الهدف من جبايتها ، الانفاق على صيانة الجسور وتنظيم عمليات الرى . وهناك ضريبة أخرى مقدارها درخمتان لكل فرد ، وهى ضريبة الخنازير، كان الغرض من تحصيلها إمداد المعابد الإغريقية بالحيوانات اللازمة للأضاحى .

---

(1) Johnson, op. cit. p. 490 .

(2) Johnson, op. cit. p. 490 .

(٣) تعد هذه الضريبة من أهم الضرائب التى فرضها الرومان فى مصر ، لأنها كانت ذات مدلولات سياسية واجتماعية على قدر كبير الأهمية ، إضافة إلى كونها من المصادر الهامة لدخل الدولة ، وكانت هذه الضريبة محوراً لدراسة لدرجة الماجستير . انظر : محمد فهمى عبد الباقى : ضريبة الرأس فى مصر الرومانية، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ١٩٧٩م ، وراجع القوائم التى أوردها الباحث ص ٢٦٤ ، ٢٧٢ .

(4)Wallace, op. cit. pp. 116 - 39 .

فرضت الإدارة الرومانية ضرائب على أصحاب الحرف ، وكان ينبغى على كل فرد أن يؤدى ضريبة الحرف ، سواء أكان رجلاً أو امرأة ، طالما إنه يؤدى عملاً يتقاضى فى مقابله أجراً ، وكان على الصبية الذين كانوا ما يزالون فى مرحلة التدريب ، أن يدفعوا هذه الضريبة ، إذا بلغ الواحد منهم الرابعة عشرة من العمر ، وكان يتم تحصيل هذه الضريبة من أصحاب كل حرفه على حدة ، وقد اختلف مقدارها من فترة لأخرى ، وتراوحت قيمتها من منطقة لأخرى . وكان على صاحب العمل أن يقوم بإبلاغ السلطات ، عند انتهاء أحد الصبية من مرحلة التدريب ، وتقلد هذا الصبى العمل ، حتى يتم إدراج اسمه فى قوائم الضريبة التى يدفعها العاملون . وكان على العامل أن يبلغ السلطات فى حالة انتقاله لممارسة عمل آخر ، سواء أكان هذا الانتقال بصفة دائمة أو مؤقتة(١).

أما الأشخاص الذين كانت طبيعة عملهم تتطلب التنقل من مكان إلى آخر ، فكان يتحتم عليهم أن يحصلوا على تصريح من جابى الضريبة فى موطنهم ، يسمح لهم بالتواجد فى أماكن أخرى (٢).

وقد فرضت الإدارة الرومانية ضريبة إضافية على الأهالى ، لتعويض النقص الناجم عن وجود بعض الأشخاص الذين يعجزون عن دفع الضريبة لكونهم معدمين Aporoi ، أو بسبب هروب البعض الآخر ، دون أن يتركوا وراءهم ممتلكات يمكن للدولة مصادرتها ، حتى تتمكن من تحصيل مستحقاتها لدى الهارب وكان مقدار العجز الذى يترتب على وجود مثل هذه الحالات ، يجرى توزيعه على باقى سكان القرية ، ويختلف هذا المقدار حسب أعداد الهاربين.

وقد خضعت الأنشطة المالية والتجارية للضرائب ، وكان يتم فرض رسوم عند تسجيل الوثائق فى دار السجلات ، وهناك ضرائب كان يتم تحصيلها عن عمليات البيع بواقع ١٠٪ ، وعن الرهن بنسبة ٢٪ . وحتى الحيوانات التى كان الأهالى يقدمونها قرباناً للآلهة ، لم تكن تسلم من تدخل الدولة التى كانت تحصل على نسبة منها .

وقد فرضت ضرائب كان الهدف منها إمداد جيش الاحتلال الرومانى المرابط فى مصر ، بحاجته من الغذاء والوقود والعلف وملابس الجنود ، ولم يكن مقدار هذه الضرائب محدداً ، بل

---

(1) Lewis, op. cit. p. 171 .

(2) Lewis, op. cit. p. 172 .

كان الأمر يترك لرجال الجيش لتقدير مدى حاجتهم ، وفى غالبية الأحيان كانت المعسكرات تشتط فى مطالبها [١].

ولم يقتصر الأمر على إمداد جيش الاحتلال الرومانى فى مصر بحاجته ، بل كان على دافعى الضرائب فى مصر ، أن يقدموا ما يطلب منهم لمساعدة جيش الإمبراطورية فى الحروب التى كان يخوضها . وكان على الأهالى أن يقدموا بتمويل الزيارات التى كان يقوم بها كبار الزوار الرومان لمصر ، بما فى ذلك زيارات الأباطرة وأفراد عائلاتهم ، كما كان عليهم أيضًا تمويل الزيارات التى كان يقوم بها الوالى وحاشيته فى أرجاء البلاد .

جباية الضرائب :

قامت جباية الضرائب فى مصر فى عصر الرومان فى البداية على نظام الالتزام[٢]، وهو ما يعد استمراراً للنظام الذى كان معمولاً به فى عصر البطالمة ، حيث كان يشهر فى المزاد فى كل عام جباية كل ضريبة على حدة ، فى منطقة فى الأغلب لم تكن تزيد عن مديرية واحدة ، ويرسو المزاد على من يضمن للدولة الحصول على أكبر قدر ممكن من حصيلة الضريبة .

وكان يتعين أن يكون للملتزم ضامنون ، وأن يقدم الملتزم وضامنوه ممتلكاتهم رهنًا للوفاء بالتزاماته ، والحقيقة أن معلوماتنا عن نظام الالتزام فى عصر الرومان قليلة للغاية . ويبدو أن الدولة اضطرت بعد ذلك إلى فرض التزام جباية الضرائب على الأفراد ، مما كان يؤدى إلى هروب الملتزمين فى كثير من الأحيان . بيد أن نظام الالتزام أخذ يختفى شيئًا فشيئًا ، وأسندت جباية الضرائب إلى موظفين كان يجرى تكليفهم للقيام بهذا العمل ، بشكل إلزامى ، وكان جباة الضرائب المكلفين يلتزمون بتعويض النقص الذى ينتج فى بعض الأحيان من أموالهم الخاصة ، ولكن فى عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م) تقرر إلزام كل سكان القرية بأن يتضامنوا فى سد العجز الذى قد يترتب على عملية الجباية .

وكان الوالى هو الذى يشرف على عملية الجباية بأكملها[٣] . ويقوم بمراجعة الموازنة العامة فى أثناء زيارته للمديريات ، ويقرأ التقارير التى يقدمها له المسئولون فى المديرية . ولكن

---

(١) وافتنا إحدى الوثائق البردية بشكوى تقدم بها بعض الأهالى ، بسبب الإرهاق الذى كانوا يعانون منه، لإجبارهم على تقديم حاجات معسكرات الجيش الرومانى . انظر : P.Oxy. 705 .

(2) Wallace, op. cit. pp. 288 - 9 .

(3) Reinmuth, op. cit. p. 63 .

الإمبراطور هو الذى يقرر مقدار الضريبة المستحقة على الولاية ، استناداً إلى تقارير الوالى ، ومن حقه أن يمنح البعض إعفاءات من الضرائب ، كما كان الوالى يتمتع بنفس الحق ولكن فى حالات إستثنائية .

حدثتنا بعض المصادر عن الوسائل التى كان يلجأ إليها بعض جباة الضرائب ، من أجل انتزاع مستحقات الدولة لدى الأهالى ، فقد أشار الكاتب اليهودى فيلون إلى بعض هذه الوسائل التى كان يلجأ إليها الجباة فى القرن الأول الميلادى [١]، قائلاً أن جابى الضريبة فى إحدى المناطق حين وجد أن بعض دافعى الضرائب قد هربوا ، دون أن يدفعوا ما عليهم ، اتجه إلى زروجاتهم وأطفالهم وأقاربهم فسامهم سوء العذاب ، وطرح بعضهم أرضًا ، وأخذ يضربهم ويطأهم بأقدامه ، بل إنه لم يتورع عن قتل بعضهم ، فإذا لم يجد أقارب للهارب ، فإن الأذى ينتقل إلى الجيران ، وقد يشمل سكان القرية جميعًا .

ويستطرد فيلون فى موضع آخر [٢]، فيصف بشاعة الأساليب التى كان يلجأ إليها جباة الضرائب ، الذين لم يرحموا حتى الموتى ، ودفعتهم صفاقتهم إلى الاعتداء على جثث الموتى ، حتى يجبروا أقاربهم على دفع ما هو مستحق عليهم من ضرائب ، وإزاء بشاعة هذه الأساليب، وعجز الأهالى عن الوفاء بالتزاماتهم ، فلا عجب أن يؤدى ذلك إلى هروب الأهالى من مواطنهم ، وخلو بعض القرى من السكان [٣].

الخدمات الإلزامية :

إذا كانت هناك ضرائب يؤديها الأهالى عينًا أو نقداً ، فإن هناك التزامات كان عليهم أن يؤدونها من خلال جهودهم وممتلكاتهم ، من خلال ما يعرف بنظام الخدمات الإلزامية Leitourgia [٤]. ومن المعروف أنه فى بعض الممالك الشرقية فى العصور القديمة ، كان من

---

(1) Philo, De Specialibus Legibus. L11, 159 - 63 .

(2) Philo, Spe. Leg. 94-5 .

(٣) عن الضرائب باعتبارها من أسباب هروب الأهالى من مواطنهم . انظر : أبو اليسر فرح : المرجع السابق ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٤) نشر الأستاذ لويس العديد من الأبحاث حول الخدمات الإلزامية ، كما نشر مجموعة من أوراق البردى حول هذا الأمر هى Leitourgia Papyri إلا أننا نكتفى بإحالة القارىء إلى الفصل الذى أورده هذا الباحث فى كتابه الذى رجعنا إليه فى مواضع كثيرة انظر : Lewis, op. cit. pp. 177 - 184 .

حق الملوك تسخير رعاياهم لإنجاز بعض الأعمال التى يتطلبها الصالح العام ، وفى مدينة أثينا كان على المواطنين أن يقدموا بعض الخدمات لصالح المدينة . وكان الرومان منذ عهودهم الأولى يعرفون نظام الواجبات العامة munera ، ويقتضى هذا النظام ، كان على الموسرين من المواطنين الرومان ، أن يؤدوا بعض الخدمات للدولة . وحين استولى الرومان على مصر ، وجدوا فيها نظامًا للخدمة الإلزامية ، يرجع إلى عهود سحيقة ، وكان البطالمة قد سبقوهم إلى الأخذ به . وقد أدخل الرومان على هذا النظام تعديلات ، جعلته يختلف عما كان معروفًا فى عصر البطالمة(١) . فامتد لكى يشمل كل فئات المجتمع .

ولكن هناك شريحة من الناس تمتعوا بامتياز الإعفاء من الخدمة الإلزامية ، وهم المواطنون الرومان الذين يقيمون فى مصر ، ومواطنو مدينة الإسكندرية ، وسكان عواصم المديريات من الإغريق ، والفائزون فى المسابقات الرياضية ، وأصحاب بعض المهن مثل الأطباء ، والأشخاص الذين يعولون خمسة أطفال ، والمكلفون بتقديم الخدمات للجيش الرومانى ، كما كان يتم إعفاء باقى أفراد الأسرة ، إذا كان أحد أفرادها مكلفًا بإحدى الوظائف الإلزامية ، كما تتمتع بالإعفاء أيضًا النساء والجنود القدامى Vetrani ، وبعض الكهنة وكبار السن(٢). والذين يعانون من الإعاقة البدنية. وأصحاب الفئة الأخيرة كان يتم إعفاؤهم من الخدمات التى تعتمد على العمل البدنى ، ولكن هذا لا يمنع من تكليفهم بالأعمال التى تعتمد على الثروة .

ويمكننا أن نفرق بين نوعين من الخدمات الإلزامية ، كان قوام أحدهما العمل اليدوى ، بينما اعتمد النوع الآخر على الثروة . وقد أخذ نظام الخدمات الإلزامية يتبلور فى حوالى منتصف القرن الأول ، واتخذ شكله المألوف فى نهاية هذا القرن ومطلع القرن الثانى ، وأخذت وظائف جديدة تخضع لنظام التكليف ، وقد وصل هذا النظام إلى ذروته فى نهاية عهد الإمبراطور تراچان (عام ١١٧) . فقد اتخذ هذا الإمبراطور خطوات واسعة فى مجال الخدمات الإلزامية، حين جعل أغلب وظائف جباية الضرائب فى أيدى جباة مكلفين .

وقد تمكنا من معرفة أسماء أكثر من مائة وظيفة خضعت لنظام الخدمة الإلزامية . وكان يشغل الوظيفة الواحدة شخص أو أكثر ، وفى القرنين الثانى والثالث كان أصحاب الوظائف

---

(1) Bowman, op. cit. p. 69 .

(٢) كان سن الإعفاء فى عهد الإمبراطور سيفيروس هو ٧٠ عامًا ، انظر : P. Flor. 382 .

يشغلون وظائفهم ، بالتكليف لمدة عام أو ثلاثة أعوام ، وبعد انتهاء هذه المدة كانت الإدارة تمهل الشخص لفترة من الوقت ، قبل أن تعود إلى تكليفه بوظيفة أخرى ، ولكن هذه القاعدة لم تكن تراعى بدقة ، حيث كان يجرى ترشيح البعض مرة أخرى ، بعد فترة وجيزة من انتهاء شغلهم للوظيفة السابقة ، وفى بعض الأحيان كان يكلف بعض الأشخاص بشغل وظيفة جديدة، بعد انتهاء شغلهم للوظيفة السابقة مباشرة .

وكان من الضرورى التأكد من ثروة كل شخص عند ترشيحه لشغل إحدى الوظائف (١). وذلك للتأكد من قدرته على النهوض بأعباء الوظيفة ، وكانت ثروات المكلفين تتفاوت حسب طبيعة الوظيفة التى يرشح لشغلها الواحد منهم (٢). وبمجرد الإعلان عن تكليف شخص بإحدى الوظائف ، توضع ممتلكاته تحت إشراف الدولة ، وفى بعض الأحيان كان يطلب من هذا الشخص أن يحضر ضامنًا له ، حتى يمكنها أن تستدير إلى ممتلكات هذا الضامن ، فى حالة عجز هذا المكلف أو هروبه ، وكانت قوائم المرشحين تقدم لحاكم المديرية (الاستراتجوس) ، الذى يوافق عليها ويطلب إعلام المرشحين بوقوع الاختيار عليهم .

وفى بعض الأحيان كان يتم ترشيح شخص لا تنطبق عليه الشروط ، كأن يكون متمتعًا بامتياز الإعفاء من الخدمة الإلزامية ، أو أن تكون ممتلكاته دون الحد المطلوب لشغل الوظيفة المرشح لها ، وفى هذه الحالة تطلب الإدارة من الموظف الذى قام بترشيحه إيجاد بديل له ، وإذا عجز عن إيجاد البديل ، فإن الإدارة تلزمه هو بشغل هذه الوظيفة ، وإزاء الضغوط التى عانى منها الأهالى بسبب هذا النظام الجائر ، فلم يكن أمامهم من سبيل غير الهروب من مواطنهم(٣).

---

(1) Lewis, op. cit. p. 179 .

(٢) أشار الدكتور بومان إلى وثيقة بردية تحتوى على تقرير بمصادرة ممتلكات ١٢٠ شخصًا رفضوا القيام بوظائف إلزامية انظر : Bowman, op. cit. p. 69 .

(٣) عن العلاقة بين نظام الخدمات الإلزامية وظاهرة هروب الأفراد من مواطنهم انظر : أبو اليسر فرح : المرجع السابق ، ص ١٦٠ - ١٦٤ .

النظم الاقتصادية :

يوجد اختلاف جذرى ما بين السياسة الاقتصادية للبطالمة والرومان ، فعلى حين حرص البطالمة على السيطرة على النشاط الاقتصادى ، وكان الملك هو محور الحياة الاقتصادية ، فإننا نجد أن الرومان حرصوا على تشجيع الاستثمارات الفردية ، وكانت سياسة الإمبراطور أوغسطس ترمى إلى تشجيع الطبقة الوسطى على ممارسة النشاط الاقتصادى ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى خلق طبقة قوية ، لكى تكون قادرة على مساعدة الدولة فى تحمل بعض الأعباء ، وقد أتت هذه السياسة ثمارها المرجوة ، حينما شرعت الإدارة الرومانية فى الاعتماد على نظام الخدمة الإلزامية ، والحقيقة أن الاتجاه نحو تشجيع الملكية الفردية يعتبر تحولاً مهمًا فى الحياة الاقتصادية فى مصر .

الزراعة :

أولى أوغسطس اهتمامًا كبيراً للزراعة فى مصر ، باعتبارها عماد الاقتصاد المصرى عبر العصور ، ويذكر استرابون أن أوغسطس عهد إلي جنوده بإصلاح نظام الرى فى مصر [1]. ويستطرد استرابون قائلاً أنه نتيجة لهذه الجهود فإن إنتاج المحصول الوفير ، أصبح يتطلب أن يكون ارتفاع منسوب النيل ١٢ ذراعًا فقط ، بعد أن كان يتطلب فى السابق ١٤ ذراعًا ، وبينما كانت مصر فى السابق يمكن أن تتعرض للمجاعة إذا كان ارتفاع منسوب النيل ٨ أذرع، أصبح هذا المنسوب لا يمثل خطراً على البلاد بأى شكل[2] .

حرص أوغسطس على عدم إدخال تغيرات جوهرية فى نظام الأرض الزراعية ، ومما هو جدير بالذكر أن الأرض الزراعية فى عصر البطالمة ، كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، أولهما الأرض الملكية ، وهى تلك الأراضى التى كان الملك يستثمرها بشكل مباشر ، عن طريق

---

(1) Strabo. XVII, 788 .

(٢) كانت الدولة خلال عصرى البطالمة والرومان تحدد مستحقاتها لدى الأفراد بناء على ما يحدده مقياس النيل ، فتم التفرقة بين الأرض الزراعية التى تغطيها المياه خلال موسم الفيضان ، وتلك التى لا تصل إليها المياه . وكان يوجد على مجرى النهر العديد من مقاييس النيل Nilometer أشهرها مقياس إلفنتين فى الجنوب ومقياس منف . عن مقياس النيل انظر : أبو اليسر فرح . النيل فى المصادر الإغريقية ، ص ١٣٠ - ١٣٤ .

تأجيرها إلى مزارعين ، يتولى الإشراف عليهم موظفو الدولة . أما القسم الآخر فهى تلك الأراضى التى كان الملك يتنازل عنها لآخرين ، لكى يقوموا بزراعتها نظير شروط محددة ، ويشمل هذا القسم أراضى المعابد ، وأراضى الإقطاعات العسكرية ، وأراضى الهبات التى كان الملك يختص بها بعض رجال الإدارة المدنية ، بالإضافة إلى شريحة كانت تعرف بأرض الامتلاك الخاص ، والأراضى التى كانت تمنح للمدن الإغريقية فى مصر .

وفى عصر الرومان أيضًا انقسمت الأرض الزراعية إلى قسمين رئيسيين ، أولهما أرض الدولة ، أما القسم الآخر فهو أرض الامتلاك الخاص [١].

أولاً : أرض الدولة :

١ - الأرض الملكية : ge Basilike :

وهى الأرض التى كانت تحمل ذات الإسم فى عصر البطالمة ، وقد آلت ملكيتها إلى الدولة الرومانية بعد فتح مصر ، وظل هذا النوع كما كان العهد به فى عصر البطالمة ، يؤجر فى شكل مساحات صغيرة إلى مزارعين يطلق عليهم المزارعون الملكيون georgoi basilikoi ، وكان هؤلاء المزارعون يدفعون إيجاراً عينيًا يمثل نسبة من المحصول ، ومن حق مزارع الأرض الملكية أن يحصل على قرض من الغلال من صوامع الدولة ، على أن يعيده بعد جنى المحصول، بالإضافة إلى الفوائد المستحقة عليه . ويشرف على هذه الأراضى مدير الحساب الخاص (الإديوس لوجوس) [٢].

٢ - الأرض العامة ge demosia :

لا نعرف على وجه التحديد معنى هذه التسمية ، وأغلب الظن أن هذا الإسم كان يطلق على الأراضى الرملية ، أو الأرض المتاخمة للصحراء ، ويبدو أن غالبية هذه الأراضى كانت ذات إنتاجية منخفضة ، لذلك كان إيجارها منخفضًا أيضًا ، وكانت تخصص للزراعات الخفيفة ، وكانت الدولة تجد صعوبة فى إيجاد مزارعين يقبلون القيام بزراعة هذه الأرض ، لذلك كان الموظفون يلجأوون إلى إرغام المزارعين على أداء قسم باسم الإمبراطور ، بأنهم سوف

---

(١) آمال الروبى : المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

(2) Johnson, op. cit. p. 26 .

يقومون بزراعة هذه الأرض ، وتأدية الالتزامات المستحقة عليها ، وكان يطلق على هؤلاء المزارعين إسم " مزارعو الدولة " demosioi georgoi .

٣ - أراضى الضياع الإمبراطورية : ge Ousia :

يختلف نظام الضياع فى عصر الرومان اختلافًا جذريًا عن نظام الضياع فى عصر البطالمة[١] . ففى عصر البطالمة كان الملوك يمنحون كبار موظفيهم ووزراءهم مساحات من الأرض الزراعية ، وكانت هذه الأرض بمثابة هبة ملكية لهؤلاء المعاونين من أجل تشجيعهم على استثمار أموالهم فى تلك الأراضى ، وخير مثال على هذه الهبات ، الضيعة التى وهبها بطلميوس فيلادلفوس إلى وزير ماليته أبوللونيوس .

أما فى عصر الرومان فقد اختلف الأمر ، فإن أغلب أصحاب الضياع لم يكونوا يقيمون فى مصر ، بل كانوا يقيمون فى روما ، ولم تكن الضياع تؤول إلى أصحابها عن طريق الهبة ، وإنما عن طريق الشراء ، وأغلب الظن أن الرومان حينما صادروا أراضى الإقطاعات العسكرية البطلمية [٢]، وأراضى الهبات ، أضافوا إليها تلك الأراضى التى مات أصحابها ، دون أن يكون لهم ورثة . وكان يتم عرض هذه الأراضى فى مزاد علنى ، حيث يتقدم لشرائها أثرياء الرومان ، وقد شجع أوغسطس آل بيته على شراء تلك الأراضى ، ونحن نعرف على سبيل المثال أن ليڤيا Livia زوجة أوغسطس كانت تمتلك ضيعة فى قرى الفيوم[٣] ، وكذلك الأمير جرمانيكوس ، والأميرة أنطونيا إبنه ماركوس أنطونيوس من أوكتاڤيا .

كما شجع أوغسطس أصدقاءه وكبار رجال الدولة فى عهده ، على شراء الأراضى فى مصر، فنعرف مثلاً أن مايكيناس Maecenas وزير الثقافة فى عصر أوغسطس[٤] ، وصديق الشاعر ڤرجيل كانت له ضيعة فى الفيوم ، كما كان الفيلسوف سينيكا Seneca معلم الإمبراطور نيرون يملك ضيعة فى إقليم أوكسيرينخوس . ومن ناحية أخرى أقبل أثرياء الرومان

---

(١) قدمت الدكتورة آمال الروبى تفصيلات كثيرة حول أراضى الضياع ، وقسمتها إلى عدة فئات انظر : آمال الروبى . المرجع السابق ، ص ١٦٨ - ١٨٠ .

(2) Rostovtzeff, op. cit. p. 294 .

(3) Rostovtzeff, op. cit. p. 292 .

(4)Rostovtzeff, op. cit. p. 293 .

الذين كانوا يقيمون فى مصر على امتلاك أراضى الضياع الإمبراطورية ، وكذلك أثرياء الإسكندرية [١].

لم يلبث الكثيرون من أصحاب الضياع الإمبراطورية أن أخذوا فى التنازل عنها للدولة ، مثلما فعل مايكيناس[٢]. وآلت ملكيتها إلى الخزانة الإمبراطورية [٣]. وفى عام ٦٩ حينما تولى العرش الإمبراطورى فسباسيانوس ، أصدر السناتو قراراً بمنحه كل الأملاك الإمبراطورية، فأصبحت هذه الأراضى ملكًا للإمبراطور بصفة شخصية ، وشكلت قسمًا من الأرض العامة التى تمتلكها الدولة [٤].

ويتم استغلال أراضى الضياع عن طريق تأجيرها إلى مزارعين ، يطلق عليهم مزارعوا الضياع Osiakoi gergoi ، وكان باستطاعة المزارع أن يستأجر أراض فى أكثر من ضيعة ، وقد فرضت على أراضى الضياع نوعان من الضرائب ، أولاهما ضرائب عينية ، كانت تفرض على الأرض التى تزرع غلالاً ، أما النوع الثانى ، فهى الضرائب النقدية ، التى كانت مقررة على حدائق الفاكهة .

٤ – أراضى المعابد ge hieratike :

من المعروف أنه فى عصر البطالمة كانت فى حوزة المعابد مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية ، وقد ازدادت مساحات هذه الأراضى فى الشطر الثانى من عصر البطالمة . وعندما فتح الرومان مصر ، رأى الإمبراطور أوغسطس أن تمتع المعابد بتلك المساحات الكبيرة من الأراضى يضع تحت أيدى الكهنة موارد جمة . مما يؤدى إلى تعاظم دورهم فى المجتمع ، فقرر أن يعمل على تقليم أظافر الكهنة ، فأمر بمصادرة أراضى المعابد [٥]، وجعلها ملكًا للدولة ،

---

(1) Rostovtzeff, op. cit. p. 287 .

(2) Johnson, op. cit. pp. 26, 78 .

(٣) على الرغم من ذلك فقد ظلت هذه الأراضى لقرن من الزمان تحمل اسم ملاكها السابقين انظر :
Lewis, op. cit. p. 74

(٤) بل: المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٥) بل : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

وتقرر وضعها تحت إدارة مدير الحساب الخاص (الأيديوس لوجوس) ، الذى تولى منصب رئيس الكهنة فى مصر أيضًا[١] . ولكن الدولة لم تشأ حرمان الكهنة كلية من الأرض الزراعية فخصصت بعض المساحات للإنفاق على شئون العبادة[٢].

٥ - أراضى المستنقعات ge Limintike :

كانت هذه الأراضى ذات إنتاجية منخفضة ، وتقع غالبيتها فى الدلتا[٣] . ونظرًا لانخفاض إنتاجيتها ، فإن الضرائب والإيجارات المقررة عليها كانت منخفضة أيضًا .

٦ - أراضى الدخل : ge Prosodos :

ليس من المعروف على وجه التحديد طبيعة هذا النوع من الأراضى ، ولكن مما يستلفت النظر ، أن الضرائب المستحقة عليها كانت مرتفعة نسبيًا ، وتشبه إلى حد كبير تلك التى كانت مقررة على الأرض الملكية ، وربما كانت هذه الأرض هى تلك المساحات التى تقوم الدولة بمصادرتها بسبب فشل أصحابها فى أداء التزاماتهم ، حيث كان يتم وضعها تحت إشراف مدير الحساب الخاص لبعض الوقت ، حتى يتم حسم أمرها ، وتوضع تحت تصنيف آخر من الأراضى.

ثانيًا : أراضى الامتلاك الخاص ge idiotike :

يعتبر هذا النوع من الأراضى من المعالم البارزة للسياسة الزراعية للرومان فى مصر ، فهى تتسق مع سياستهم الاقتصادية التى ترمى إلى تشجيع الملكية الخاصة . وكانت هذه الأراضى تعد ملكية خاصة للأفراد ، ومن حقهم التصرف فيها بالبيع والرهن والتوريث ، وكانت الضريبة المقررة عليها مقدارها أردب عن كل أرورة ، وكان من حق أصحاب هذه الأراضى أن يؤجروها لآخرين ، طبقًا لعقود يتم إبرامها بين الطرفين ، تحدد فيها حقوق كل طرف ، وقد نص فى بعض هذه العقود على تحديد نوعية المحصول ، الذى ينبغى زراعته فى الأرض ، ولكن فى أحيان أخرى كان للمستأجر مطلق الحرية فى زراعة الأرض كيفما يشاء ، وكان للنساء الحق فى تملك بعض المساحات من الأراضى التى تنتمى إلى أراضى الامتلاك الخاص .

---

(١) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٢٤٤ .

(2) Johnson, op. cit. pp. 26 .

(2) Johnson, op. cit. pp. 27 .

وكان من حق مزارعى أرض الامتلاك الخاص الحصول على قروض من صوامع الغلال التى تمتلكها الدولة ، ومن حقهم أيضًا أن يطلبوا تخفيض الضرائب المقررة عليهم ، فى حالة عدم وصول مياه الفيضان إلى أراضيهم .

وبالإضافة إلى الأراضى التى كان يمتلكها الأفراد ، كانت هناك أراض خاصة بالمدن ge Politike [١]، وهى التى كانت تتمتع بها المدن الإغريقية فى مصر ، والتى كانت موجودة منذ العصر البطلمى ، وقد زادت عندما أضاف الرومان مدينة رابعة هى مدينة أنتينوبوليس ، ويخصص دخل هذه الأراضى للإنفاق على إدارة شئون هذه المدن ، ومن الملاحظ أن بعض المدن كانت تمتلك أراض زراعية فى مناطق بعيدة عنها ، فقد كان لمدينة الإسكندرية مساحات من الأرض فى الفيوم .

أما عن المحاصيل الزراعية ، فقد كان القمح أهم تلك المحاصيل ، وكان القمح الذى يزرع فى صعيد مصر هو الأفضل ، لأن طبيعة أرض الدلتا التى تسودها المستنقعات ، أقل صلاحية لزراعة القمح[٢] . وقد أولت الدولة عناية خاصة لهذا المحصول نظرًا لحاجة روما الشديدة له ، ويأتى الشعير فى المرتبة الثانية ، الذى يستخدم كعلف للخيول ، كما كانت تصنع منه الجعة ، المشروب الرئيسى للمصريين . كما انتشرت زراعة البقوليات بأنواعها المختلفة ، إضافة إلى الخضر والفاكهة ، كذلك مزارع الزيتون والكروم ، وفى جنوب مصر وجدت بكثرة أشجار النخيل [٣]. ويقال أن مصر عرفت زراعة القطن فى العصر الرومانى ، وأن الملابس القطنية كانت هى المفضلة لدى الكهنة [٤].

وقد ارتبط بالزراعة ارتباطًا وثيقًا ، عمليات مسح الأراضى ، فقد كان فيضان النيل فى كل عام يغير شكل الأرض الزراعية [٥]، وكانت عملية مسح الأراضى أمرًا ضروريًا من أجل تقدير الضريبة المقررة على الأرض الزراعية ، والتى كانت تختلف من منطقة لأخرى ، فإن

---

(١) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٢٥٠ .

(2) Johnson, op. cit. pp. 1 .

(4) Lewis, op. cit. pp. 124 - 7 .

(٤) محمد عبد الغنى : لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، ص ١٩٦ .

(5) Strabo. XVII, 787 .

الأرض التى كانت تروى بسهولة ، فرضت عليها ضرائب أعلى من تلك التى لا تصل إليها مياه النيل ، وكانت الإدارة الرومانية فى مصر تحتفظ لديها بسجلات دقيقة عن أوضاع الأرض الزراعية (١).

الصناعة والتجارة :

إذا كانت الدولة قد عملت على تشجيع الملكية الفردية فى مجال الزراعة ، فإنها نهجت ذات النهج فى مجال الصناعة والتجارة (٢)، فلم يتبع الرومان سياسة الاحتكار التى مارسها البطالمة ، بل تركوا أمر الصناعة فى أيدى الأفراد ، ولكنهم حرصوا على إبقاء الصناعات الأساسية خاضعة لسيطرة الدولة ، مثل الإشراف على المناجم والمحاجر ، كما تدخلت الدولة بشكل جزئى فى بعض الصناعات ، مثل صناعة النسيج والبردى والجعة والطوب .

ومما هو جدير بالذكر أن الصناعة والتجارة قد شهدتا إزدهاراً كبيراً فى بدايات العصر الرومانى ، ويرجع ذلك إلى النشاط الذى شهدته التجارة الشرقية ، وهو النشاط الذى لعبت فيه الإسكندرية دوراً مهمًا ، فقد استطاعت هذه المدينة بفضل موقعها المتوسط فى قلب الإمبراطورية الرومانية ، أن تحتل مكانة عظيمة فى اقتصاديات العالم القديم .

كانت الإسكندرية مركزاً مهمًا لصناعة الزجاج والبردى والنسيج (٣)، وتعد صناعة الزجاج من الصناعات العريقة فى مصر ، ويرجع تاريخها إلى عصر الفراعنة ، حيث توفرت فى رمال مصر المادة اللازمة لإنتاج أنواع متميزة من الزجاج (٤)، وكانت الإسكندرية تقوم بتصدير الزجاج إلى سائر أرجاء البحر المتوسط . أما صناعة أوراق البردى فهى صناعة مصرية خالصة، انفردت بها مصر دون سائر بلدان العالم القديم . لأن نبات البردى كان ينمو فى مستنقعات الدلتا المصرية فقط ، وكانت أوراق البردى يتم صناعتها من سيقان هذا النبات (٥). ومن

---

(1) Johnson, op. cit. pp. 29 .

(2) Johnson, op. cit. p. 325 .

(3) Bowman, op. cit. p. 40 .

(٤) وصلت جودة صناعة الزجاج فى الإسكندرية إلى درجة ، جعلت صناع الزجاج قادرين على تقليد الأحجار الكريمة ، انظر : محمد عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(5) Pliny, NH, XIII, 71 .

المرجع أن تجارة أوراق البردى كانت حرة تمامًا ، ولكن الدولة فرضت ضرائب نقدية ونوعية على صناعة البردى[١] .

ثم تأتى بعد ذلك صناعة النسيج ، التى كانت تحظى بانتشار واسع فى مصر ، وقامت هذه الصناعة على الإنتاج المنزلى ، إلى جانب المصانع التى كانت تقوم بإنتاج أنواع راقية من النسيج ، وقد اشتهرت الإسكندرية بإنتاج نوع متميز من التيل المزخرف ، ويقول بلينى أن المصريين كانت لديهم طريقة سرية لتلوين وصباغة الملابس [٢]، وكانت المنسوجات المصرية تلقى رواجًا فى الأسواق الشرقية ، بالإضافة إلى بلدان البحر المتوسط ، ويبدو أن الدولة كانت تشرف على هذه الصناعة ، وكانت لديها مصانع للنسيج ، وكان عمال النسيج ينضوون فى نقابات تشرف عليها الدولة[٣]. وقد فرضت الدولة على النساجين وعلى المصانع دفع ضرائب نقدية ونوعية .

وإلى جانب الصناعات الأساسية عرفت مصر صناعات أخرى ، مثل صناعة العطور والمستحضرات الطبية [٤]، وكذلك الأدوات الموسيقية والخمور والفخار[٥] .

أما فيما يتعلق بالتجارة ، فإنه على الرغم من تدهور مكانة الإسكندرية من الناحية السياسية ، فإن دورها فى مجال التجارة أصبح عظيمًا [٦]. وكان ذلك نتيجة حتمية لحالة

---

(١) عن أماكن نمو نبات البردى ، وطرق صناعته وتصديره إلى الخارج ، راجع المقدمة التى كتبها الأستاذ "بل" فى الكتاب الذى أشرنا إليه مرارًا فى مراجعنا السابقة ، والذى ترجمه الدكتور عب اللطيف أحمد على : انظر ، بل : المرجع السابق ، ص ١ - ٣٠ ، وكذلك الفصل الذى كتبه الدكتور : عبد اللطيف أحمد على عن أوراق البردى باعتبارها مصدرًا من مصادر التاريخ الرومانى ، انظر : عبد اللطيف أحمد على : مصادر التاريخ الرومانى ، ص ١٤٦ - ٢٢٠ .

(2) Pliny, NH, XXXV, 150 .

(3) Johnson, op. cit. p. 29 .

(4) Johnson, op. cit. pp. 4 , 331 .

(٥) امتدح الكتاب القدامى النبيذ الذى كانت تنتجه منطقة الدلتا فى مصر ، وبخاصة نبيذ مريوط ، كما ذكروا أن هناك أنواع من الخمور كان يتم إنتاجها من التين ، وأنواع أخرى تنتج من البلح ، انظر :
Johnson, op. cit. pp. 6 - 7 .

(6) Goodman, op. cit. pp. 267 - 8 .

الازدهار التى عمت الإمبراطورية الرومانية [١]، بعد أن عم السلام وخلا البحر من القراصنة ، وأصبحت السفن تبحر فى أمان ، وتقاطر التجار على الإسكندرية من جميع أرجاء المعمورة ، من الإغريق والإيطاليين والسوريين ومن آسيا الصغرى ، وكذلك الأثيوبيين والعرب والفرس[٢]. وسيطر التجار السكندريون على تجارة البحر الأحمر والشرق [٣]. وبعد اكتشاف الرياح الشرقية الموسمية على يد هيبالوس فى القرن الأول ق.م. ازدادت التجارة بشكل واضح. وقبل عصر أوغسطس لم تكن تبحر إلى المياه الشرقية أكثر من عشرين سفينة ، ولكن بعد ذلك ازدادت التجارة حتى أن الأساطيل الكبرى أصبحت قادرة على جلب التجارة من الهند وأقاصى أثيوبيا[٤] .

ولكن لأن دوام الحال من المحال ، فقد تأثرت الصناعة والتجارة بالأحوال السياسية التى شهدتها مصر والإمبراطورية الرومانية ، وتدهورت الصناعة فى القرن الثالث .

وإذا كانت النظم الاقتصادية للرومان قد أتت أكلها فى البداية وشهدت مصر حالة من الازدهار فى كافة القطاعات الاقتصادية ، فإنها ما لبثت أن أنهارت ، ولم تصمد أمام الرياح العاتية التى تمثلت فى الاضطرابات التى شهدتها مصر فى كثير من الأحيان ، بالإضافة إلى الأحوال المضطربة التى سادت الإمبراطورية فى أحوال كثيرة . ويمكننا أن نعزو ذلك إلى أن النظم المالية والاقتصادية فى مصر ، استندت إلى أسس فاسدة ، قامت على اعتصار هذه الولاية ، والحصول على أكبر دخل ممكن منها ، دون أن تضع فى اعتبارها فى غالبية الأحيان الظروف التى تمر بها البلاد ، ويعلق الأستاذ بل Bell على سياسة الرومان الاقتصادية فى مصر قائلاً " إن تاريخ مصر الرومانية هو قصة محزنة من قصص الاستغلال الذى يدل على قصر النظر ، وينتهى حتمًا بالانهيار الاقتصادى والاجتماعى ، ومهما قيل عن إساءة بعض الملوك البطالمة الأواخر إدارة البلاد ، فقد كانت معظم الثروة الناتجة يبقى على الأقل فى مصر، ولكن روما كانت مالكًا متغيبًا " [٥].

---

(1) Bowman, op. cit. p. 40 .

(٢) محمد عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

(3) Strabo, II, 120 .

(4) Johnson, op. cit. p. 484 .

(٥) بل : المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

وتظهـر الأبحـاث التى أجراها البـاحـثـون فى عـصـرنا الراهن إلى أى مـدى كـانت الإدارة الرومانيـة ظالمة فى مصر ، فقد كتب الأستاذ روستوفتزف مقالاً بعنوان " الاستغلال الرومانى لمصر فى القرن الأول الميلادى " [١]، أدان فيـه الأساليب التى كانت تمارسها الإدارة الرومانيـة فى مـصر ، أما الأستاذ مـيلن Milne فقد اختار عـنوانًا أكثر دلالة لبـحثـه فى هذا المجال وهو "تدمير مصر بسبب سوء الإدارة الرومانيـة "[٢] . أوضح فيـه مدى مسئوليـة الرومان عـما لحق بمصر من تدهور .

---

(1) Rostovtzeff, Roman Exploitation of Egypt in the first century A.D. Journal of Economic and Business History. Vol. I, 1929. pp. 355 ff .

(2) Milne, The ruine of Egypt by Roman mismanagement. JRS. XVII, 1927. pp. 1ff .

الحياة الاجتماعية :

يقـول ألان بومـان Bowman أنه بالنسبة للغالبية العظمى من سكان مصر فى عصر الرومان ، لم يحدث تغير جذرى فى حياتهم ، ما بين عصرى البطالمة والرومان ، فليس هناك فارق يذكر بين أن يكون حاكمهم هو الملك البطلمى أو الإمبراطور الرومانى[(١)] .

يذكر المؤرخ جوزيفوس Josephus أن سكان مصر فى عهد الإمبراطور نيرون كان يصل عددهم إلى سبعة ملايين ونصف [(٢)]،فإذا قدرنا أنه يوجد فى الإسكندرية نصف مليون ، أصبح مجموع السكان ثمانية ملايين نسمة تقريبًا ، ولكن ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار أن هذا الرقم لم يكن ثابتًا فى ضوء الظروف التى كانت تمر بها البلاد ، والتى تؤدى بهذا العدد إلى الزيادة والنقصان[(٣)] .

يتخذ البناء الاجتماعى فى مصر شكلاً هرميًا ، يحتل قمته المواطنون الرومان ، وهم الفئة التى طرأت على المجتمع المصرى بعد الفتح الرومانى ، وتتكون من كبار الموظفين والجنود ، ورجال الأعمال والتجار ، وهى فئة لم تكن كبيرة العدد مقارنة بباقى السكان[(٤)]، وكان أفرادها ينعمون بكافة الامتيازات . ويأتى بعد ذلك قطاع كبير من ذوى الامتيازات الأقل ، وهم الإغريق واليهود ، ويقبع فى قاعدة الهرم الاجتماعى باقى سكان مصر من المزارعين والحرفيين وصغار الملاك والتجار ، أى الغالبية العظمى من الشعب التى كانت تلقى معاملة جائرة من الإدارة الرومانية ، ويطلق عليهم إجمالاً " المصريون " [(٥)].

كانت توجد حدود فاصلة بين هذه الطبقات ، فكان من ضروب المستحيل أن يتمكن فرد من القفز إلى طبقة أعلى ، إلا فى حالات استثنائية ، وبإذن خاص من الإمبراطور شخصيًا ، وكان بعض أثرياء الإسكندرية ، والشخصيات البارزة فى المدينة يكافأون بمنحهم المواطنة الرومانية ،

---

(1) Bowman, op. cit. p. 37 .

(2) Josephus, Bell. Jud. II.16. 4 .

(٣) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

(4)Johnson, op. cit. p. 247 .

(5) Lewis, op. cit. p. 19 .

فقد كانت طبقة الأثرياء كما هو الحال فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، موالية للرومان ، ولم يكن الرومان أسخياء فى منح المواطنة الرومانية ، رغبة منهم فى الحفاظ على الفوارق بين الطبقات، ولكن فى عام ٢١٢ أقدم الإمبراطور كر كلا على خطوة جريئة حين ألغى بجرة قلم تلك الفوارق، ومنح كافة سكان الإمبراطورية حقوق المواطنة الرومانية (١) .

الرومان :

وهم الذن كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية ، من المقيمين فى مصر ، وكان هذا الوضع يكفل لهم التمتع بكافة الامتيازات مثل الإعفاء من الضرائب والخدمات الإلزامية . يأتى الوالى الرومانى على رأس هذه الفئة ، وكان يتم إرساله من روما (٢)، لكى يحكم مصر بصفته ممثلاً للإمبراطور ، ويظل شاغلاً لمنصبه طالما إنه يتمتع برضا للإمبراطور ، وعادة ما يشغل منصبه لمدة تترواح بين عام واحد وثلاثة أعوام ، وفى أحيان نادرة لمدة أربعة أعوام أو خمسة (٣). وكان الوالى وكبار معاونيه يتخذون من الإسكندرية مقراً لهم باعتبارها عاصمة الولاية .

وكان الوالى يغادر الإسكندرية مصطحبًا بعض معاونيه ، للقيام بجولات تفقدية فى أنحاء البلاد ، فتارة يذهب إلى شرق الدلتا ، وتارة أخرى يتوجه إلى الصعيد . وكانت تحوطهم هالة من الإجلال أينما حلوا ، باعتبارهم رمزاً للسلطة العليا .

أما الرمز الذى كان يتعامل معه السواد الأعظم من سكان مصر ، فهم رجال الحامية الرومانية فى مصر ، ولا ينبغى أن يغيب عن بالنا أنه كان يوجد فى مصر فى عصر أوغسطس مايزيد على ٢٢ ألفًا من الجنود ، ولكن هذا العدد انخفض فى عهد خليفته تبيريوس إلى حوالى ١٦ ألفًا ، ثم ما ليث بعد ذلك أن انخفض فى القرن الثانى إلى حوالى ١١ ألفًا(٤) .

---

(1) P. Giss. 40, 11, 16 - 29 .

(٢) كان الوحيد من بين الولاة الذى يعد مصرى المولد هو تيبريوس يوليوس الإسكندر ، وكان إبنًا لأحد زعماء اليهود فى الإسكندرية ولكنه تلقى تعليمًا رومانيًا ، وانخرط فى سلك الوظائف الرومانية حتى وصل إلي هذا المنصب الرفيع ، انظر : Reinmuth, op. cit. pp. 4 - 5 .

(3) Lewis, op. cit. p. 19 .

(٤) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

وكانت هذه القوات من الفرق الرومانية ، التى كان أفرادها من المواطنين الرومان . بالإضافة إلى الفرق المساعدة ، التى كان أفرادها من أهالى الولايات ، ويتولى قيادتها ضباط رومان.

وكان من حق الجندى الذى يخدم فى الفرق المساعدة ، أن يحصل على المواطنة الرومانية بعد ٢٦ عامًا من الخدمة العسكرية ، وتجدر الملاحظة أن الخدمة العسكرية لم تكن أمراً ميسوراً أمام المصريين ، وفى أواخر القرن الثانى تم فتح باب التطوع فى الجيش أمام الشباب من سكان عواصم المديريات ، والالتحاق بالفرق المساعدة ، وكان أفراد هذه الفئة فى غالبيتهم من الإغريق الذين استقروا فى مصر منذ عصر البطالمة [١].

وبالإضافة إلى الجنود كانت هناك قلة من أغنياء الرومان يأتون إلى مصر للاستمتاع بشتائها اللطيف ، والاستشفاء فى جوها الطيب ، كما اتخذ بعض الرومان من مصر مستقراً لهم ، وكان غالبيتهم من قدامى المحاربين ، إلا أن بعضهم كانوا ينحدرون من عائلات سكندرية ، حصلت على المواطنة الرومانية . وتجدر الإشارة إلى أنه فى خلال القرن الأول كانت سياسة الأباطرة الرومان تقوم على السماح لرجال الولايات بالالتحاق بالخدمة العسكرية ، فى الفرق التى ترابط فى الولايات ، لذلك فإن الجنود القدامى الذين استقروا فى مصر كانوا من أصول أجنبية ، ونظراً لطول إقامتهم فى مصر ، فقد ارتبطوا بها ، وأحسوا أنها وطنهم .

وعلى الرغم من إنه لم يكن مسموحًا للجنود بالزواج خلال الخدمة العسكرية ، فإننا نلاحظ أن الجنود أقاموا علاقات مع نساء ، وأنجبوا منهن أبناء[٢]. ولم يكن وضع هؤلاء الزوجات قانونيًا ، طالما أن الزوج مايزال ملتحقًا بالخدمة العسكرية ، إلا أنه بعد تسريح الجندى كان يتم الاعتراف بتلك الزيجات ، وكان الجنود وزوجاتهم وأبناؤهم يحصلون على المواطنة الرومانية.

وعندما يتم تسريح الجندى من الخدمة العسكرية ، فإنه يكون فى وضع مالى طيب ، فقد كان يحصل على مكافأة مالية ، كما أن مدة الخدمة العسكرية التى كانت تقترب من ربع قرن، كان تفرض على الجندى إدخاراً إجباريًا من راتبه ، وكان بعض الجنود يستثمرون أموالهم فى

---

(1) Lewis, op. cit. p. 20 .

(٢) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

مشروعات ، تدر عليهم أرباحًا طيبة ، وكانت الأنشطة المالية لرجال الحامية تمتد إلى عدة مجالات ، مثل تجارة العبيد وغيرها من الأنشطة التجارية ، ولعل أهم الأنشطة المالية الى شارك فيها رجال الحامية ، هى إقراض الأهالى فى مقابل الحصول على الربا [١].

كانت الإدارة الرومانية تمنح الجندى المسرح الأوراق التى تدل على أدائه الخدمة العسكرية ، وبهذين السلاحين أى المال والمستندات كان الجندى المسرح يبدأ حياته المدنية [٢]. فيشترى العقارات ، وكان الجنود المسرحون يحرصون على الإقامة فى القرى الكبيرة ، ففى قرية فيلادلفيا بمديرية أرسينوى على سبيل المثال ، كانوا يشكلون خمس عدد الملاك فى القرية ، فى أوائل القرن الثالث .

ويبدو أن سكان القرى لم يكونوا يشعرون بالارتياح لوجود هؤلاء الجنود السابقين بينهم ، ويرجع هذا الشعور إلى نفور الأهالى من الجنود ، وهو شعور ترسب فى أعماق القرويين بسبب الابتزاز الذى اعتاد أن يمارسه الجنود ضدهم . كما أن الامتيازات التى كانت تمنح للجنود المسرحين ، كانت تثير الحقد والاستياء لدى سكان القرى ، ومن ناحية أخرى ، فقد كان الجنود المسرحون يتعاملون مع الإغريق والمصريين بقدر كبير من الاستعلاء ، ويرجع السبب فى هذا إلى رغبتهم فى تعويض إحساسهم بالنقص ، لأنهم ينتمون إلى أصول متواضعة .

إغريق المدن واليهود :

عندما دخل أوكتافيانوس مصر ، كانت توجد ثلاث مدن إغريقية فى مصر [٣]، وهى نقراطيس فى الدلتا ، ثم مدينة الإسكندرية ، أما المدينة الثالثة فهى بطلمية ، الى تقع فى صعيد مصر ، وفى عام ١٣٠ أضاف الإمبراطور هادريان مدينة رابعة هى أنتينوبوليس ، التى أقامها في مصر الوسطى ، تكريمًا لذكرى خليله الذى غرق فى هذه المنطقة خلال مرافقته للإمبراطور . وقد حصلت مدينة أنتينوبوليس على كافة الامتيازات ، التى كانت تتمتع بها المدن الأخرى ، إضافة إلى تمتعها بالنظام البلدى الرومانى municpia ، وحصول مواطنيها

---

(١) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

(2) Lewis, op. cit. p. 22 .

(3) Rostovtzeff, op. cit.p. 297 .

على امتيازات إضافية . أما مدينة الإسكندرية فقد بلغ عدد الرجال الأحرار فيها ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، حسب رواية المؤرخ ديودور الصقلي[١] ، وربما يصل إجمالي عدد سكانها إلى نصف مليون نسمة . ولكن لا تتوفر لدينا معلومات عن مدينتي نقراطيس وبطلمية في عصر أوغسطس ، أما مدينة أنتينوبوليس فقد توفرت لدينا معلومات عنها ، بفضل أوراق البردي التي نشرت في الفترة الأخيرة ، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلاف في نظم المدن الأربع إلا أن نظمها كانت في الغالب متقاربة [٢].

وأهم تلك النظم التي تشابهت فيها هذه المدن ، هي تسجيل مواطنيها في قبائل وأحياء ، وهو النظام الذي كان متبعًا في المدن المستقلة في بلاد اليونان ، وكذلك وجود مؤسسة الجمنازيوم ، التي حرص عليها الإغريق باعتبارها من رموز المدينة الإغريقية ، وكان مواطنو هذه المدن يقبلون على تولي وظيفة مدير معهد الجمنازيوم ، وهي وظيفة شرفية ، كان شاغلها مسئولاً عن إمداد المعهد بكافة احتياجاته ، وقد أصبحت هذه الوظيفة فيما بعد إلزامية .

يعد مجلس الشورى Boule أيضًا من معالم المدينة الإغريقية ، وكان حرمان الإسكندرية من هذا المجلس من الأسباب التي جعلت السكندريين يكرهون الحكم الروماني ، أما مدينتا نقراطيس وبطلمية ، فقد تمتعتا بوجود مجلس للشورى فيهما [٣]. وقد حصلت مدينة أنتينوبوليس على مجلس الشورى منذ تأسيسها . وحصلت الإسكندرية على حق التمتع بوجود مجلس الشورى ، في عهد الإمبراطور سبتميوس سيفيروس ، الذي منح هذا الحق لكافة عواصم المديريات ، وقد أثار هذا الأمر سخط السكندريين ، الذي ساءهم أن يروا مدينتهم العظيمة تتساوى مع سائر المدن الأخرى في مصر [٤].

ومن الناحية الاقتصادية ، تمتع مواطنو المدن الإغريقية ببعض الامتيازات ، فقد كانوا يشاركون في النشاط الاقتصادي لمدينة الإسكندرية ، كما أعفوا من دفع ضريبة الرأس ، التي كانت تعد بالنسبة لسكان الولايات عبئًا تنوء به كواهلهم ، إضافة إلى كونها دليلاً على تدني

---

(1) Diod. XVII. 52 . 6 .

(2) Lewis, op. cit. p. 26 .

(3) Lewis, op. cit. p. 27 .

(١) بل : المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

المكانة الاجتماعية والسياسية . وكان مواطنو المدن الإغريقية الأربع يمتلكون أراض زراعية فى أنحاء متفرقة من مصر ، وكانت بعض هذه الأراضى تقع على مسافات بعيدة من مدنهم . كما تمتع هؤلاء المواطنون بحق الإعفاء من الخدمات الإلزامية أينما حلوا (١).

وكان من حق مواطنى المدن الاغريقية أن يخدموا فى الفرق الرومانية ، وهذا يعنى أنهم يصبحوا مواطنين رومان بمجرد تسجيلهم فى هذه الفرق ، أما باقى السكان فكان من حقهم الخدمة فى الفرق المساعدة فقط ، وهذا لا يعطيهم الحق فى الحصول على المواطنة الرومانية ، إلا بعد الخدمة لمدة ربع قرن .

ومما هو جدير بالذكر أن حقوق المواطنة فى المدن الإغريقية كانت تقتصر على فئة محدودة ، ولم يكن كل المقيمين فى المدينة يتمتعون بحقوق المواطنة . فقد كان يوجد الكثيرون الذين اجتذبتهم إلى هذه المدن الرغبة فى استثمار أموالهم .

أما اليهود فإن استقرارهم فى مصر يرجع إلى عهود قديمة ، وكانت هناك جالية يهودية فى جنوب مصر منذ القرنين الخامس والرابع ق.م. ، وقد انتشر اليهود فى سائر أرجاء مصر . وكان لهم دور ملموس فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى الإسكندرية (٢). كما شغل بعض اليهود مراكز إدارية مهمة فى الإسكندرية ، مثل إسكندر لوسيما خوس شقيق الكاتب فيلون ، ووالد تبيريوس الإسكندر ، الذى أصبح واليًا على مصر فيما بعد (٣). ويعد فيلون من العلامات الثقافية البارزة فى الإسكندرية فى القرن الأول ، وكان ضليعًا فى الفلسفة اليونانية ، وكتب أبحاثه باللغة اليونانية ، وكان يحاول شرح الديانة اليهودية لغير اليهود.

يذكر فيلون أن عدد اليهود فى الإسكندرية يصل إلى المليون (٤). وهو رقم يدخل فى إطار المبالغات الخطابية ، لأن إجمالى سكان المدينة لم يكن يصل إلى نصف هذا العدد ، ولكن يبدو أن عدد اليهود فى الإسكندرية تزايد ، فأصبحوا يشغلون اثنين أو أكثر من أحياء المدينة

---

(1) Lewis, op. cit. p. 27 .

(٢) يتضح مما ذكره فيلون تعليقًا على فتنة عام ٣٨ أن اليهود كان يمتلكون الكثير من الحوانيت والمستودعات التى تعرضت للنهب . انظر : Philo, In Flacc. 56 .

(٣) مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(4) Philo, In Flacc. 6. 43 .

الخمسة ، بعد أن كانوا يسكنون فى السابق حيًا واحداً ، هو الحى الرابع (دلتا)[١] . وكان أوغسطس قد كافأ اليهود نظير الخدمات التى قدموها للرومان ، فأقر لهم الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها منذ عصر البطالمة ، والتى تشمل احتفاظهم بمجلس للشيوخ [٢]. فى الوقت الذى حرم فيه السكندريين من أن يكون لهم ملس للشورى . لذلك تمادى اليهود وتصرفوا كما لو كانوا من مواطنى الإسكندرية وأخذوا يقحمون أنفسهم فى مؤسسات الإغريق مثل الجمنازيوم ، مما استفز السكندريين ، وأدى إلى تفجير روح الكراهية لديهم تجاه اليهود .

بعد الفتن المتوالية التى قام بها اليهود فى القرن الأول والثانى ، فإنهم حرموا الكثير من امتيازاتهم . وقد ظل يهود مصر على ولائهم للرومان ، حتى بعد تدمير الرومان لهيكل أورشليم . وعلى الرغم من ذلك فإن معبد اليهود الرئيس فى مصر ، وهو معبد ليونتوبوليس ، قد تعرض للنهب والتدمير ، وأمر فسباسيانوس بإغلاقه نهائيًا [٣]. فقد خشيت السلطات الرومانية من أن يتحول هذا المعبد إلى مركز لتجمع اليهود ، بديلاً عن هيكل أورشليم ، وقد فرضت السلطات الرومانية على كل يهودى أن يدفع ضريبة سنوية ، يخصص دخلها للإنفاق على معبد جوبيتر (كبير آلهة الرومان) ، وكان اليهود قد دمروا هذا المعبد فى أورشليم خلال ثورتهم ، وقد استمرت جباية هذه الضريبة ، حتى انتهى الرومان من إعادة بناء معبد جوبيتر فى أورشليم .

لم تنته متاعب الرومان مع اليهود بتدمير هيكل أورشليم ، وقد أشرنا من قبل إلى الثورة الكبرى التى قام بها اليهود فى عام ١١٥ ، والتى شملت أنحاء كثيرة من الولايات الشرقية ، واستمرت حتى اعتلاء الإمبراطور هادريان للعرش فى عام ١١٧ ، وظل الريف المصرى يعانى من آثارها لفترة طويلة . ولكن انكسرت شوكة اليهود بعد ذلك ، ولم يعودوا مصدر قلق فى المنطقة [٤].

---

(1) Philo, In Flacc. 55 .

(٢) مصطفى كمال عبد العليم : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(3) Goodman, op. cit. p. 275 .

(4) Lewis, op. cit. p. 31 .

المصريون :

أما البقية الباقية من سكان مصر ، من غير المواطنين الرومان ، ومواطنى المدن الإغريقية واليهود ، فهم الذين يطلق عليهم إجمالاً " المصريون " ، وتطلق هذه الصفة على سكان الريف، سواء أكانوا ينحدرون من أصول مصرية أو إغريقية ، وهى فئة لم تشهد حياتها تغيرات تذكر[١]، ومما هو جدير بالذكر أن الوضع المتميز الذى كان يتمتع به الإغريق والمقدونيون فى عصر البطالمة لم يعد له وجود ، وقد أشار المؤرخ ليفيوس إلى هذه الحقيقة حينما ذكر " أن المقدونيين قد أنزلوا إلى مرتبة المصريين "[٢]. وقد أدى زوال التفرقة بين المصريين والإغريق إلى إنعدام الفجوة بينهم ، فشاع الزواج بين الطرفين ، وبشكل خاص فى الريف ، وكان الأطفال الذين يولدون نتيجة لهذه الزيجات يحملون أسماء إغريقية أو مصرية . ولكن الإدارة الرومانية كانت حريصة على بقاء الفوارق بين الفئات ، فوضعت قوانين لتنظيم العلاقة بين الطبقات ، وفرضت عقوبات صارمة على من يخالف تلك القوانين . ومن الملاحظ أن هذه القوانين كانت جائرة جداً بالنسبة للمصريين .

عندما أصدر الإمبراطور كركلا قراره الشهير فى عام ٢١٢ ، والذى قضى بمنح حقوق المواطنه الرومانية لكافة رعايا الإمبراطورية ، فيما عدا فئة واحدة أطلق عليها القرار فئة المستسلمين ، وهى فئة أشرنا من قبل إلى أننا لا نعرف على وجه التحديد من هم الذين عناهم هذا القرار ، فعلى الرغم مما قد يبدو للعيان من أن هذا القرار قد ألغى الفوارق الاجتماعية ، فإنه بالنسبة للمصريين فى المدن والقرى ، لم يكن يعنى شيئًا جديداً [٣]. ويقول الأستاذ "بل" Bell أن حصول المصريين على المواطنة الرومانية لم يؤد إلى إعفائهم من دفع ضريبة الرأس ، بل زادت عليهم الأعباء ، فقد تقرر أن يدفعوا ضريبة جديدة ، هى ضريبة الميراث التى كانت مقررة على المواطنين الرومان [٤].

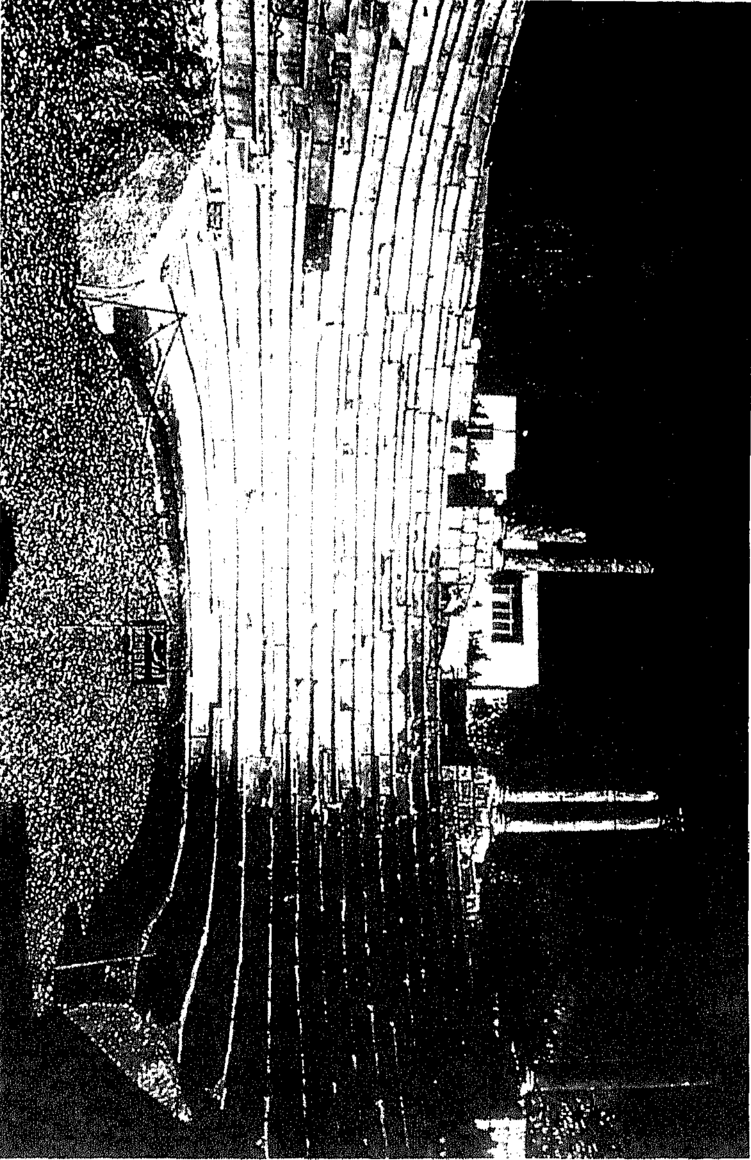
---

(1) Rostovtzeff, op. cit. p. 298 .

(2) Livy . His. 38 . 37 .

(3) Lewis, op. cit. p. 32 .

(٤) بل : المرجع السابق ، ص ١٤١ .



المسرح الرومانى بالإسكندرية

الاختصارات الواردة فى الكتاب

- C.A.H = The Cambridge Ancient History .
- J.E.A = Journal of Egyptian Archaeology .
- J.H.S = Journal of Hellenic Studies .
- J.J.P. = Journal of Juristic Papyrology .
- J.R.S. = Journal of Roman Studies .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١ - النقوش :

- O.G.I.S : Orientis graeci inscriptiones Selectae ed. W.Dittenberger. Leipzig. 1903 - 1905 .
- Res Gestae Divi Augusti : P.A.Brunt, J.M.Moore. Oxford. 1983 .
- S.E.G : Supplementum epigraphicum graecum, Leiden. 1923 - 1938 .

٢ - البردى :

- P. Lond : Greek Papyri in the British Meusum , I-IV. ed Kenyon, Bell, London. 1838 - 1917 .
- P.Oxy : The Oxyrhnchus Papyri. London. ed. Grenfell, Hunt and Others. 1898 - 1968 .
- P.Tebt. : Tebtunis Papyri. B.P.Grenfell, A.S.Hunt, London. 1902 - 1933 .
- Revenue Laws : Revenue Laws of Ptolemy Phiadelphus ed . Mahaffy . Oxford. 1896. redited with minor Corrections by. J. Bingin. 1952 .
- Select Papyri : Loeb Classical Library. London, 1970 .

٣ - المصادر الأدبية :

- Ammianus Marcellinus : tr. John. C.Rolf. L.C.L. 1972 .
- Appian. Syr : Appian. Roman History. Syrian wars tr. Hortace White. L.C.L. 1972 .
- Dio Cassius : Roman History. L.C.L. 1970 .
- Dio Chrysostom : Tr. J.W. Cohoon. L.C.L. 1961 .

- Diodoros of Sicily : tr. Francis R. Walter . L.C.L. 1967 .

- Horatius, Odes : tr. C.E. Bennett. L.C.L. 1968 .

- Herodutus. The Histories : tr. A.R. Burn. 1972 .

- Josephus : Jewish Antiquities. tr. Louis H. Feildman L.C.L. 1969 .

The Jewish Wars. tr. St. J. Thackray L.C.L. 1968 .

- Libanius, Antiochikos : Selected works. tr. A.F. Norman . L.C.L.1969 .

- Livy : tr. B.O.Foster. L.C.L. 1967 .

- Maccabees : ed. R.H.Charles. Oxford. 1913 .

- Ovid. Tristia : tr. Arthur Leslie Wheeler. L.C.L. 1965 .

- Philo : De Specialibus Legibus. tr. H. Colson L.C.L. 1950 .

in Flaccum. tr. F.H. Colson . L.C.L. 1967 .

- Pliny : Natural History. tr. H. Rackham. L.C.L. 1969 .

- Plutarch : Caesar. tr. Bernado tte Perrin. L.C.L. 1967 .

- Polybius : The Histories. tr. W.R.Paton. L.C.L. 1968 .

- Strabo. : Geography. tr. H.L. Jones. L.C.L. 1966 .

- Tacitus : The Histories. tr. Clifford H. Moore. L.C.L. 1968 .

ثانيًا : المراجع

١ - المراجع العربية :

إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة أربعة أجزاء ، القاهرة ١٩٨٠م.

أبو اليسر فرج : حملات الإسكندر الأكبر وتطور المعلومات الجغرافية عند الإغريق ، حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، العدد ٢٧ ، جـ٢ ، ١٩٩٩م .

- الدولة والفرد فى مصر فى عصر الرومان (عين للدراسات) ، القاهرة ١٩٩٤م.

- النيل فى المصادر الإغريقية (عين للدراسات) ، القاهرة ١٩٩٥م.

- مهام الأويكونوموس (عامل المالية) فى مصر فى عصر البطالمة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة عين شمس ١٩٨٠م.

أحمد عتمان : كليوباترة وأنطونيوس ، دراسة فى فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقى ، القاهرة ١٩٩٠م.

« « « « : الأدب اللاتينى ودوره الحضارى . عالم المعرفة العدد ١٤١.

أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، ط ٧ ، القاهرة ١٩٩١م.

أرسطو : السياسة . ترجمه إلى العربية أحمد لطفى السيد . مع مقدمة للأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود . الرياض (بدون تاريخ) .

آمال الروبى : مصر فى عصر الرومان . القاهرة ١٩٨٠م.

أمين سلامة : معجم الأساطير اليونانية والرومانية ، القاهرة ١٩٨٨م.

بل . هـ . آيدرس : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . ترجمه د. عبد اللطيف أحمد على . بيروت ١٩٨٨م.

تارن . وو : الإسكندر الأكبر قصته وتاريخه . ترجمة زكى على مراجعة د. محمد سليم سالم . القاهرة ١٩٦٣م.

- الحضارة الهللينستية . ترجمة : زكى على : القاهرة ١٩٦٦م.

جنتر ، جون : الإسكندر الأكبر . ترجمة : فاروق القاضى . القاهرة ١٩٦٣م.

داونى . جلانفيل : أنطاكية القديمة . ترجمة إبراهيم نصحى . القاهرة ١٩٦٧م.

حمد بن صراى : تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم . دبى ١٩٩٧م .

- منطقة الخليج العربى من القرن الثالث ق.م. إلى القرنين الأول والثانى الميلاديين . أبو ظبى ٢٠٠٠م.

زكى على : كليوباترة . سيرتها وحكم التاريخ عليها ، القاهرة (بدون تاريخ) .

سليم حسن : مصر القديمة . جـ١٦ من عهد بطليموس الخامس إلى بطليموس السابع . القاهرة (بدون تاريخ) .

سيد الناصرى : مصر والشرق الأدنى فى العصر الهللينيستى ، القاهرة ١٩٩٧ - ١٩٩٨م.

- تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى ، القاهرة ١٩٧٥م.

عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم . مصر والعراق ، القاهرة ١٩٨٤م.

عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية القاهرة ١٩٦٥م.

لطفى عبد الوهاب يحيى : دراسات فى العصر الهللينيستى . بيروت ١٩٨٨م.

- العرب فى العصور القديمة . مدخل حضارى فى تاريخ العرب قبل الإسلام . بيروت ١٩٧٩م.

محمد السيد عبد الغنى : شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة . الإسكندرية ١٩٩٩م.

- لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الرومان . الإسكندرية ١٩٩٩م.

محمد فهمى عبد الباقى : ضريبة الرأس فى مصر الرومانية . رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة القاهرة . ١٩٧٩م.

مصطفى العبادى : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . القاهرة ١٩٨٥م .

- العصر الهللينيستى . بيروت ١٩٨٨م.

مصطفى كمال عبد العليم : اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، القاهرة ١٩٦٨م.

مليحة الزهرانى : علاقة شبه الجزيرة العربية بجاراتها فى العصر الهللينيستى سياسيًا وحضاريًا . من عام ٣٣٢ إلى عام ١١٥ ق.م. ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات بالدمام ١٩٩٥م .

نورة النعيم : الوضع الاقتصادى فى الجزيرة العربية فى الفترة من القرن الثالث ق.م. حتى القرن الثالث الميلادى ، الرياض ١٩٩٢م.

٢ - المراجع غير العربية :

- Bell, H.I. : The Acts of the Alexandrians. J.J.P.IV. 1950 .

Alexandria. J.E.A. XIII. 1927.

- Bowman, A.K. : Egypt after the Pharaohs. London. 1983 .

- Bury, J.B. : A History pf Greece. London. 1982 .

- Cary, M. : The Geographic Background of Greek and .

Roman History. Oxford. 1949 .

A History of Rome. London. 1988 .

- Ellis, Walter M. : Ptolemy of Egypt. London. 1994 .

- Crawford, Michael . : The Roman Repuplic. London. 1992 .

- Fraser, P.M. : Ptolmaic Alxandria. Oxford. 1984 .

- Goodman, Martin . : The Roman World. 44 B.C. - AD. 180 . London. 1997.

- Grant, Michael . : From Alexander to Cleopatra. The Hellentic world. London. 1982 .

- Hadas, Moses . : Hellenstic Culture. New York. 1972 .

- Hamilton, J.R. : Alexander the Great. London. 1973 .

- Herman Bengtson, Others. : The Greeks and Persians. London. 1972 .

- Johnson, Allan Chester . : Roman Egypt to the Reign of Diocletian, Baltimore. 1936 .

- Jones, A.H.M. : The Decline of the Ancient World. London, 1977.

- Jouguet, p. : Alexander the Great and the Hellenstic Civilization. Chicago. 1978 .

- Lewis. N. : Life in Egypt under the Roman Rule. Oxford. 1983 .

- Greeks in Ptolemaic Egypt. Oxford. 1986 .

- Milne, J. G. : The Ruin of Egypt by Roman mismanagment. J.R.S.XVII. 1927. pp. 1-13 .

- Preáux, C. : L'economie royal des Lagides. Bruxdelles 1939 .

Le Monde Hellenistique, La Grece et l'Orient. 323 - 146. J.C. Paris. 1989.

- Reinmuth, O.W. : The Prefect of Egypt from Alexander to Diocletian. 2d ed. Klio. 1979 .

- Rostovtzeff, M. : The Social and Economic History of the Hellenstic World. Oxford. 1953 .

The Social and Economic History of the Roman Empire. 2d. ed. Revised P.M. Fraser. Oxford. 1979 .

A Large Estate in Egypt in the third Century B.C. Madison. 1922 .

Roman Exploitation of Egypt in the first Century A.D. Journal of Economic and Business History. Vol I. 1929 .

- Ruth, Cecil . : A Short History of the Jewish people , London. 1953 .

- Syme, Ronald. : The Roman Revolution. Oxford. 1960 .

- Tarn, W.W. : Ptolemy II and Arabia. J.E.A. 14. 1928 .

- Tcherikover, Victor. : Hellenistic civilization and the Jews. New York. 1979 .

- Vimala, Begley. and Richard Daniel de Puma .

Roma and India. The Ancient sea Trade. London. 1991.

- Wallace, S.L. : Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian. Princeton. 1938 .

- Welles, B.C. : Royal Correspondence of the Hellenstic Age. Yale. 1934 .

- Wilcken, U. : Alexander the Great. translated into English by. G. G. Richards , New York, 1976 .

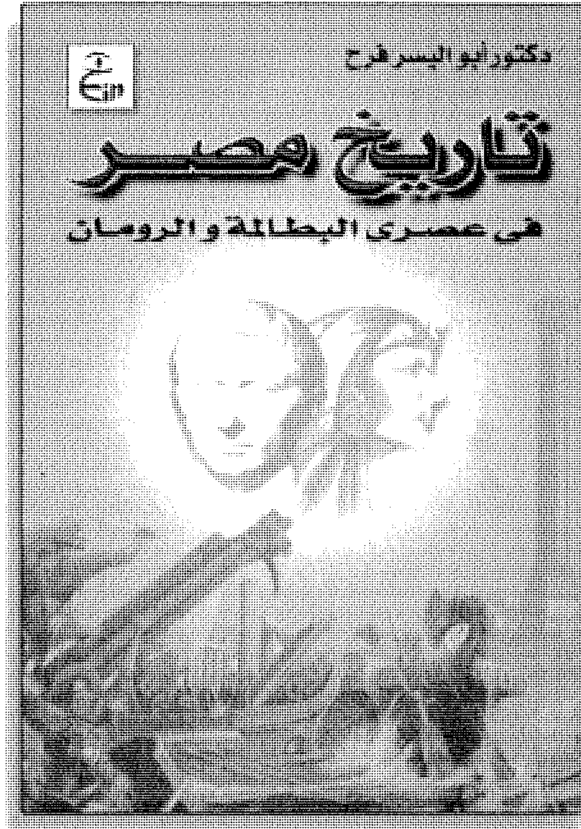
- Whiteborne, John . : Cleopatras. London. 1994 .

- Witt . R.E, Isis in the Graeco - Roman World, London. 1971 .

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٤٨٢٤

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 095 - 8

دار روتابرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق





للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES